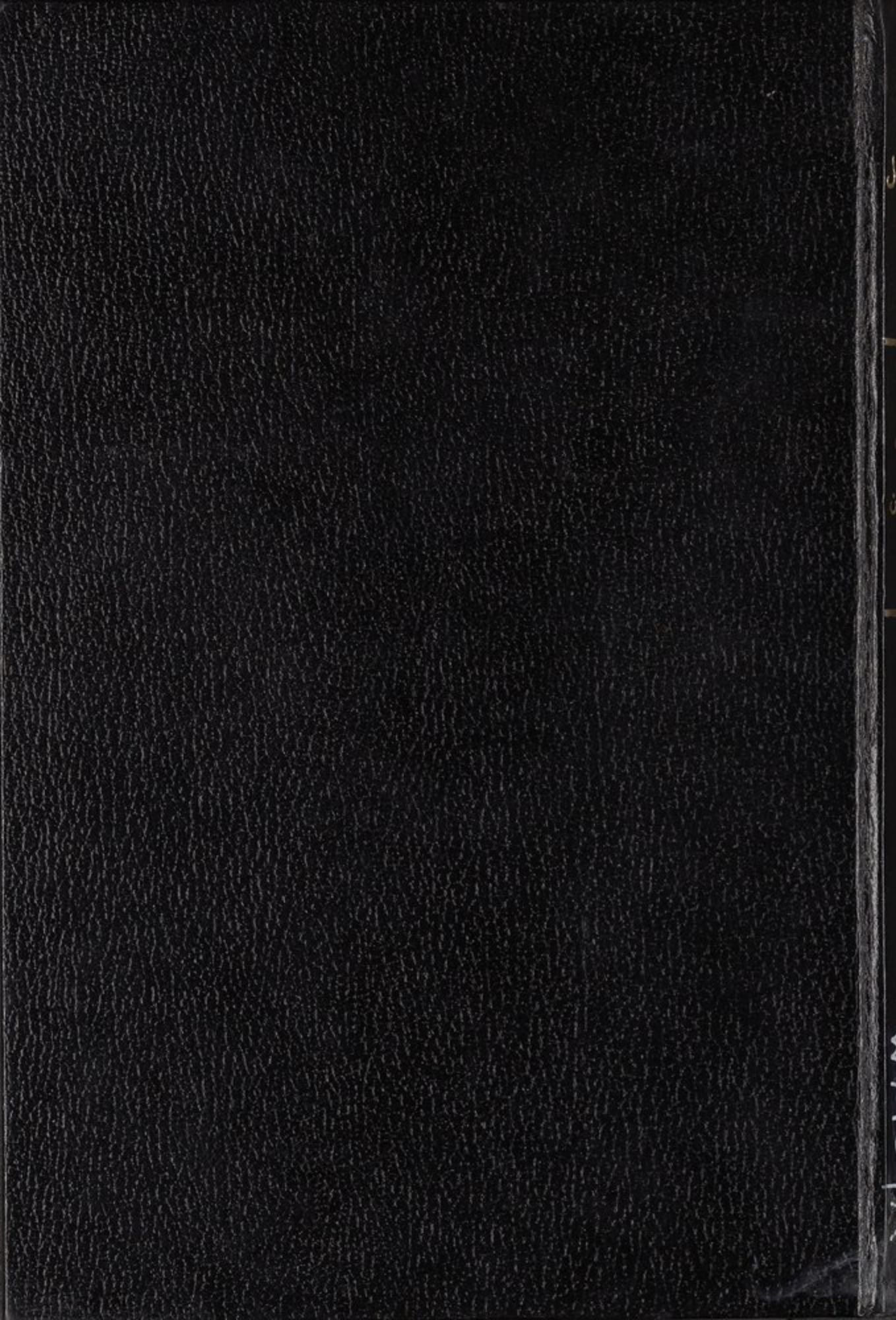




A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



ابو الفضل الوليد

320.956

W/1769A

كتاب القضيتين

في السياستين الشرقية والعربية

من تصانيف العلامة

ابي الفضل الوليد

الف سنة ١٩٢٠ وطبع سنة ١٩٢١

الطبعة الثانية

١٩٣٤

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

57451

مطبعة الوفاء — بيروت

المطبوع حديثاً من تأليف العلامة ابي الفضل الوليد

في النظم

رياحين الارواح
اغاريد في عواصف
الانفاس الملهبة
نفخات الصور
غافر ولبانة
السباعيات

في النثر

احاديث المجد والوجد
كتاب القضيتين
المالك
التسريح والتصریح

في النثر والنظم

زوال الحب والملك

بسم الأمة العربية

أحمد لله الذي شرف العرب . وبفهم من
الدين والدنيا العرب . واخرج من غير أمة
غير رسول . وبسط لها في الأرض سلطانا
لا يزول . ونشر لسانها وهد لسان الملوك
أرواحا . فطمان لها من فتورها ونظومه كل
خلق أعلى . به أكتب لنفسها وبعدها . وما
كنت إلا الدخيل بعهد لها . واني من أبرز
البنين . لأوم أبو بطان والشهيد بن ربي
أوم التي تفدي . وتستحق أفضل ما
لهدي . وهذه أخط بحيني . ثبتت إيمان
وقيني . وأنا المجاهد بجليه . أبو الفتح الوليد

أحمد أو - لسان

النجية ١٨ محرم ١٢٥٢ - ١١ ايار ١٩٢٢

سيرة المؤلف

حتى سنة ١٩٣٤

هو الياس بن عبدالله بن الياس بن فرح بن طعمة المعروف بابي الفضل الوليد . و امه مرشة بنت خليل بن فارس بن طويا من بيت شباب . وجدها يوسف الشتيري احد ابطال لبنان وقواده المشهورين . وقد كان لجديه الياس طعمة و خليل طويا من الثروة والوجاهة صيت بعيد ومنزلة رفيعة والمرجع الى رأييهما في المعضلات والى ماليهما في الشدائد . وتوثقت بينهما وبين الامراء الصداقة والمعاملة زمناً طويلاً . فصاحب الترجمة سليل ثلاثة بيوتات عريقة في الجاه والغنى والكرم

ولد في لوائل آب من سنة ١٨٨٩ في قرنة الحمراء من قاطع المتن . ودخل مدرسة القرية في السادسة من سنه . فما كاد يتهجد الحروف حتى اجاد القراءة فكان معلمه يتعجب من ذهنه وفهمه وذاكرته وفطنته . واشتهر بسرعة التحصيل حتى ضرب به المثل في النجابة والذكاء . وكانت له توثره وتخصه بمحبها وعطفها مدفوعة بحساسة الامومة . وابوه يقرئه في المجالس ويقول معتزاً او مفتخراً : كافي اري هذا الولد مرفوعاً الى السماء واسمعه له صوتاً عالياً في الدنيا . وكما رآه احد الكبراء من اسرته قال معجباً « هذا الصبي اعجوبة الزمان واطروفة الطبيعة » وفي مدة سنتين تمكن من العربية والم بالافرنسية وبدا ميله الى الشعر بنظمه بعض ابيات . و كان جسمه وعقله ينموان معا نمواً سريعاً

وفي اواخر سنة ١٨٩٩ ارسله والده الى مدرسة عين طورة . فتخرج فيها
ثلاثة اعوام اي من العاشرة الى الثالثة عشرة . وكان كل سنة يتجاوز صفاً
لنجاحه الباهر وسبقه لقرانه . وفي السنة الاخيرة ظهرت مقدرته السليقة
في الانشاء . فكان معلمه بالافرنسية يستدعي الرئيس ليطلع على فروضه
المكتوبة بلا غلط . فتعترىهما الروعة لذلك الامر الخارق والنضوج الباكر
وفي اثناء تلك السنوات نظم قصائد في العربية والافرنسية . وعند بلوغه
بدا نزوعه الى الحرية والحمية فشكا معلموه منه تمردا وشدة مراس
وكان والده من هواة العلم الباذلين المال بسخاء للتعليم . فاختار بعثه الى
مدرسة الحكمة في بيروت ليفقه العربية ويحذقها . وقد علم ان المدارس
الاجنبية تورث ضعفا وفسادا في الملكة . فوافقته والدته على ذلك وكانا
محبين للعرب والعربية . وطالما رآهما طرويين لاخبار العرب واشعارهم
وسمعهما يرددانها بارتياح وافتخار لانهما نشأا نشأة بلدية صحيحة . وتأثرت
نفسه بقراءته لها قصة عنزة وحكايات الف ليلة وليلة وكتبها عربية اخرى
وجرى يوما ان اعرابية جاءت سائلة فانشدت امه (يجود علينا الخيرون بما لهم)
فاجابتها (ونحن ببال الخيرين نجود) فسرت بها واجزلت لها العطاء

وفي سنة ١٩٠٣ كان في مدرسة الحكمة وقد بلغ الرابعة عشرة . فاكب
على درس العربية برغبة ولذة لما عنده من جودة الاستعداد . فولع بها لوضوحها
في المدرسة المليئة بعد غموضها في الاجنبية . اما الافرنسية فكان قد برع فيها
حتى غدا معلمه بملي انشاء على رفاقه . وفي ثلاثة اعوام اتم دروسه وكان سابقا
مبرزاً . وملاً في اثنائها صحفا كثيرة من منشوره ومنظومه . وخارج فائزاً

محققا للآمال يحمل الجوائز الكثيرة . وقد حبيه الى معلميه ورفاقه حسن سلوكه وذكاء فؤاده . فكانت مدة تخرجه في المدرستين ست سنوات عاد الى البيت في صيف سنة ١٩٠٥ وهو في السادسة عشرة . والذي يراه ويسمعه يستبين الرجولة التامة في منظره ومخبره . وكان كهلا في الشباب بل في الصبي وهيبته ومعرفته تربيان كثيرا على سنه . فبات مسموع الحديث والخطابة في المجالس والمحافل . وطالما وقف من قبل وهو خريج حدث يرثي اويهنى بقصائد طويلة فاحدث دهشا وعجبا . وكان برزا يحاضر الكهول والشيوخ ويباحث الرؤساء والعلماء . واراد والده ان يعلمه الطب او الفقه وعرض عليه منصب في الحكومة . فانفت نفسه الحرة النزيهة من قيد الحرفة والوظيفة

قضى في بيته وبلدته زهاء ثلاثة اعوام من اطيب العمر . فكان يتنقل من خلوة مطالعة وتأليف الى نزهة تمتع بجمال الطبيعة . وله شغف بغرس الازهار وتأمل الوانها وتنشق روائحها . وزهت به اندية اللهو والسمر والغزل لامتيازه بالظرف والليانة والكياسة . وشهد له الجميع بطلاوة الحديث وعذوبة النطق وحلاوة الانشاد وفكاهة الدعابة ولطافة النكتة ورقة المغازلة وسرعة المساجلة وحسن البديهة والجواب . وكان كلامه يتفجر تارة ماء ويتلهب طورا نارا

عكف على التصنيف والتعريب في اوقات الفراغ ، فكان ميله الى الروايات التمثيلية الجامعة للحماسة والغرام المقتبسة من تاريخ العرب ، فوضع ثلاث روايات كل واحدة منها ذات خمسة فصول ، وهي اسرار بغداد و نكبة

البرامكة واحمد وولادة ، وعرب في النظم البحرية للأمرتين ، والليالي
 لالفرد . دي موسى وقسم من القصة الالهية لدنتي . وفي خليط من النثر والنظم
 آخر بني سراج لشأنو بريان . وثلاث روايات تمثيلية لالفرد دي موسى هي :
 أحلام العذارى . والحب آخره قتل . وبعثناه خاطبا فتزوج . ونظم نشد
 الاناشيد لسليمان جاعلا له مقدمة بدبعة ، وما فتى . ينظم القصائد الكثيرة
 من شعره الجيد مع ما ألفه وعربه . كل هذه التصانيف وضعها في سنتي
 ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، ولما سافر حملها فضاعت في إحدى رحلاته وكانت
 الخسارة كبيرة

وفي صيف سنة ١٩٠٧ ألف جوقة من فتيان أسرته لتشخيص روايته
 احمد وولادة . وهما الشاعر الوزير ابن زيدون وحييته الاميرة الادبية ولادة
 بنت المهدي . فلقني صعوبات ومعارضات كثيرة من بعض اهله واهل السلطة
 لكنه مضى في عمله حتى نجح مسعاؤه وتم له المرام . فهياً مسرحاً من اجل
 المسارح وجهازه باجود الزينة والسلاح واللباس . ثم اخرج عليه روايته اخراجا
 انيقا بديعا تعجز عنه مسارح المدن . فاقبل الناس عليها ايما اقبال وشهدوها
 ثلاث مرات . وقد شاقهم وراعهم حسن الموضوع والسبك والاخراج

ثم عزم على السفر فاجهر من بيروت في اواسط نيسان سنة ١٩٠٨ ، فمر
 سائحاً بمصر وايطاليا وفرنسا واسبانيا والبرتغال . وشاقته البلاد الامركية
 فتوجه الى الارجنتين حيث اقام سنتين متجولاً . ثم غادرها فخرج على
 متيقيدها وعاصمة الاورغواي . ونزل البرازيل فاستقر فيها اثنتي عشرة سنة
 وكان مركزه في ريو دي جانيرو عاصمتها . وقد طاف كثيراً من ولاياتها

الداخلية والساحلية . وحين هم بالقفول في سنة ١٩١٤ منعه اعلان الحرب
الكبرى

في سنة ١٩١١ بدأ بنشر مقالاته وقصائده في جرائد البرازيل العربية
فكان الصحافيون يتنافسون بها ويتسابقون اليها والجمهور يتهافت على قراءتها
وحفظها . ومن اعجب الامور ان اول ما كتبه احدث دهشة وضجة . وفي
١٥ نيسان من سنة ١٩١٣ اصدر جريدته (الحراء) فكان لها شأن عظيم في
نواحي السياسة وحلقات الادب . وتواردت عليه رسائل الثناء من جميع
المهاجر والمواطن العربية . وتناقلت الجرائد مقالاتها وقصائدها في جميع
الاقطار

ودعته احدى الجمعيات اللبنانية الى انشاء قصيدة في حفلة وطنية . فوصله
كتاب الدعوة قبل ميعاد الحفلة بيومين . فنظم القصيدة المطلوبة في نهار وليل
وعدد ابياتها مائة واربعة وخمسون . وذهب من ريودي جانيرو الى سان
باولو في ٥ ايلول من سنة ١٩١٣ ، فانشد تلك القصيدة الطويلة من ظهر قلبه
امام الجمع المحتشد . فتحمس له تحمسا شديدا وطاف به شاكرامهنا . وطبعت
قصيدته تعلوها صورته في خمسة آلاف صحيفة بعنوان (المعلقة اللبنانية)
ووزعت على الناس فوضعوها ضمن اطارات وعلقوها في بيوتهم . واقامت له
الجمعية حفلة تكريمية اظهرت فيها افتخارها وامتنانها . وقدمت له تذكارا
عدينة من ذهب منقوش عليها اسمه واسمها .

ظل يصدر جريدته حتى سنة ١٩١٧ فنالت حظوة وشهرة عظيمتين
وكان ينشر فيها وفي سواها قصائده ومقالاته الملتهبة بحماسة العصبية والوطنية

وفيهما كثير من التحسر والتفجع لما اصاب قومه وبلاده من ويلات الحرب
 حركت تلك الحوادث اسمى العواطف واقواها في قلبه الشريف الكبير
 فاخرجت منه الخلود والفخار والمجد لامتة المضطهدة الشهيدة . وقد حرر جرائد
 كثيرة غير جريدته ولم تخل صحيفة من در كلامه المنشور والمنظوم . وكانت
 الجمعيات والنوادي تفاخر بحضوره حفلاتها وخطابته فيها . والشعب يقابلة
 بالاعظام والاكرام وقد تحقق صدقه واخلاصه في اشرف المذاهب والغايات . فان
 عمال الاجانب حاولوا اغراءه واستمالته بالجاء والمال . فاعرض عنهم وانف حتى
 من مقابلتهم . وجرت بينه وبين المراكز السياسية العربية مراسلات
 ومفاوضات لانها عدته زعيم العرب في المهجر

وفي تشرين الاول من سنة ١٩١٦ اتخذ كنية ابي الفضل واسم الوليد
 بدلا من اسم الياس . وقيدتها في سجل الحكومة البرازيلية فاصبحا رسميين
 شرعيين يعرف ويعامل بهما . ولم يغير اسمه لانه غير عربي بل لانه ابتذل
 وقصد به علم النبي اليهودي . فهذا الاسم حمله احد اجداد العرب وهو الياس بن
 مضر بن نزار . وقد صنع اصحابه وانصاره حفلة تذكارية لذلك الحدث
 فاذاغت خبره الجرائد في كل الاقطار واصبح معروفا بابي الفضل الوليد . وطبع
 من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢١ جملة من تأليفه في النثر والنظم

وفي نيسان سنة ١٩٢٢ ركب البحر عائدا الى وطنه فخرج في طريقه على
 الجزائر وتونس . واقام مدة مستريحا بين اهله ومتمنزا في الربوع السورية . وفي
 غرة كانون الاول سنة ١٩٢٤ رحل الى القاهرة فاحتفى به اهل العلم والسياسة
 وكان يتردد الى الوكالة العربية حيث رشح لرئاسة السفارة العربية بباريس

فحالت دون تعيينه حرب الحجاز وسقوط جدة . وشاء نفران يعيدوا طبع كتبه في مصر لينشروها في البلاد العربية فلم يتوفقوا لظروف القاهرة مانعة . وقد رأى بعضها مخطوطا عند اشخاص لم يمكنهم ان يحصلوا عليها مطبوعة . وارادته جماعة من الزعماء والعلماء والكتاب على السكنى في مصر بغية الاستفادة من معارفه . فوعدهم بالقبول والرجوع بعد مقابلة الملك الحسين الذي استدعاه اليه في العقبة . وعند الوداع قال له احد الشيوخ الفضلاء : لقد كانت غربتك في امر كابقضاء من الله لخير الامة العربية . فلو بقيت في الشرق لم تستطع ان تظهر لها ما اظهرته في الغرب

وسار في اخر كانون الثاني سنة ١٩٢٥ من القاهرة الى القدس ومنها الى عمان ، فآكرمه صاحب الاردن الامير عبدالله واوفده مع ولي عهده الى ابيه في العقبة ، فانزله الملك العربي الجليل خير منزل وانعم عليه بلقب شيخ وحل في معان بين اصحاب الدولة فبالغوا في التلطف به واظهار السرور بقدمه وودوا ان يبقى معهم في خدمة الدولة الهاشمية لولا تعسر الامر وتخرج الموقف وقفل الى عمان فغادرها الى دمشق مارا بجوران ، وفي اوائل آب سنة ١٩٢٥ رحل الى بغداد . فاستقبله ملك العراق استقبالا ممتازا ورجبت به حاشيته احسن ترحيب

وطبع في بيروت سنة ١٩٢٦ رواية زوال الحب والملك ، وسنة ١٩٢٩ كتاب احاديث المجد والوجد ، وسنة ١٩٣١ ديوان رياحين الارواح ، وسنة ١٩٣٢ منغمة غافر ولبانة والسباعيات ، وفي تموز سنة ١٩٢٩ انتدبته لجنة من الاحرار ليمثل لبنان في المؤتمر الشرقي ضد الامتعمار الذي عقد في برلين

وقد شهد له الجميع بالحفاظ والوفاء والامانة والاخلاص

لقد طبع كتبه بنفخته وعنايته لخدمة الامة العربية لاسيما العشيرة السورية . لكن طبعها جرى ابان الحرب في الغرب فلم يكن منه نصيب للوطن . فعاد ينشر من قديمه وجديده غير آسف على المال في سبيل الصلاح فبات ذا فضلين بالالمعية والارحية وقما طبع من كتب . ولم يكن مداده لينقطع على انقطاع المدد . انه مجاهد قديم محارب حتى تكسر سلاحه . وبعدها قام بالفرض ووفى بالعهد هجر الدواة وسائر الادوات . ولم يعتزل الالتيقه انه لم يبق للقدم مفزع وللسمهم منزع . تحكى قائدا رومانيا كان يعود من نقاع الحرب الى بقاع الحرث . وما كان ناثرا وناظما ليعد كائنا وشاعرا . وما اتخذ الادب حرفة ليداومه لكن بلاغاً ورسالة . هذه الحرفة العقيمة صاحبها ضعيف عاجز اذا لم تكن لغاية شريفة ومنفعة عميمة

لولا بياض امله لما شهد الملاء سواد ورقه . ولولا حبه لقومه ووطنه لما اضاع في الكتابة احسن العمر . فليس الا صاحب دعوة له عقيدة مليّة و طريقة سياسية . حمل القلم سلاحاً لاظفارها و اظهارها فكتب للعزم والعمل لا للعب والكسل . وكان نثره ونظمه مبدين لشعوره و ايمانه ورجائه . وان له في الكتابة السياسية مقدرة جعلته من اهل الطبقة الاولى . فلا يصح الا به وبامثاله قول الرسول في حديثه الشريف « يوزن مداد العلماء ودم الشهداء » يوم القيامة فلا يفضل احدهما الاخر

ان للزمان والمكان تأثيراً شديداً في الرجال . فابو الفضل الوليد كان كثير النشاط والتعرض في الغرب . فصار في الوطن اليكف السكون والاعتزال

وهذا دليل على ان المقدرة والموهبة لا تظهران الا في الحرية . والحواد لا يعرف
 الا بالجمال الواسع والشأ والبعيد . واي قوة لاسد في قفص واي تغريد لطائر
 في شرك . وكم رجل عظيم خمل في سجن او منفي بعد ما مجد على سرج او
 منبر . فلا جري بلا اطلاق ولا سعي بلا اطماع ولا اريحية بلا حرية
 فعسى ان تكون عودة طيبة لابي الفضل الوليد

هو طويل القامة قوي البنية متناسب الاعضاء حنطي اللون كبير الرأس
 كثيف الشعر واسع الجبهة ازج الحاجبين انجل العينين عسلي الخدقين ضخيم
 الانف غليظ الفم عريض الذقن والصدر طلق المحيا حسن المقابلة لين الجانب
 حلو الحديث لطيف الحس شديد الطرب صبور جليلد محب للحلم والعفو والرحمة
 والاحسان ذوانفة وعفة ونزاهة وشهامة مترفع في العزلة متواضع في العشرة
 حافظ للعهد وفي بالوعد غضوب للحق ولوع بالعدل



كلمة اخلاص

ما كان التهاب فكري الا من اضطراب نفسي واضطراب قاي
فالفضل في الهامي لروح العروبة التي لاحت لي من ورائها
روح عليين

اني اموت كما عشت عرياً آملاً مشوقاً واود ان تضم جثثاني تربة
دمشق الطيبة

هناك تهيم روحي في البادية وننشق نفحاتها الطاهرة وتطرب لهدير
بردي

تلك رقدة اشتبهها واعلل نفسي بها واراها خير مكافأة لي اذا كنت
مستحقاً



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آيات مؤلفة من القرآن

كنتم خيرامة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، استمعينوا بالصبر ولا تحزنوا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ، ولنباونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، ولكم في القصاص حيوه يا أولي الالباب لعلكم تتقون ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم ، الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم . كتب عليكم القتال مما تلبوا الذين يقاتلونكم ، واقتلوه حيث ثقتهم واهرجوهم من حيث اخرجوكم كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، واقتلوه حتى لا تكون فتنة والفتنة اشد من القتل ، واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فآلف بين قلوبكم فاصبحتن بنعمته اخواناً ، واذا لقيتم فئة فاثبتوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، فان يكن منكم مائة صابرة تغلبوا مائتين وان يكن منكم الف تغلبوا الفين ، لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، وحرص المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأساً واشد تسيكلاً ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً ، يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون ، او كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، ومن الذين من يعجبك قوله ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصاص ، واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، وما لنا الا نقاتل وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا . ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين

كتاب القضيتين

للحرية والحقيقة والعدالة والفضيلة

١

الله اكبر والحق اعلى فبشري للصادقين وبشراً ، اني اصاحب دعوة
يجيب الداعين ويخيب الناعين ، وما كنت الا في منعة من قومي وبأس شديد
اياهم ادعو ولي صوت جهير في المقال الصراح ، ان هو الا صريخ لحشرة
امة شهيدة قلوبها تتألم في قلبي ، فاذا انفخت في البوق مستنفراً كادت ضلوعي
تتمزق حمية وغيظاً ، الصور يزعق زعقاً فتي يرجف للراجلة ويردف للرادفة
لاستصراخي زلزلت الارض وغيري له بكاء ومكاء ، بعد هذا الاسماع لا
وفر في الاسماع وقد كان الدوي قوباً . الروح الشرقية السامية العربية لها سورة
في دمي وثورة على قلبي ، ليت ما في منها في ابناء عدنان وقحطان واتباع
الرسول اجمعين ، ان قلبي من حنقها وسخطها كالافعى المجروحة او هو منهوش
من الافاعي ، انا شرقي عربي سوري وان لي كوبتي شرفاً ونخاراً ، ابدأ
اكون مع كل مواطن على الاجنبي ومع كل عربي على الاجنبي ومع كل شرقي على
الغربي ، نزعتي الى وطني ونعرتي لجنسي وغابتي الحرية والاستقلال ، لقد
رسمت خطة لا محيد عنها وحلفت حلفاً لا خروج منها ، حرراً كنت وحرانا

وحرراً اظل امام الله والبشر ، لا آلو في الجهاد حتى تبلغ النفس عذرها او
تكشف عسرها ، كتب الجهاد علي فالحمد لله الذي جعله لي نصيباً ، ذلك هو
الشرف الاعلى في الحفاظ على العلق الاعلى ، وان نفوس الشرفاء واموالهم
وقواهم مبذولة في سبيل الله والامة والوطن ، فمنهم مجاهدون بالسيف ومنهم
مجاهدون بالقلم وقد تساوى الجميع اجراً وصنيعاً ، هم صحابة صفاء وهدى
وعصابة وفاء وفدى ، فايئنا بكونوا احسبهم اخواناً واصحبهم اعواناً ، لكل
عاطفة ولكل قوة والنجاح باجتماع القوى والعواطف ، ما اعطيه امتي قد
اخذته منها فلها ما في دماغي وفؤادي ، ابدأ ادعو الى الصلاح والفلاح
وبحسن النية اسعى الى نيل الامنية ، بما في من القوة اجدد القوي ، وبما
لي من العزم اشدد العزائم ، وبما عندي من الامل انعش الآمال ، تالله لم
اكن يوماً من القانطين ان القنوط كان هلاكاً ، حمادي اني اقدمت وقدمت
وربما كان بياني دون شعوري وعملي دون املي ، الى الله اسلم وجهي ومن
الحق استمد القوة ولو بلغت روحي الترقوة ، وما زلت ارى طيفاً بناجيني
واسمع صوتاً يناديني فازداد عزماً واقداماً ، على حد السيف اصرح بالحق غير
مدفوع برغبة ولا مردوع برهبة ، ولست متملقاً ولا مسترزقاً لاني عبت
الحرية وقدست الوطنية ، ان لي اسوة بالشهداء وكفى بكسب الاجر مزهداً
في ربح الاجرة ، لم اقل الا صدقاً ولم اشهد الا عدلاً وحسي ان يكون الله
حسيباً ورقيباً ، انا جديد النهجة شديد اللهجة لما يمنه صدري من الشعور
قلت لا اعداء الحق والفضيلة لا تبلحوا بالشهادة وتعالوا الى الحقائق ، ان شئتم
الخمتمكم بالحجة وان شئتم افهمتمكم بالحسنى ، الكريم خيره مأمول وشره مأمون

يسمع لغواً فيقول سلاماً ، ما كنت ذا لسان تبحان انما بينتي في بياني وقد
 جاء هدى وسحرأ ، وبما اوتيت من حدة الفؤاد اطلع الشيا ولا اهلح للمنايا
 فأنى للواهن المفؤود قطع العقبة الكؤود . ذلك شأن قبلي ولا قبل له بما
 التقية ويتقيه . حملت الحق في صدري حتى عيل به صبري ، فقلت الام
 اكتمه وما كان الله ليظني نورأ ، تلك لعمري كلمة ان لم اقلها قتلتني وقد
 تمخض الجنان بها جنينأ . حتى اذا خرجت كانت ثمدأ من نهر وزبدأ من
 بجر . الكلام قد يدمل كلوما والنفس قد يبرى نفوسأ . فاكون قد قضيت
 لبانة وادبت امانة على ظلم القضاء والقضاة . للحق اعيش وعلى الحق اموت
 ولي منه رجاء وعزاء . لا مداجاة عند حماة الحقايق ولا مداراة عند اهل
 الحفاظ . الحق على حدق القوم يقال لعل العثرة ثقال . لصاحبه انكدار
 البازي وله في النفوس اندراء اللهب . اما الذي يتضرع فيقلب على عقبه
 كأنه بظأ دحضأ . لن يكون من المفلحين اذ لا بد من الزلق في مشي الملق
 لقد ساء من رأى مصيراً وما رأى نصيراً . نى الى الثقلين ثأ فكان على اهل
 الباطل اثقل من رضوى ، ما لقلوبهم تحتلج فرقأ اذا ابصروا قلماً وورقأ . او
 ليسوا اهل البأس والسلطان ولهم جحافل واساطيل . هذا قلم على طرس
 يسمعون صريره صليلاً . وفي قوتهم وضعفه ودوا لبنات الافكار حريقأ او
 غريقأ . همس الحق صعق في ضمائر المنافقين ، فكلموا سدوا آذانهم سمعوه اشد
 واقوى كأنما جرسه جرس يتردد طنينه في آفاقهم وانفاقهم . ايها الذين
 يتظلمون صبرأ متنجحون ويفشل الظالمون . حسبكم رب العرش العظيم
 وارباب العروش على شفير . سيرسل عليهم ريحاً صرصراً فتصبح مصانعهم

قاعاً صنفصفاً . رب بهاء كالهباء منشور ورب فناء من الفناء مدثور ، هذا كتاب
 لاحق مبين ضمنته شعوري وفكري فهو من سواد عيني وسوداء فؤادي
 وكأني من كتاب جاء هداية للناس وكان نوراً وناراً . العاقل استعظم
 شأنه اذ درى والجاهل استنكر وازدرى . ان الصحائف كانت أساساً
 للشرائع والاديان والدول . ولا دعائم للدولة الا ما أرفع من اقلامها
 وارفف من اسيافها . شرفني الله بالقلم وكان لغيري شرف الحسام . فما شبه
 الكاتب في الجعاج بالجندي الذائد في العجاج . كما يستعمل الجندي
 السيف استعمل القلم في سبيل الحق والشرف . وسواء دم الشهداء وحبر
 الكتاب من اهل الفضل والفضيلة . سلام على الناطقين والمصلين بلغة
 القرآن سلام الله والرسول . هذا بلاغ منشور من مكة الى الهند ومن مصر
 الى المغرب الاقصى . عسى ان احظى منه برضى الله ورسوله وامته فأموت
 مطمئناً . تأليت الية كبرى ان اموت على حب العروبية وليس اعرب مني
 وسواء عندي بالمعزة جميع الاقطار العربية واهلها بالحجة متساوون ، نصرنا
 الله يوم البزلاء لنصون ديننا ودينانا . وانعم علينا بان نعيش احراراً وان
 نموت عرباً . واذا لم تكن عروبة الا بالاسلام انني عربي مسلم مؤمن اشهد ان
لا اله الا الله محمد رسول الله

٢

نهض الشرق على صوت الناقور وازف يوم التنادي . فمن اقصاه الى
 ادناه ثبعت الهمم كما ينفجر الحمم ، ما احوج الشرقيين الى التعاون والهمة
 في قضاء المهمة . لن يكون تهديم السور الا بجملة على نفخات الصور . والفوز

في نهضة ادبية قبل حملة حرية، اهل الغرب طرّفهم لصوصاً وسرقوا ذخائرهم كنوزاً
 ثم كبّوهم على الوجوه وقد صنعوا لهم سلاسل وشادوا حولهم معازل . في
 ارجلهم اجمال وفي ايديهم اغلال ، فهم راسفون بين صريع وضريع . لقد
 حان ان يقطع المصفود قيداً محصداً ويفتح المسجون باباً موصداً . فيشد
 على خصمه قرناً حتى لا يذر الله له قرناً . ويسترد كل مسلوب وحشيد
 وينسف كل صرح لظلمه مشيد . الامم الشرقية تفرقت آراؤها وتشعبت
 اهواؤها ، فاصبحت معرضة للاهانة والمهانة . والامم الغربية عليها سوام
 كأنها سوام ، ولها من مواطنها زرائب لا مسارح . مضى الدهر بطويل الرمح
 والباع ، فما كان اقدر السلف وما اعجز الخلف . على كل امة شرقية ان تشن
 غاراتها لتدرك ثاراتها وتمنع داراتها . ان الاوربيين المكروهين لا يترحلون
 عنها الا مكرهين . وليسوا بفهمون اللغة الفولاذ والحديد ولهم قلوب
 مقطوعة منهما . فلا فائدة من المحاسنة مع اناس يقابلونها بالمخاشنة ، وقد كانوا في
 الشرق ولا يزالون لتهتيك الحرمات وتحليل المحرمات . الشر بالشر مدفوع
 والامر للامر مقدور . فللشرقيين المناجزة والمطاولة حتى يتخلصوا من ربة
 صغرت لها كل ربة . ولا عذر للقاعدين فقد يكون بعد الاشفاء شفاء . الويل
 لهم اذا نكصوا انكاساً ونكبوا بعد التصميم . الغربي عدو الشرقي بالفطرة
 وبينهما ما بين ملتقى الخافقين . فاذا تراءيا عرت كلا منهما هزة النفور
 واقشعر كلاهما اشمئزازاً . وكفى بتباعد الديار مبعداً للقلوب وهنا مطلع
 الشمس وهناك المغيب . ما اكثر الحواجز من مباينة الاخلاق والعادات
 ومغايرة اللغات والمعتقدات . تلك معاكسة على خط مستقيم . فليس الغربي

على عهد الشرقي بمقيم . سلم الاوربي للآسي حرب وعقده ابدأ مفسوخ وعهده منسوخ . الله يعلم ان الشرقيين لا يحبون الغربيين ولهم في ذلك حقوق واعذار . حسدوهم على نعمة الله اذ رأوا جمال بلادهم ورخاءها فقالوا انما نحن بها اولى ، هؤلاء مواطن ولاولئك مواطن والله لا يحب المعتدين وما رضي الانسان الا بما فيه صون الكرامة والدين والعرض والوطن . بغض الاوربي واجب على كل ذي نبل وتبل يزعم بطشاً وانتقاماً . في هذه الشحنة له اعتزام ما دام محني الضلوع عليها . كيف لا وقد رأى دينه ضماراً ودمه في ارضه جباراً . فختام يتشد الشرقيون كلما سمعوا من الغربيين وتبدأ او وعيداً . ان في قلوبهم وابدانهم وقوراً وجروحاً يخذ منها الصديد على الحديد . وما كان الاوريون ليفقأوا دملاً بل لينكأوا جرحاً مندماً على بغي ونفل . واذا ارزم مرجل الفتنة لا يفتأونه بل يحضأون الناز ويحضبون الاطيمة . بينهم وبين الشرقيين عداوة الجنس والطبع وقد ولدوا خصوماً كان تبيان اللدادة في حروب الفرس واليونان والقرطاجيين والرومان والمسلمين والصليبيين . فذلك سخيمة غير مسلوقة وقد صارت غريزة لها غرز في القلوب . اهل الغرب يسمون لاهل الشرق كرهاً ويتكلمون هجراً انما هؤلاء يعلمون خبثهم وقد كظموا الغيظ كاشحين . وهيات الصلح والسلم على ما في الصدور من حزازات . لا بد من يوم يهب فيه الشرقيون هبتهم وقد تأهبوا اهبتهم ، حينئذ يتصارخون باشد من صعقات الطور ونفخات الصور . ان تحرير العبيد والاماء لا يتم الا بتهريق الدماء يتراءى سدف الشرق للغربيين فيلقي الرعب في قلوبهم من مسيرة شهرين

لقد عرفوا بظشه في ايام الجبروت والرهبوت ، وما زالوا يبخشونه مسجى على الاران مدروجاً في الاكفان . ابدأ ينذر بعضهم بعضاً بالخطر الشرقي وهم في منأى عنه وفي مأمن منه ، فماذا يكون عند وثبة الاسد الحادر على الثعلب الغادر . قل لهم سيفلو ما كان رخيصاً ولن تجدوا عن يوم الحساب محيصاً هذه خشيتكم في قوتكم وضعفه بل في موته وحياتكم ، فما تكون اذا انقلبتم شر منقلب . لا خلاص للشعوب الآسية والافريقية الا بان نتحالف وتناصر على الشعوب الاوربية . ولتكن آيتها آسية للاسيين وافريقية للافريقيين . هكذا فعل الامير كيون من قبل اذ قالوا متقين اميركة للامير كيون . وعلى هذا الشعار سنبت شرعة مزوه القائلة بتكافل الجمهوريات الاميركيات . وقد كان ذلك الاهتمام منهم لصد الاوريين عن التعرض لمن في كل الشؤون ، انهم جاهدن جميعاً في سبيل الحرية والاستقلال حتي اذا ظفرن صرن دولاً شتى . وكان اجتماعهن تحت الوية معقودة لواشنطن وبوليفار وآخرين من ابطال الحرية المظفرين . جميل ان نحتديهن الامم الشرقية ونقتدي بهن اقتداء شريفاً . فتصير امة واحدة في حرب الحرية حتي تطرح كل امة رقها ونفرح بان اخذت حقها . فتكون بلاد العرب للعرب وبلاد الفرس للفرس وبلاد الهند للهند وهلم جراً . لصرخة اليابان امستيقظ الشرقيون وماد الشرق لجر الحديد وجريه الجياد . فعلى الدولة اليابانية وهي ام الشرق ان تشهد العرض وتقيم الفرض . فتشمي سيف طليعة الشرقيين وتكون خير دليلة لكل امة ضاليلة . ما ضرها لو امدتهم بالسلاح وانجدهم بالقواد فكانت في حاجتهم ليعكونوا في حاجتها . اذاً لوفاها الشرق

حق النصره وعرف لها فضلا وجيلا ، هي وحدها القديرة على تحريره لو
 هزتها الاربيحية واستفزتها الغيرة الشرقية . الاوريون اعداؤها واعدا
 الشرقيين فكيف يهون عليها ان تراهم حواشيها . جبذا رفعها لراية الشمس
 الطالعة لتشرق منها انوار الحرية على المشرق . وجبذا استقبلها لوفود
 الشرقيين اذا جاءوها مستجيرين يطلبون اسعافا وانصافا . لكنها مع اهل
 الغرب على اهل الشرق كأنها ليست من بنات الشمس المنيرة . فهي على
 آسألٍ منهم وقد اخذت اخذهم فما عفت ولا كفت . الا تراها تطمع
في الصين وتجنور على كورية وتبشره الى منشورية وسيبارية . والعجب العجيب انها
تؤاتي الانكليز على استبدادهم في الهند وادعائهم لحماية الصين . وهل الصين
 ينبغي لها حماية وهي الارض الكبرى والامة الكثرى ، ولا خوف عليها الا
 من اولئك الحماية . امر هذه الحماية معروف ومن ورائها مآرب للطامعين وقد
 رآها الصينيون شيئا اداً . وايم الحق انه ليشق على الشرقيين عملها ولكن
 المنافع لا تعرف المكارم . مجدها صارت من سيدات الامم وبكدها بلغت
 اسمى المراتب . وبما اذخرته من القوى والمعدات حمت حوزتها وصانت
 كرامتها . بعد الغول نهت وبعد الضعة ارفعت فباهت باحسابها لا بانسابها
 فصدور المجالس لسفرائها ولهم في المؤتمرات فصل الخطاب . ولولا رهبة
 سلاحها لم ترض دولة بان تحسبها ندّة ونظيرة ، الذين يخشعون امامها ضارعين
 لا يعترفون لها بمساواة الصفر والبيض . وتلك مكبرة منهم في عجزهم وادعائهم
 اذ لم يجحدوا لها عيباً وذاماً . فما اقبح تبجحهم وصدورهم تحتدم غيظاً من
 الحقد والحسد . ولما سئل سفيرها عن قضية التسوية بين الاجناس اجاب

قائلاً « لا يهمننا اعتراف البيض لنا بالمساواة او لم يعترفوا . الناس بالاخلاق
والاعمال لا بالابدان والالوان » سعيدة كانت اليابان بنجائها من سلطة
الاوربيين ، فلها الهناء وغيورها العناء . ولو انصفت لذادت عن حياض
الشرق وعقدت دونه حبك النطاق ، في ذلك صيانتها فمن يزد عن جاره
ينذب عن داره لثلا يمسه ضر عن كذب . وقد كان نزوح بلادها واقياً لها
من الاوربيين فما استطاعوا اليها سبيلاً . حجبها الضباب والعباب عن ابصارهم
ففعلوا عنها زماناً وما كانوا متغفلين ، في حال ضعفها خفيت وفي حال قوتها
ظهرت فاذا هي جبارة تصرع الجبارات ، ان في سيرة اليابان قدوة لاهل
الشرق فليعمل لمثل هذا العاملون . وليأخذوا الامر مشاريطه فقد حمت
الحاجات وشدة المطايا . الليالي حبالى بحرب بين الشرق والغرب لاستيفاء
الحق وثنفيس الكرب . فهي لا محالة واقعة والشرق يتحرك ليتحرز ويتقلب
ليتغلب . وان الذين يسرون الدجة سيرون البلجة مستبشرين ، لم يبق
في الشرق دولة ولا جيش بعد تلك الدول الزاهرة والجيوش القاهرة . ان
في الذكرى والفكرى عوداً على بدء وحزماً وعزماً . قيص الله للشرق رجلاً
عظماً وهذاه سنة ونظاماً

٣

الغريون يزددون الشرقيين ولاولئك اجترام ومن هوئلاء احترام
فالسبوت الغربي يحمل البهلول الشرقي وزرا وينظر اليه شزرا . ويمشي في
الاسواق متغطرساً ويجلس على كرسي الحكم متغطرفاً . فكل آت من
الغرب عاتٍ يحل في الشرق ضريراً ويلقي الشرقي ضريراً . وقد ظن طينته

اشرف وخال دمه اثمن . فالقطرة منه تساوي عند قومه شعباً وقطراً . اما
دماء الشرقيين فتذهب بضرراً وهم قتل بلا قود ، ومن الجهل عند الغربيين
معاملة الشرقيين باللين لا اعتقادهم ان الشرقي يطعمه الرفق ويخضعه العنف
وانه قد اعتاد الخضوع والخنوع فاستراب بالاكرام واستطاب ذل الاغرام
تلك خطة بوضون بها ويتواصون على اتباعها في كل امة شرقية شقية
اولئك الناس يرون السلائل الشرقية منحطة عن السلائل الغربية ، ويزعمون
ان طبقاتهم فوق طبقاتنا وقد اصبحوا اسيانا بقوة الحديد . فمن اي طبقات
كانوا ايام كنا اسيانهم ولهم منا حكام وقضاة ومعلمون ، ما افسد مزاعمهم
والارض من طينة والناس من رجل ، الفطرة البشرية لا تتغير انما تتبدل
مظاهرها وتقلب احوالها ، فيطربا عليها الضعف بعد القوة والفتور بعد النشاط
والجهل بعد العلم والفقر بعد الغنى ، وكل ما في الكون عرضة للانقلاب والاستحالة
وما كان العرض ليغير الجوهر ، كيف يدعي الاوريون انهم اعقل منا واشرف
وقد سبقناهم في كل مضمار . ان دينهم وعلومهم وصنائعهم مأخوذة عنا وانهم
كانوا لنا خريجين ورعايا . فلنا الفضل عليهم في امور دينهم ودنياهم ونحن
الاقدمون والمتقدمون . آسية مهد الجنس البشري ومنها نزحوا فهذه الفروع
من تلك الاصول . فكيف يعملون في الارض وهم منا كالبنين من الاءاء
ايها الذين غربوا لا تحتقروا المشرقين ، انهم عباد الله وبأبي ان تملكوهم عبيداً
لقد كانوا اصحاب الممالك والشرائع والصنائع اذ كنتم هملاً لا تحسنون
عملاً . فيهم كان العرفان والهداية ومنهم خرج الانبياء والشارعون والغزاة
والفاتحون . وكفى بعبسى ومحمد نبين هما ساميان على كل ابن اثني ساميان

انهما الرسولان المتبوعان من البشر على كثرة الضلال والاشر . وقد كانا
 الوسيطين بين الارض والسما للاصلاح والتهذيب . ولولا تعاليم الانجيل
 والقرآن لم تعرف الرحمة والمحبة والحق والعدل . فلا تقولوا ان
 الآري افضل من السامي ، ولولا الذي جاءكم من الساميين لم يكن بكم
 حبض ولا نبض . الشرق مطلع النورين نور الشمس ونور الهدى وانه
 لمردود الى معاد . فهو مهبط الوحي ومصدر العلم وموطن الملك واليه مرجع
 الدين والدنيا ، حول قطبه رحي الارض تدور والى كعبته وقده شخص
 الابصار في كل الامصار . لا يغتر الاوريون بما حازوه من البسطة والسلطان
 فقد كنا له حائزين . فليزدجروا ولا يزدروا ان للايام نصيباً ونصيباً
 ونكثيراً وتصريداً . ربما يفقدون ملكاً ضبشوا به والله الملك من قبل ومن
 بعد والعاقبة للمتقين ، الدنيا دول للناس ونوبٌ فلكل فئة ايام لها وايام
 عليها . ستتقدم ويتأخرون كما تأخرنا وتقدموا ولكل امة اجل ان ريث
 وان عجل . كانت لنا دول ومدنيات وجيوش وسفين زمان كانوا نسياً
 منسياً ، وحفلة آسية وافريقية بالحضارة والعمران اذ كانت اوربة لا تسمع
 لهم ركزاً . ومن يتأمل في قدمية الشرق وما كان له من الابهة يحسب ان
 الغربيين خرجوا امسية امس من العدم . ما تغيرنا ولا تغيروا انما تلك حالات
 واطوار قضى بها الزمان لا المكان . الدم الشرقي لا يزال حاراً في عروق
 شعوب هرمت فعادت الى الشباب . ان في روايمها رفاتاً هو من الارض
 كالنجم من السماء . من تلك الرمم سيكون انبعاث الامم ، وفي كل رمة
 زوج امة . اجل صار الشرق هرماً لكنه ليس هراً كما يرجف المفكرون

فمن اطيب منهم اعرافاً واكرم اخلاقاً واطهر اعراضاً واشرف اغراضاً . فينا
 كان التنزيل والشعر والحكمة ومنا كان التأخير والتعمير . وما زالت
 خاصتنا فوق خاصتهم وعامتهم دون عامتنا . ان من كل امة منهم خسارة
 تجمعت فيها كل فحشاء وعوراء . فهي على حالة سوى من الفقر والجهل
 والخشونة والفجور . لكن الشرقي اعتاد مهابة الغربي لكنه افرنجياً فقط
 وما علم ان من الافرنج من هو ادنى من البهيمة واعدى من الضاري
 اورثنا الله من المواطن اخصبها واجملها ومن المواهب اعظمها واكملها . لكنهم
 ظهروا علينا بتوحيد اعمالهم واميالهم واجتماعهم حول دولة هي سلطان ورعية
 فتسلطوا بالحديد والذهب وحكموا القوة الوحشية بالقوة الانسية . قالوا حق
 لنا حكمكم لاننا افضل فقلنا بل حل اكم لانكم اقدر . الجندي الانكليزي
 يردي اميراً هندياً او شريفاً مصرياً . والجندي الافرنسي يقتل شيخاً تونسياً
 او سيداً سورياً . فهل يكون ذاك الجنديان الفتا كان افضل من قتلاهما
 الشهداء ؟ وهل يكون اللص السالب افضل من التاجر المسلوب ؟ لا والله
 انما الغلظة كان لها الغلبة . فتحكم اهل القسوة والباطل باصحاب الحق
 والدعة . هكذا تقع الغنم في براثن الذئبان والعصافير في مخالب العقبان
 فالفضل في شدة الساعد وبأس الحديد . وقد ضاعت في المناهب كل الحقوق
 والمواهب



اهل اوربة اعداء البشرية جمعا بما نهيه من اموالها وسفكوه من
 دمائها . اضيق بلادهم وجدها انتشروا في بلاد الآخرين وغلبوهم على ما

يملكون . فهم كالحشرات والنباتات الطفيلية التي حياتها بالالتصاق والامتصاص
 فآسية وافريقية واميركية واسترالية صيروها معايش ليجعلوا لهم فيها معاش
 فعلى كل بقعة منها دم مطلول وتحت كل سقف فؤاد موتور . الاسبان
 والبرتغال والانكليز فتكوا بالهنود الجر حتى قرضوهم قرضاً وجعلوا نقتيلهم
 فرضاً . وكانوا يبعثون اليهم من دغامرهم كل لص فتاك لا يعرف التحليل
 والتحرير ، وكفى بفظائم الاسبانيين كرتس ويزار افاعيل كسفت لها
 الشس وخسف القمر ، في آسية وافريقية واسترالية شعوب وقبائل
 دموعها لا تزال هامية وجروحها دامية . فالى من تشكو ما نقاسيه من قساوة
 الانكليز والفرنسيس وسائر الاوربيين ، اجنادهم نكلت بها نكيلة
 ومثلت تمثيلاً وقتلت نقتيلاً ، وقد اكثروا بين الاهلين المهالك وضيقوا
 في الارضين المسالك ، ولو شاء الكاتب تعديد مظالمهم لبرحت بالظروس
 الآلام وما امدت الاقلام ، تلك فواجع تنفتت لها الالكباد وفواحش
 نتجير بها الالباب ، وما كانت جوارح الوحش و كوامر الطير لتجتري
 فتجترح اغول منها واهول ، الملائك غطت محاسرها باجنحتها والكواكب
 غورت من الرعب تغويراً ، اولئك هن الامم النصرانيات اللواتي بدعين
الرفق والرحمة والشفقة ، واقسى من يكون منهن الباباوات والاساقفة
والقسيسون والرهبان ، لم ينهجن نهج المسيح بل تبعنه على غير هدى
فصلين عباد الله او حملتهم صلباناً ، حاشا لله ان يكون الافرنج من عباده
 وقد اجتروا عليه ملحدين واعتدوا على عباده الآمين . فاية ارض داسوها
 دنسوها ودسوا فيها امراض الجسوم والعقول ، ان دأبهم افساد الشعوب

بالمسكرات والمنكرات واستقامها بالمخدرات، والمرقدات ، و كفى بالداء المنسوب اليهم هادماً لبنيات البشرية وقد تمشى في عروقها وتفشى ، به لتعوا كل امة بكر دخلوا عليها فشقوا حجابها ومزقوا جلبابها ، واول المصايين منهم كان الملوك والملكات والامراء والاميرات ، هذا ملخص ما ورد في احاديث فلتر وهو من الثقات ، قال الحكيم الافرنسي الذي سبر الاغوار وعجم الاعواد « هذا الداء استشرى في البلاد النصرانية وانتشر حتى وصل الى سيبارية ، وقد رأيت بأمر عيني خمسين شخصاً يموتون به وامير جيش ووزير دولة ، نقله الافرنج الى محلثهم في القسطنطينية ولم تتصل عدواه بالمدينة لانهم لا يديتونه فيها . لكل رجل محرمه في تلك العاصمة العظمى فلا مومسات هناك ولا بغيات . هذا الداء يسميه الترك الداء النصراني وقد زادهم كراهية للنصرانية واحتقاراً ، طالما هلك به اكابر من اهل الدين والدولة ، منهم في بلاد المجر اميرها واستقفها . وفي افرنسة ملكها فرنسيس الاول وهنري الثالث ، وان في جيش اوربي مؤلف من ثلاثين الفا عشرين الفا حرضين . واكثر سر يانه في مدارس الكهنوت لان الطبيعة اقوى من اللاهوت ، والمعالجون من الاحبار يربون على المستطيين من قواد الجيش وقد حمله الاوريون الى اقصى المعمور وحملوا معه العذاب والهلاك فبذره الفرنسي في جزيرة أوطيطي حيث اعدى رئيسهم بوغبيل ملكتها حبيرة » هذا ما كتبه الحكيم الافرنسي شاهداً عدلاً منذ مائة وثمانين عاماً في هذه الايام دنس الافرنج اطهر البلدان وسرى داوؤهم حتى في عروق الولدان . فكيف تحيط به مقالة ومنه في كل ارض مغالة . عزيز اساء الداء

الافرنجبي وناهيك من داء عياء لا ينجع فيه الدواء ولا ينفع . وانهم يتعمدون
افساد الدماء والجسوم ليتها لهم افساد الاخلاق والعقول ، لا لوم على الماذن
من تجار الرقيق انما التثريب على الاندرين من مخائث العقيق . ذلك الدم
العربي خالطه الداء الافرنجبي وقد كان طاهراً نقياً ، فما كان اقتل سرور
الالاهي في شرور الملاهي . وما اجهل من يزهد طرب المعازف في طلب
المعارف



لح الله الاوريين ما كان افسدهم عائثين واحسدهم عابثين ، ابدأ
يحتسون للخب اراقم ويعتسون للخطر اطالس ، وما برحوا اهل المغدرة على
ما عندهم من البأس والمقدرة ، ان ما اقوله فيهم يقول فضلاؤهم ونزهاؤهم
اكبر منه واكثر . والمرجع في التحقيق الى احكامهم واخبارهم وشهاداتهم
واعترافاتهم يحمل رهبانهم صلباناً وعصياً ويؤمنون بلداً نازحاً قصياً ، فيفسدون
على اهل دينهم ودنياهم بدعوى التبشير بالنصرانية وما كان الاقوام في حاجة
الى صلبان اياها يعبدون وصور ودمى لها يسجدون ، ربما كان لهم عند الله
قربات وزلفى وهم اصلح من اهل الوهافة وانقى . حكي ان سائحا انكليزيا نزل
على قبيلة هندية امير كية ، فسأل شيخها هل هو على دين النصراني فاجابه
قائلاً : اني على ديني ولست براغب في ان اكون على دين الآخرين ، فقال
اذاً لك اله ودين ، قال نعم « الهى هناك » وأوماً الى السماء « وديني هنا »
فوضع يده على قلبه خاشعاً ، حينئذ مكث الانكليزي امام الشيخ الهندي وقال
بدهشة واعجاب جثت لاهديه فهداني وانه والله لا علم مني ومن جميع المتكلمين

قل ايها الرهبان لكم دينكم ولي ديني فدعوا لي شعوري وضميري ، لقد كانت
 البلية كبرى برهبان نبت بهم مواطنهم فتقاذفتهم لجج وترامت بهم فلولات
 حيث يلقون عصا الترحال تستيقظ الفتنة النائمة وتندلق السيوف الناقصة
 فباغرائهم قتل الاسبان الآفا من الهنود وشووا اعضاءهم واكلوها ، وبأمر البابا
 اسكندر السادس احرقوا مليكهم بعد استصفاء الاموال والكنوز ، وظالما
 تمردت رعايا وتفرق اهلون بمشاحنة الرهبان وموآحنة النصارى . في الممالك
 الاسلامية والوثنية يحرشون المنتصرة على ملوكهم وولاتهم ويحرضونهم
 على التمرد ، فيستفسد الحكم رعاياهم ويتفاسد القوم الذين كانوا حيراناً
 مجارين . ولم يكن تأريج القسيسين الا بايعاز من دولهم ليبقوا في كل
 ربع دمنة ويلقوا في كل قلب دمناء . فكم للرهبان في الشرق والغرب محنة
 مضنكة مضنية واحنة موهنة موهية ، الكهان قوضوا مملكة الرومان بحيلتهم
 ودخيلتهم فذهبوا شعائل وامسى رأيهم شعاعاً . وحطموا الدولة الروسية
 العظمى وقد كانت ثابتة الاواسي كالرواسي ، وكثيراً ما فتنوا في اوربة
 امم النصرانية فافتنت في دينها وثقاتنت للتفاني ، وفي اليابان حاول الرهبان
 بألبهم ان يثلوا عرش عاهلها جاميز بمطاوعة المنتصرين ، فاصدر امراً باطراد
 الافرنج من جميع انحاء المملكة وحجز املاكهم لسلامة الدولة والامة
 وذلك نعم جزاء الخائسين بالعهد الغاططين للنعمة وكلهم خصم منافذ وعدو
 ضريع ، ولم يستبق منهم الا الهولند الذين وشوا بالمؤتمرين وكفروا بين
 يديه بالنصرانية وداسوا الصليب ، فمضى تجمي نوبتهم في البلاد الاسلامية
 فيقال لهم ان الفرار بقراب اكيس ، الافرنج يخرجون الرهبان من ديارهم

ويرسلونهم الى الشرق جواسيس ورواداً . فيتوالون عليه زرافات ووحداً
وقد الفوه مجالاً فسيحاً ومرتعاً خصيباً ، ويحلون فيه ضيوفاً فاذا هم ولاية
غاشمون بعد حين ، لا يفتأون يحيفون على الاهالي ويماحكونهم مستخفين حتى
يثور الشعور للشعائر ، فيتباعثون عليهم منتقمين وقد حملوا منهم عبثاً ثقيلاً
فتضطرب اوربة لمقتل راهب ، وبكل شعرة من لحيته تزمق ارواح تزهرق
لاجل ذي جبة سوداء يدمرون بلاداً ويلبسون اهلها سلاباً وحداداً ، ولم يكن
ذو القلنسوة عندهم ينجلاً اذا حمل سبحة وانجيلاً ، وليس دمه ثميناً الا في الشرق
لتعس الشرقيين ، فيجزرون بجزره عشائر ويتخذونه وليجة للولوج في البلاد
ثورة الصين ليست بعيدة العهد وقد جمروا على الثار لبعض الرهايين والصعافيق
وفي هذه الآونة ضجت الهند لفعلة الطاغية الانكليزية الشنعاء ، ان بعض الهنود
تعرضوا لانكليزية ذكره نثسقطهم ودأبها الاغراء والاغواء ، فامر المشرز
بجلدهم حتى بلل الثرى بدمهم وقضوا نجبهم تحت السياط ، وهكذا جعل تحت
قدميه دماء خمسة وعشرين هندياً لاهانة انكليزية مزعاج ، ولما سئل عن جرمته
اجاب قائلاً بالرقاعة الانكليزية المعروفة : فعلت ليعلم الهنود ان المرسلة الانكليزية
عزيزة على قومها ، وان رجالاً كثيرين منهم دون امرأة واحدة منا ، بش القول
وبش العمل وغداً يحزى الظالمون بما كانوا يعملون . وبعد حوشبة الرهبان
المخائلة يمشي صف الرمازة المقاتلة ، فيستبدل الافرنج حرايمهم من صلبانهم
ويغضبون غضباً حميماً مطراً ، اولئك الجنود صم بكم يمثلون امر مقدم جلاد
يلذ له سفك الدماء ، وفي هوجهم وهياجهم يحفز الصف منهم صفا للتقبل
والتهديم ، ويندفعون من المحافر والمخافر جانين كانهم مجانين ، وتلك نزوات

لا يعجب لها من رجال ادمنوا اكل اللحوم وشرب الخمر . فعلى الذين يريدون
مدافعتهم ان يشربوا شرابهم ويطعموا طعامهم . فاني لصاحب الماء والبقل شدة
من صاحب الخمر واللحم وهذا كالضاري وذاك مثل الداجن ، من ذا يقول لهم
ان الذين يقتلونهم ليسوا اعداء ولا خصوماً ، وانهم مزخومون الى القتال
والقتل من جبارين يبنون قصورهم على الجحيم ، وان هؤلاء الشهداء الصرعي
اخوان لهم وما كانوا باغين ولا معتدين ، وان لهم نساء وعيالا وامهات واخوات
كاللواتي تيركوهن هناك ليفجعوا اللاء هنا ، وان لهم مساكن ومزارع ومصانع
كالتى غادروها ليخربوا اللتى غدروا باصحابها ، لكن الله قد ختم على قلوبهم فهم
بغاة طغاة لا يعقلون ولا يشعرون . هكذا يحشرون من قراهم وزقانهم اردالا
وافظاظا ، فترى شراراً يقتلون من كل امة خياراً ، يعتدون اعتداء فظيماً
ثم يطلبون من القتلى ثمن السلاح ، ويتنادون في النهب والسلب ويقتضون من
المنهوبين والمسلوبين اجرة وفدية وتعويضاً ، ويريقون دماء الابرياء
الآمنين ويأخذون بدم الجندي المسيء الوفاً من المال والرجال ، وبعد حملة
الصلبان والمؤنسات تقدم زمر القوادين والسحاليات . فتصبح البلاد ممرحاً
للهتك ومدنها وقراها كالحواير والساكر . وبين كوب الخمر وكوبة القمر
يحتزعون المسكرات ويحترحون المنكرات ، وللسكان المستضعفين التصعلك
والمسكنة بين البصاق والعريضة . وما يرونه ويسمعونه من جند البر والبحر
تستك له الآذان وتغذى به العيون ، والجلد على الكظم ولو شجي بالعظم
بأنف من الانسان ويفضل عليه القرد والخنزير ، تلك مكاره بها الله يتلينا
وربما كان التجريب تدریباً ، نظر الناس الى بحارة اليابان يمشون في مرافئهم

هوناً ويتكلمون همساً ، وحمجوا الى ملاحين من الافرنج والامير كان يتخطلون
سكارى ويصخبون مسقطين بالكلام ، فقالوا أهذه المدينة التي يدعونها
وهذه مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب ؟ قل سلام على الشرق انه ارض
الحشمة والحياء ، وسلام على الشرقيين انهم اهل السكينة والوقار

٦

حتام نشق بحكم الافرنج والاشراس بتزاهدون الاشراف والكرائن
يجمزن الكرائم ، لم يبق لجدودنا العاثرة الا ان يولوا نساءهم امورنا وهن
المذكرات ونحن المؤثثون . كم لطمت ذات سوار منهم ذا بجاد منا ، ولا
بدع اذا بسقت نساء الغازين على رجال المغزوين ، ابدأ نصبر عليهم صبر
العاجزين وننظر اليهم كأنهم ملائكة وملوك ، وقد توهموا ان واحد
يوأزي الفنا وان انتاهم تبرع ذكرنا ، وافسأهم يستهزئون بنا وبأعز ما علق
به النفوس ، كل ما هو شرقي مذمم عندهم ومحقر والغربي ممدوح ومحمود
واخطر الحوادث في الشرق تطوى اخبارها اقفالاً او اغفالاً ، فالشرقيون
يموتون ضياعاً غير مأبوه لهم ولا مشفوع فيهم ، يخرب الغريون في
الشرق بلاداً ويقتلون شعوباً فلا تسمع خبراً ، ولكن اذا انهار في الغرب
جدار او قتل عيار توالى على الناس جوائب الانباء ، كذلك الشرق يقتل
صبراً والاخبار مكتومة والافواه مهتومة ، لقد جاءوا بقضيتهم وقضيتهم
من اوجهم وحضيتهم ، فزاحمونا على البلغة والمضغة ونازعونا ما ورثناه جيلاً
جديلاً ، من زادنا يا كلون وايانا يقتلون وما كانوا خجلين او وجلين . وبعد
مسحنا قتلاً نجر بهم عجلات الانتصار حزائي حيارى . هكذا كان الرومان

يصنعون بمغلوبهم واسراهم يوم دخول رومة ظافرين . انهم يحسبون انفسهم
ورثاء لهم ويسيرون على منهاج منهم ، فاصبحنا من الذل والقهر مرضى القلوب
والاعصاب ورزحت حالنا من الاوصاب . رمونا بدائهم وانسلوا فكان اصغر
عيب فينا حجة لهم علينا ، اما المتغلبون المتسلطون فعيوبهم معفورة وذنوبهم
مغفورة ، ومن يتصفح التاريخ ويتسقط الاخبار يتضح له الحق الصراح
فيرى هفوات الحكومات الشرقية اقل من سيئات الحكومات الغربية ، لكنهم
يلصقون بنا كل نقيصة ولو كانت منهم وهم قضاة لنا وخصوم ، فما العمل وقد
غلبونا على امرنا واستبدوا وما كانوا لانفسهم باخعين ، ولولا ادوات الردى
التي احكموها لرأوا منا بأساً شديداً وعوضناهم من الذهب حديداً ، لا وثام
بيننا ولا الثام لتنافر الاخلاق والامزجة فكأننا وايامهم زيت وماء . ينزلون
بين ظهرائنا احقاباً وارداحاً فلا يصيرون ألفافاً ذوي قربى ، ما كانت ارضنا
لهم مستقراً وما كان نسلنا لنفسهم قبولاً ، ان ولد لهم ببقى ظاهراً فينا كالرقعة
في الثوب ولو لنفس عن هوائنا وتحسى من مائنا ، لكنهم يمازجون الامير كيين
امتزاج القراح والراح لما بينهم من قرابة الانساب والاخلاق والدين واللسان
قد انتفع الامير كيون باختلاطهم واندغامهم اذ لم يستأثروا بهم ولم يؤثروا
عليهم ، اما نحن فلنا الولايات منهم ومضرثنا مما لهم فيه منافع ، كل ما هو
منهم مفسدة لنا وخطر على اوطاننا واخلاقنا وادياننا وآدابنا ، حرمت علينا
مزاوجتهم انهم بعيدون عنا ونحن الابعدون ، نسائنا والطيبات للطيبين
والطيبون للطيبات ، ونسائهم لهم والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات
لا نريد فينا مزجاً ولا مذرعاً ولا مخشوباً ولا هيئان بن يئان . واذا انتصفنا

يوماً بنصر الله لنحشرنهم عن ارضنا حشراً . ولا تأخذنا بهم رحمة فارجحونا
 ولا رفهوا عنا ولا كانوا مترفين ، ولناخذن منهم رهائن واسرى نكشف
 عن رقابهم يوم المفاداة ، ولنستحوذ على معاهدهم ومدارسهم وديورتهم ملكاً
 حلالاً ، ولنمتنع عن معاملتهم وشراء بضائعهم ما استطعنا ولنضرب عليها
 المكوس ابهاظاً ، ولنروج ما عندنا من البضاعة مكتفين بصنع ايدينا اكتفاء
 الكرام . ولنقبل على كل ما هو بلدي مخلين عن الاجنبي ولنا من صناعتنا
 غنى في قناعتنا . ولنلبس من نسجنا وحوكنا ولو مسوحاً لا نريد بها رفراً
 واضرباً ، ولئن احوجتنا دواعي الدهر فلنخفف على ابداننا ورقاً لنستغني
 عن اكسية الاجانب ، نغير ما نعمله ان نحرهم ما من جرائه سطوا علينا وبسطوا
 احكاماً . هذا ما يفعله الانوف الغيور ولا خير في من يتأبه وبالقريب ينشبه
 مثله فعل الامير كيون ولم تشفع للاوربيين حوبة وقرابة فاصبحوا وهم اولادهم
 يرونهم اجانب ويستخفون بهم ساخرين ، وما كان الامير كي الحر الابي الا
 مستنكفاً لا يستكبر انكليزياً ولا يستعظم افرنسياً ، وحسبك ان ترى زنجياً
 او خلاسياً في بلاد الحرية يفخر على الوزير ويسخر من الامير ، على بغضهم
 واحتقارهم فلنوطن النفوس ما جالت في الصدور انفاس ، وليكن بغضنا
 للاجانب المسيئين تلقاً وحبنا للاقارب كلفاً ، ولتراقبهم حاذين حذوهم لناخذهم
 بما به اخذونا ، ولا نكونن في الجلى وكلين على الاقدار والاحاطي متوكلين
 ان لهم دولاً راسخة ومدنية مبنية على التفكير والتدبير ، فلن يصيبها ما
 اصاب دول الاقدمين من سرعة الانحطاط والانحلال ، الدهر سيغلبهم كما
 غلبنا وهو المعلم الاكبر والحكم الاعدل ، والطبيعة عادلة في سنتها المقدرة

ولو كانت عوجاء هوجاء . موازين الاوربيين هاوية وهم كادحون الى آجالهم كدحاً ، وكأني بهم منخفضون الى مسفلة بعد معلاة فسيادة القوة لا تدوم كان الخليفة المأمون يقول « غلبة الحجة احبُّ اليَّ من غلبة القدرة ، ان غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزولها شيء » فلا بد من ان تغلب المدنية الشرقية الروحية على المدنية الغربية المادية . لنا في الحال الاضراب لا الضرب اذ لا طاقة عليهم الا بهم حين يقتلون . سيتفانون بظلمهم فيضعفون جميعاً وكل قوة تذهب منهم تأتي اليها ، الامراض تفسد دماءهم وتنخر عظامهم وشهواتهم تنقلب عليهم وبالأحرار ، والحروب والثورات تمزق مما لكم وتضعف حكوماتهم وتنقص الذراري ، فقل لهم انتم رجال ونحن رجال ، فيبنا وبينكم حرب سجال ، وسنجعل دونكم رتاجاً حتى لا نرى لكم نتاجاً ، جئتم تطلبون ضرعاً وزرعاً فلقيتم ضرعاً وذرعاً ، نعالوا بحق او باطل فلن تظفروا منا باطل . منذ اليوم لانفقد الارض ناظرين الى السماء

٧

ابداً يقولون المسألة الشرقية وما ادراك ما هي ، انهم تخذوها للباطل على الحق حجة واهية ، ما لاهل الغرب في الشرق وان لاهل فيه شوئنا المسألة شرقية لاغربية وكفى بالنسبة التزاماً واختصاصاً ، يداخلون الشرقيين في امورهم ويهتمون بما لا يعنيه متطفلين ، ولو ترك الفضوليون الشرق لاهل الشرق لما كانت ثمة مسألة شرقية ، بتداولها بينهم وتهافتهم عليها يزيدونها شابكاً واستشكالا ، وما عرف الشرقيون المسألة الشرقية انما هي من اصطلاحات الافرنج المتغربين والمتقولين ، جعلوها كما شاءوا من

المعضلات وقد كان حلها على ذوقها يسيرا . فليدعوهم وشأنهم يتسهل ما
تصعب لانهم بامورهم احرى وبانفسهم ادرى . لا مسألة شرقية في الشرق
ولا تعقد فيها لولا مشاحة الغربيين . هي لعري مسألة بسيطة جداً يحاولون
تلبسها بكلام مخيل . وان لهم من مواربتهم ما رب يسدلون عليها حجاب
البطالات . وما كانت حيلتهم لتجوز ومسعاهم لينجح لولا القذافات والذسافات
فصبراً عليهم وانتهازاً للفرصة يوم تقوم الساعة وتثور المطواعة . يفسدون في
الشرق ويدعون الاصلاح ويدوون اهلهم ويقولون اننا المداوون . فهم على
سلاحهم بالمرصاد وديدنهم بث العيون والارصاد . لم يعملوا قط للاصلاح بل
للمصالح وجميعهم سواء بالمطامع والمطالنج . كم روعوا الامنين وحاربوا
المسلمين فسقوهم ماءهم دماً واذلوا دمعهم عندما . ففي القلوب جراحات
تغارة وفي العيون دموع مساحيق . لنيل مأرب ضحوا بالشعوب ولجر مغنم
طعنوا حبات القلوب . هذه الحرب الزبون العقام كانت منهم لهم قصاصاً
فلا ابرياء منها وجميعهم اعدوا لما كل العدة واستعدوا للشدة . لقد دبنوا
فيها كما دانوا ولا ظالم الا وهبلى باظم . شنع الالمان باهل البلجيكي كما فحش
اهل البلجيكي بالكنغر . ونكبوا الفرنسيين كما نكب الفرنسيين اهل الجزائر
وتونس ومراكش . وبغفوا الانكليز كما جفع الانكليز اهل الهند ومصر وارلندة
والترنسفال . واخذوا في الطليان كما اعتدى الطليان على الحبشة وطرابلس
القرب . فالظلمون اخذ بثأرهم من هم اشد من ظالمهم وابطش ، الاوربيون
يفتك بعضهم ببعض ولكنهم يتعاونون على الآسيين والافريقيين . وما كان
ذلك منهم الا ليتقاسموا البلاد والعباد قسمة ضئلى . وقد اختالوا اذ خالوا

ان اشرف البشر اشد هم بياض بشرة ، فكان الله براهيم من مسك وانشأ سائر
الورى من طين ، اما مرزمن كانوا فيه للذين يمتنونهم رعايا وعبيداً ، واذ
كانت فردن في افرنسة سوقاً للنخاسة كانوا يبيعونهم اولادهم رقيقاً ، الدهر
بالناس دوّاراً فطوراً لتنعيم وتارة لاشقاء ، هلاّ خففوا من خيالاتهم وخففوا
من غلوائهم فانصفوا الناس ليلقوا انصافاً . سيقولون ليتنا كنا عفا وليت
ما حملناه الناس كان اخف ، الشعوب انتبهت من غفوتها ونهضت من كبوتها
وكل فريق كتب حقه على صك فلم يبق بعد اليقين من شك ، وقد حملت
من الحرب اوزارها لتقضي في السلم اوطارها ، فلا بد من التقاضي اذا ابى اهل
الغرب التراضي . ولا رضى الا بان يكون الشرق للشرقيين والغرب للغربيين
ولا يهدأ روع الاوربيين ولن تثبت اقدامهم بين البلابل والتلاتل ، سياستهم
سداها الطمع والجشع ولحمتها الخداع والنفاق ، تلك سياسة ليس فيها كياسة
فهي خرقاء سيئة العواقب ، عند المكسب يرون الاليف شجيراً ولا يعرفون
خلماً وسجيراً . قليل بينهم من يأمر بالاحسان ويدعو الى الصلاح . فخلهم
بل كلهم حاكمون على الآسيين والافريقين بالقنانة والتعاسة . وما كانوا
ليسمعوا ندس ضمائرهم بين ضميمج المآدب وعجيج المنابر . فاذا ضعفوا احتالوا
واذا اشتدوا احتالوا . واذا احتاجوا هانوا ولانوا ، واذا استغنوا خانوا ومانوا
لابطال الحق يزخرفون الاباطيل ويشيعون الترهات . وما الحقيقة بخافية
عن ازمع ولا احق يرى البطانة غير الظهارة . يخدعون الناس افاكين
بشاكين ونقول فئة لاخرى آمين . لم يصدقوا الملاء ولم يصدقهم وقد اعتاد
منهم خبناً وغبناً . باسم الحرية يصنعون قيود العبودية ويقولون منا كل

معطاء ومفضال . الحرية لم تكن ملكاً لهم بل هي الهبة الكبرى من صاحب
المللكوت . اعطاها مخلوقاته كريماً فانزعجوها واذا شاءوا تركوهم يتنفسون
قليلاً . رحم ترحيماً على الحرية التي احتكروها وعلى الآخرين انكروها
وقل ايها الناس رحمتُ خير من رهوت فرفقاً بالبايسين . لقد طال ثوابهم
بين الشعوب وما كانت الامتالة متظلمة . فاين ما يدعونه من تحسين
احوالها وشكواها تكذب دعواهم . ولو تمكنت لقتلتهم الى شواطئهم
وطهرت اراضيها من مواطنهم . ومن نكد الدنيا انهم يتسلطون على كل امة
ياتونها منتجعين . فيبطلون شرائعها ويعملون بشرائعهم ان طوعاً وان كرهاً
ويكرهونها على تخصيصهم بامتيازات ما انزل الله بها من سلطان فتنتطاع
لهم متكاهة وقد راغت افكارها وزاغت ابصارها . مهما تكن شرائع الامة
يجب على الاجانب ان يخضعوا لها متأديين . وعليهم ان يجاروها ويداروها ما
داموا فيها وليس عليها المجارة والمدارة . الصين قد اجبرت سفراء الدول
الاوربية على حفظ التقاليد الصينية . ولكنهم في ديار الاسلام جبارون لا
يرعون ذماماً ولا يراعون اماماً . لماذا لا يجعلون لنا امتيازات في بلادهم كالتي
جعلناها لهم في بلادنا ؟ لماذا لا يأخذونها من الدول الاميركية كما يأخذونها
من الدول الشرقية ؟ لان هاتيك في قوتها صيرت الملوك سوقة وهاتي في ضعفها
صار الضيوف ارباب المنازل . احكامهم في ديارنا ممضاة علينا واحكامنا ملغاة
ونحن اصحاب الفقه والشريعة . ويقولون لا نعرف قضاءكم اذ ليست شرائعكم
شرائعنا وطبائعكم طبائعنا . واني لنا ان نقاوم المتغلبين ونحن نوذي الجزية
صاغرين . الضرائب تجبي لهم منا في مواطننا والاجانب معفون منها يرتعون

وبستمعون . ذاك وايم الحق منتهى الجسارة منهم ومعظم الخسارة منا
فما كان اشقانا بغرباء جاءوا من اقصى الارض يسعون ، نعان هما ابن الكنج
وابن النيل وقد جاء ابن التاميز يحكماهما جانفاً مستبداً . وليس بمفتقرين الى
انكليزي يضع لها شرائع وقواعد بين الجنود والحصون . لها الويل من متعجرف
يصرف الامور من جزيرته الصغيرة الى الارض الكبيرة . وقلد الامر له في
مصر والهند وهو الحديث في النعمة والعلم والتمدن . هكذا سطا خراب
البحر على الشعوب وساطوها او ساقوها الى التحاسير . فمنهم مبكرون ومنهم
مروحون في بارجة سائحة او بارجة بارحة . ولهم مواخر طفايح البحار سواخر
من اردادها بفضل البخار . فاسطول الانكليز كابوس على صدر العالم يمسى
منه مذعورا وبصبح مدغورا . به طوقوا الارض تطويقاً وقيدوا الناس بسلسلة
منه مجرورة وقمعوهم بالمقامع . فلا راحة للبشرية الا بكسر هذا الطوق بقوة
من تحت او من فوق . ليت للعناصر والانواء انتقاماً منه بقوتها الصاعقة
الساحقة . فتجعله الواحاً مبعثرة وقد حطمته في الهيج تحريقاً وتغريقاً

٨

ويلم الافرنج ان لهم مآثم يشهد منها برك الغد مآثم . ماذا يقال في
وصفها والرسم من الحقيقة كالقطرة من المطرة . او امرهم لا تعصى ومغارهم
لا تحصى واكثر الحيف واقع على المسلمين . فهم انكسروا الناس مذوطوا
منهم ارباضاً وخلفوا ممالكهم انقاضاً . لم يذروا لهم ارضاً مستقلة ولا دولة
مستقرة بعد ما اسسوا دولاً وساسوا رعايا . نفرقوا تحت السيوف ابايد
وملو كههم وامراؤهم منهم اسير ومنهم طريد . اين دولهم تلك الضخمة

ومعاهدكم تلك الفخمة واين الجحافل واين الاساطيل . لقد فقدوها بتقاطعهم
وناصر النصارى وما كانوا معتبرين . فاضحت اثرأ بعد عين يدمى لها كل
قلب وتدمع كل عين ، باسم محمد شيدوها وعلى دينه وطدوها خفقت اعلامهم
في الخافقين . وكانت اسرتها اعز من جباه الاسود تغفر لديها جباه البيض
والسود . من الشام الى الصين ومن مصر الى الاندلس اجرى المسلمون خيولا
وجرثوا ذبولا . فيا حسرة لهم وقد ضاقت ديارهم عليهم وكان العالم لهم ميداناً
بعد ان ملأوا البر رجلاً والبحر سفينة رقت عزائمهم وكاد اليأس يطير
بالالباب . راياتهم مطوية وجيادهم مشكولة وسيوفهم مضمة ورماحهم مر كوزة
فاليوم لا نشر ولا اعداء ولا اختراط ولا اشراع . في الشرق والغرب تظلمهم
رايات النصارى وهي اكفان الاسلام والمسلمين . وقد بزى الافرنج بهم
وتبضضوهم حتى استأدوا نفائسهم وحبسوا الانفاس وازهقوا النفوس . لا
خليفة ولا سلطان يعتمدون عليه ، ولا علم يحجون تحته او يتراجعون اليه
فالمسلم تخفق على رأسه راية افرنجية تذكره دماً مسفو كاً ودمعاً مسفو حاً
في السلم اذانه وصلاته وحجه تحتها وفي الحرب يقاتل في سبيلها مكرهاً . واذا
شق عصا الطاعة عذبه الظالمون ولهم منه الروح والعرض والمال . كان هم
امم النصرانية ولا يزال محق المسلمين ومحو الاسلام ، زحف الصليبيون زحفات
تسعاً فولوا اديارهم خاسرين . وذئب حتى اهل البر تغال وهم اضعفهم على مكة
والبيت الحرام . فقطع دابرهم سيف الدين وطهر الارض المقدسة تطهيراً
وما زال سيف الله مسلولاً حتى مرضت قلوب المسلمين بالسلاسل بعداهل لاس
هل خلق اولئك الاقوام ليكونوا اعداء لهم عادين بالصلبان والخرصان

فمنذ الحروب الصليبية حتى هذا العهد حاولوا ان يوقعوا بهم ايقاعاً . وقد تم لهم ما كانوا يثمنونه فقضي الامر وفدح الخطب الجسيم . سيولهم تطغي على الاقطار الاسلامية وتطمي فهناك الطامة الكبرى . ولطالما شنوا الغارات فقالوا تلك من اجل التمدن لا من اجل الدين . كلا فالיום كالامس وما فتئت غاراتهم صليبية في ديار المسلمين . ان هي الا غزوات النصرانية للاسلام على طريقة مستورة واسلوب جديد، هذه شنشنة معروفة من القسوس ، وفي كل قلنسوة ما هو اعظم من كيد البسوس . كانت الجرائد الانكليزية في الحرب الكبرى تسمي الحملة المقدسية حملة صليبية . وظلت تشبه قوادها بقواد الصليبيين حتى منعتها الحكومة تحفظاً واحتراساً . اما الحكومة الفرنسية وغيرها من الحكومات النصرانية فما اكثرث لشعور المسلمين وشعائر الاسلام الاوربيون بلا ريب ولا ترجم يعمدون بكس المسلمين ويسعون اليه بكل الوسائل . وليس الارب الخدع بذهاب من سوء طويتهم على غرر او مخيل ذلك لخوفهم من نهضة تأتي بنقضة فلا تبقي ولا تذر . فاذا بركوا على امة مسلمة لا يتزحزون عنها لحشيتهم من نزوان ووتردين . لو كان للمسلمين السلاح الحديث لعادوا الى الفتوح ولم تثبت امامهم قوة . كيف ومهابتهم آخذة بقلوب الاعداء على كونهم عزلاً . وقد تجشم الافرنج في قتالهم مهلكات ودعوا ثبوراً كثيراً . هذا ما راوه من بأسهم وشدتهم على قلة عدتهم فما يكون منهم اذا اعدوا واستعدوا . وان ما عانوه من بطش المسلمين دفعهم الى اختراع المرديات على بعد المرامي . وقد ايقنوا بان لا طاقة لهم على قتالهم وشفارهم امضي وجيادهم انضي . ولا يزال كتابهم وعمداؤهم

يشيرون برق الاسلام متشائمين ويحذرونهم من تكاثر المسلمين . الفرنسيين
 في شغل شاغل من كثرة النسل المسلمي في الجزائر ، وعلى هذه القضية مدار
 مباحثاتهم وفيها ينظرون مهتمين معتمدين من فرق وحسد . وحقق الالمان
 ان الزنج في مستعمراتهم يتمردون اذا اعتنقوا الاسلام لما فيه من روح العزة
 والاباء . فلا غرو اذا استذفر الافرنج باضعاف المسلمين ولو استطاعوا لبادوهم
 وعبدوا الارض تعبيداً . شوكة الاسلام تخر قلوبهم وخزاً ويرعبهم طيفه
 حتى في المضاجع . مدنيتهم تلك الموهبة المغشوشة عبت اواذيتها فصدتها
 الاسلام سداً مؤجداً . ولولا اعتراضه في سبيلها لما وجدت حائلاً ولا عارضاً
 فاصبح العالم بها مشمولاً . انهم ملاحدة همهم من الدنيا اختلاس الاموال
 لانتهاز الملذات . فيعثون في كل ارض ويعبثون بالحق الصابح ولو كان
 كالصبح الصادع . كم امة مسدوعة واكباد مصدوعة من لهازمة مرزوقين
 يستضعفون من المرزوقين . يصعب عليهم الاثنفق سلع التدليس وازياء
 الخلاعة بين المسلمين والمسلمات ويحفظهم ان يردم عنها استمسكهم بالاسلام
 وابتغواهم لوجه الله الكريم ، ان بغيتهم من الاستعمار ترويح البضائع لانديج
 الوضائع . تلك امور يطلبونها مظانة ولهم فيها اسروجة وهزيلي وكذب
 حبريت . لولا استنكاف المسلمين واستنكارهم لثمت رغائب الافرنج وناموا
 ملء العيون . فهلا علم المسلمون ما لهم من العبدية والمهابة فتباعثوا وتجادشوا
 على صيحة الله اكبر . هي الصرخة الزعزاع التي تصمت لها نائبات الهام
 تحت الجيش اللهم ، عجبا لهم في ذلهم بعد دلهم وقد اذعنوا الحكم الجور
 مستسلمين . ولعا في استكانتهم بعد مكانتهم وقد كانوا بثبوت نوراً

وينقضون صقورا . دماؤهم في عروقهم سرت لهمياً أيام جرت دماء الافرنج
حلياً . ان ما صاروا اليه من الهون والخزي ينهد له الهرمان وينهدم الحرمان
لا دولة قوية حرة لهم وقد بنوا من الدول اعلاها عماداً واطولها آماداً . تفرقوا
تحت رايات النصرانية قطعاناً فلكل دولة قطع مسوق الى القتل والقتال
وهم معزولون بعضهم عن بعض وبينهم برازخ لا يتعارفون ورائها ولا
يتفاهمون . واني للمحجور في داره ان يطل على جاره والحجزة مسيطرون
على العجزة . شر البلية ان يقتتل المسلمون تحت رايات النصراني وعليهم
غضب الله والرسول . كيف تمتديد المسلم لاذى المسلم ولا يخشى الله في
قوله عز من قائل « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب
الله عليه ولعنه واعد له عذاباً أليماً » لكنهم عن صلاتهم ساهون وعن دينهم
لاهون يفهمون المعنى ولا يدر كون المغزى . ان لم يكن لهم وازع من الدين
فليكن لهم زاجر من العقل والعظة . اما بينهم قربى الانساب والاطوان
وهم مشتركون في المصائب والمصالح . ليتهم كانوا جماعاً ورافضة اوليتهم
رفعوا للجهاد علماً . اذاً لنفروا متظاهرين ليعيشوا في ظله سعداء ويموتوا
شهداء . ذلك فيه رضى الله والنبي وقذف الرعب في قلوب الظالمين . دهكل
الافرنج بلاد المسلمين دهكلة واشعلوا فيها الخيل اشعالا . وكلما دوخوا بلداً
اخذوا أهله بالديسة والذسيسة قائلين « على هونكم ان الله مكنتنا منكم
وجعل لنا أرضكم ميراثاً . وانه يعطي الملك من يشاء فقد ذاب لنا حق فيها
بارادته وتقديره تسلطنا عليكم وهو القائل في كتابه الكريم « ان الارض
لله يورثها من يشاء من عباده والماقبة للمتقين » ويب المنافقين كيف يفسدو

الدين بالدين ويفتنون المسلمين بالمفتين . بسفساف الكلام وافتاء بعض الشيوخ
المخدعين يخادعون الله والمؤمنين . فينتزعون لما يلائمهم فتاوي للدين ناقضة
والشرع مناقضة ، ويجارون العوام في الخرافات والسخافات ليظلموا في ضلالهم
بعمهون ، ويفسدون جوهر الاسلام بالاعراض ليحولوا دون الصحة بالامراض
وظهرا وءهم على الاسلام والمسلمين أئمة يعتمون والناس بهم يأتمون . قل
أأنتم ايها العلماء حفظة القرآن الذين عليهم من الملائكة حافظون . باسمك
اللهم تعوذ من الفتيا الافرنجية في البلاد الاسلامية . أدهى ما يكون من
الافرنج تظاهروا باحترام الاسلام والغيرة عليه . وقد كان تشييعه طبعهم
وهم دائبون في هدم بنيانه سافاً سافاً ، بالباطل المقول يريدون تعمية الحق
المعقول . وبالاوهام يشبطونهم المسلمين لينقادوا اليهم بزمام الدهاء ، والحولة
منهم يقول للمسلم لك ما ابكي ولا عبرة بي . لكن المسلمين النابهين دائنون
لهم عن انقطاع لا انخداع . وان اهل الايمان لفي غنى عن اهل التبطل
والتعطيل ، فما بالهم يفسرون لهم آيات كتابهم كما شاءوا وشاء التذليل
والتضليل . ليسوا من عباد الله الصالحين ليورثهم ارضاً شرفت بهدى الفرقان
والمقام المحجوج والكتاب المكنون تلك ارض المؤمنين . لم يرثوها ولم
يملكوها انما هم نازلون فيها الى أمد مأمود . لقد كانوا معتدين مغتصبين
وتحاشي الله عن ان يجب اعتداء واغتصابا . ربما كانت مصائب المسلمين
فوائد لهم وفي الحنة اعتبار وتبصير . فليثبتوا في ارضهم وعلى حقهم ولو
أوهنوا واهينوا . ولا يجلولوا ولا يهاجروا لئلا يفسدوا لاعدائهم وذاك مرام
الاعداء . فاذا ما يخرجوا منها يتوطنها المسترقون والمستزقون ونقفر من

الاسلام والمسلمين . حرصا على الارض وحفظاً لها فان بعد الذهاب إياباً
عند ما يجيء نصر الله والفتح يستردون ما فقدوه وفوقه اضعافاً . ذهبت ممالك
الاسلام والاختار محدقة بوارثتها الوحيدة . ان هي الا الدولة التركية التي
أعورت فتعاورتها زياح الروم بوارج وروامس . كان المسلم المضطهد
يستدري بها او يفزع اليها فابن الملجأ اليوم وهو مطول وهي مستطال
عليها . في آخر عهدا ضربت على المسلمين الذلة والمسكنة فشم
العرانين في الرغام . اليها سلموا ارواحهم واوطانهم وامورهم فما حفظت
امانتهم ولا برت بأيمانها . نالت ملكهم وادعة فلا هي دامت قوية بهم
ولا هم عادوا بها اقوياء . فسقطت وسقطوا معاً غير مؤلفة بين قلوبهم
أو أمرة بمعروف . كانت تضعفهم ولا تستقوي فلم نعم ذمارهم ولم يكن
لهم بدة بمداعكة المناوئين . في ايامها صار الاجانب اسياد البلاد وامتيازاتهم
فوق الشرع والحق . فكانوا يتعاطون التجارة والصناعة منتفعين غير نافعين
لا يدفعون ضرائب ومكوساً . ولكل دولة من دولهم ضمن الدولة
بريد ونقود واحكام . وسفيرها يعزل ويولي ويعقد ويحل وكلتمه
تهز عرش السلطنة . والتزيل بشاجر البالد وماوى الاصيل السجن وسجن
الدخيل دار الوكالة . وليس للحكومة في عرف قومه صلاحية محامته وحقه
الحكم . من يرى الاجنبي مفضلاً عليه ومسوداً الا الشرقي المصبوبة رجلاه
في القيد ؟ أجل كان اليوناني يضرب السوري والمالطي يقتل المغربي معتدبين
غير هائبين . فما شأن الانكليزي والافرنسي والرومي اذا كان هذا امر اليونان
والمالطيين . اي دولة رضيت بهذا الخيف واي امة نامت على هذا الضيم ؟

ذلك ما تأباه ممالك فقيرة على همجيتها وجمهوريات صغيرة على زنجيتها . اما
المسلمون فلم يعبدوا منه ولم يفضوا وهم من اقطاب العالمين . الا بعد تظلمهم
حقهم فاضلموا ولهم تضبيب على كل إقليد واحليل . وما انفكوا على كثرتهم
خانعين لشراذم من الفرنسيين وعباديد من الانكليز . مما لكم تهدم ولا تتردم
وملوكم معاسير وامراؤهم مكاسير . بينا كانوا يحكمون وينصفون اذا هم
محكومون يتنصفون . ذل المسلمين كره العيش الى الحر وحب الموت فهو
مكتن سديم . لقي الشدي باصبارها فاشتد لها وكان من الظلم بنفورا . انه
لحسف أقحل القلوب وكاد ينزع منها اسلاماً وإيماناً . رأى البحري كاتباً
يطالب في المجلس محمداً بن يوسف الثغري . فصرخ صرخة عالية وما راعه الا
التضييق على قائد الاسلام في مدينة السلام . وهو القائد العربي الذي حمى الثغور
ونفذ الدروب . صاح تلك الصيحة ومجلس الحكم عربي والمحاكمون عرب . وقد
كانت دولة الخلافة مسطرة ومنازة الاسلام مشمخة . فماذا يقول اليوم
اذا بعث حيا فرأى رقاب المزاود قضاة وحكاماً . قل للمسلمين قل لهم
حوطوا دينكم تحوطوا دنياكم واتخذوا من كل سورة سورا . فسدت دنياكم
لافساد دينكم واختيان انفسكم فاصلحوه نصلحوها . اني ارى الاسلام ديناً
وطوائف لا وطناً وممالك . فهل يضرب على المسلمين ما ضرب على اليهود
بعد الافراط والتفريط . استغفر الله من استفهام هو استنكاري وبالتنويه
اقصد تنبيهاً لا تشبيهاً . في هم الحال والاستقبال شاغل عن التلطف وهذا وقت
التجرد والتقص . عليكم بالقصد والشظف لتحاموا عن الحق والشرف
ولا تكونوا عظاميين بل عصاميين يصلون حبلاً ويريشون نبالاً . ان

التي تنقض المعاني والمغاني لا يردّها نعم الثالث والثاني . تلك هي المدافع
للدفع والدفاع ولكم فيها مراغب ومفاخر . خذوا قسطكم من الدنيا وثنعموا
بما حلل الله لكم من طيباتها . ولا تنزهوا فيها ليرضها غيركم أفأوق
وياً كلها ثفاطير وتباشير . فكونوا منها ولها ما دتم عليها لان المادة تتطلب
المادة اضطراراً . وجاهدوا واجتهدوا فلو كان الله يؤتي النصر والرزق عفواً
لما أمر بالسعي والجهاد . قوام الحياة المال فاكتزوه لليوم العصبص من غير
ما سرف ولا ترف . هذا وذاك يفعلان بالنفس والنشب ما يفعل السرف
بالحشب . الدنيا وسيلة الآخرة فاعملوا لقران الماديات والروحيات قراناً شريفاً
واقبلو على ما في المدنية الحديثة من صنعة وقوة لتقاوموا وثقاووا بين دفاع
وهجوم . ان الاسلام معزاز المرض فأعزوه تصبروا اعزاء . واذا سئلتم أنحبون الله
والرسول احيوا لعزاً ما ولشدّ ما . كلمة الاخلاص وكلمة التقوى ثقالان في عالم
الغيب وعالم الشهادة وهما في اللوح المحفوظ . خذوا من الايمان قوة لمقاواة الافرنج
ولكم منه ثنعيشات على النعوش . لو حفظتم قوتكم لاظهره الله على الدين
كله واعتنقته الامم جمعاً . في هذا العراك الجهني اوشكتكم ان تموتوا سفوباً
ولغوباً . ولم يكن ما منيتم به الا من تعطيل الحدود والثغور والاخلاق في
الحروب والدروب . حرام عليكم ان تجروا خزا وحريرا حيث يجرر الاعداء
فولاذاً وحديداً . ارضكم وهي الخصيبة امست مجدابا وارضهم وهي الجديبة
اصبحت مخصباً . تلك بغمها الخراب وهذه بعمها العمران وانتم بين حمى وغنى
ونسلكم في المشقة يتناقص ونسلكم في الرفاه يزيد وقد كانوا الاقلين . ولهم
في العالم الجديد ذراري هي كالرمل وذر النمل . ان خصب البطون من خصب

الحقول . فعمروا الارض وثناسلوا وتكاثروا وزاخروا الامم . بهذا يوصيكم
 نبيكم لعزه وعزكم فانما العزة للكاثر . ايها المسلمون اعلموا من انتم وكيف
 كنتم والى اين صرتم . ايها المسلمون الشرق لكم ولا قيام له الا بكم . ايها
المسلمون ثلث البشر انتم والارض ثلثها لكم فانتهم عن نعمة الله مسؤولون
ايها المسلمون اعرفوا قيمة انفسكم وبلادكم لئلا يذهب العرف والاعراف
ايها المسلمون احفظوا امانة الله والرسول والاسلاف فشر الخيانات تضييع
الامانات . ايها المسلمون ان للاسلام قوة معنوية ثلثاى امامها كل القوات
الصناعية . فارتدوا اليها تستردوا ما فقدتم وتهبوا من حيث رقدتم . هذه
مخوضه من عربي محض اخلص الحب لكم والنصح وكان من المخلصين . وذلك
من اجل ما اخذتم من العربية وما يرجي منكم لخير البشرية

٩

الانكليز والفرنسيس اوغروا الصدور فهم ابغض الافرنج الى المسلمين
 كانوا لهم اعداء لدودين ولا يزالون الدوابد . منذ حملات الصليب حتى
 اليوم ما برحوا متكالبين عليهم متغالبين . فاجتثوا ملكهم وصار بينهم
 نهبا مقسوما بالشر موسوما . كذلك ظار عليهم اقران الظهر والحق بين
 التي اتخذ البطاح طاح . وما اشتفت نفوسهم بما انتزعوه فاستحذوا على
 بقية هي حشاشة الاسلام . تبت ايديهم وتبوا بما فقصوا من العرى وقصموا
 من الظهور . في الاقطار تهديم وتقتيل وما كانوا ليبالوا بتأثيم وتجريم . انهم
 ليمشون فيها مرحا كأن ليس في السماء اله للضعفاء . كم نكبة وجعة من
 امم عن صرينها الناس في صمم . تانك الدولتان سفاحتان حديدهما قاطر دما

عبيطاً . وقد نقولان اننا مرسلتان لبلاغ الحق والحرية . فقل تأفكان ويعلم
ربي انكما جلادتان للبشرية . المشرق والمغرب يضجان منكما ضجيجاً افلا
نسمعان نشيجاً . لاراحة للبشر ما بقيتا ايتهما الدولتان من الانكليز والفرنسيين
وبكما شقاء الناس وشقيتان انما بالقرم المؤدي الى الهرم . لولاكما لم تنشب
الحروب ولم تثقل الكروب في كل الازمان والاما كن . ايها الانكليز والفرنسيين
على قطع النفوس مشى ذوئبانكم وعلى الخراب قام بنيانكم . بناؤكم الى
نقويض فلا تغتروا بالجهافل ولا تعزوا بالاساطيل . كم امة علت قبلكم
في الارض فصارت هامة لا تبدي ولا تعيد . اقيالها خروا الى الاذقان بعد
ما رصعوا تيجانهم بمصاييح النجوم . اصلتوا سفاراً واصطلوا ناراً فصيرها الى
رماد وكهام . ليس المظلومون بنائمين ولا غافلين فاذا جاء اجلكم لا تستقدمون
ولا تستأخرون . هم بين جس ومس لنبعكم قارعون وعلى آثاركم هارعون
افانتم لما اباح الله محتكرون تقتسمون اعناقاً وارزاقاً . حفيظة المستضعفين
فيها قوة وفيها رجا . وان مع العسر يسراً . مشنؤون انتم ومسخوطون
فاذا قالوا لكم مرحى سيقولون برحى . انتم والله الاظلمون وما كانوا
تعساء بغيركم من القاسطين . بلادهم محتاجة ونفوسهم ملتحاة ، ولئن طلبوا
حقاً او بثوا وجدا بطشتم بطش جبارين . فلا تستكبروا اذا استنكروا
منكم وجوها والسنا واقوالا وافعالا . سنشط بكم نية قذف نخافوا يوماً
قطريوا وريحا زمهريرا . ظالما انقلب السحر على الساحر وارتد الكيد الى
نحر الكائد . الغد وما ادراكم ما الغد ! اليه شد الر كائب لنيل الرغائب
مستفجر الاحقاد الكينة لتدفن المظالم والمعال . فتهيمون على وجوهكم ولا

يفني سلاحكم وما لكم فتيلاً . ويهلك حرثكم ونسلكم كما كنتم تهلكون
 حرثاً ونسلأ . وتقتل منكم دوركم وفصولكم وتندك المعادل والصروح
 وتصبح بلادكم مرابط للخيال بعد فتنة مشبوبة وغارة مصبوبة . وبشر
 اولادكم ملعونين بمقوتين وبما جره الالباء يخذل الابناء . ما كان الانكليزي
 والافرنسي الا عدوين لاي كان من كل قبيل . لقد وثروهما جميع
 الاقوام واهدروا كل الدماء . فمن يرحمهما لا يرحمه الله وهل كان اهلوهما من
 الراحين . عليهما نقات الشعوب ومنهما يجب الانتقام حتى تنجو النار وتنبو
 بهما الدار . هذا بذالك مقياساً ومكيالاً وميزاناً ولا عفو عن المجرمين . كل
 يوم تزدادون اثماً حتى صارت الصغرى التي كانت الكبرى . ان لصراخ
 المومنين صدى يترجع فويل للقائلين الامم . وان للشعوب غيرة والغيرة
 اخت الانتقام الذي هو سيف يفري ودم يجري . واني لأرسل لها يتلظى
 واسمع صيحات لها الضفاف تغور والمياه تغور . وليس يوم الانتقام يوماً
 بعيداً . ايها المحتكمون من الانكليز والفرنسيين لنا اليكم فتوى . ما قولكم
 وانتم اوصياء على ولد آدم وحواء من الارحام الى الرجام . لماذا يجوز للانكليزي
 والافرنسي رفع صوتهما في طلب الحق ، ولا يجوز للمصري والشامي ان
 يهتسا به همتاً . ولماذا يحق بطل ذنبك في غير بلاديهما ويطل حق ذنب
 في وطنيهما . ولماذا يفعل الاولان بسواهما ما لا يرضيانه لنفسيهما الامارتين
 بالسوء . ولماذا يجوز للجاعات من التعدي والاغتصاب ما لا يجوز للأفراد
 جائز للامة القوية ان تعتدي على الضعيفة وتغصبها ارضها بدعوى التعدير
 والتعدين . فهل يجوز لصاحب القصر المرء ان يستولي على الكوخ المحرء

وهل يحمل لذي جنات ان يضم اليها حقل جار فقير ويتخذة اجيراً . وهل يتبرأ بقوله ان جاره لا يريد او لا يستطيع حرثها وغرسها فهو بها ارأى ان كان ذلك لا يجوز للفرد على قلة الضرر فكيف يجوز للجماعة على كثرة الاضرار . وان زعمت ان عملها للتحضير والتمهير ايجسان بالتقتيل والتدمير افيدونا نفعنا الله بعلمكم ايها المحتكمون من الانكليز والفرنسيس

١٠

يقول الفرنسي والانكليز كيت وكيت ويفعلون ذيت وذيت . ثم يستدعون كل اكرومة وامدوحة ولم يقل لهم حماد بل قيل حماد . فاين الصديق والاخلاص في ما يدعونه من خدمة البشرية . لو انصفت لتألفت وتألبت عليهم حتى تجعل عاليتهم ساقطة وفريضتهم نافلة . انهم مسببون للهم المجاعات والابوثة وسهف الحروب والمشاغب . فلولا اعتداؤهم وتأريشهم لكنت في دنيا دانية بين الرفائينة والطائنة . وانها لا تفوز بالسعة والراحة ما دام الانكليز والفرنسيس في الداحة . اولالك هم اعداؤها الذين يعذبونها ويتعذبون زبانية اشراراً . فتراهم لا يملون من الشر وللناس في الخير كلال وملال . وكلما بكت من حموة الالم ضحكوا المراساة الحديد في الفتنة الباقرة ابدأ يأترون بها ساخرين منها وينصبون حبال واشراكاً . ويدهمونها بدوارع ومدافع تقذف الجحيم من الاجواف والفوهات . حتى اذا صرعوا أمة وخرجوها بدمائها شيدوا حولها قلاعاً وحصوناً . واختطفوا ما تملكه من وسائل الدفاع والامتناع وولوا عليها عصبة قهارة نهارة . فتفقد قوتها وعيبتها اذ ترى حولها سوراً من مكب ومحم . وتصبح بين السيف والحيف

كالنعبجة تحت يد الجزار . قيتهادي ابناء الغرباء مدججين بالسلاح وابناؤها
محظور عليهم حمل المدى . دعوي الفرنسيين والانكليز في ذلك ان السلاح
امن في ايدي المتمدنين وخوف في ايدي المتوحشين . لكن الغاية هي المعروفة
من ضحاياهم جعل الله امانتهم منايهم . يقولون جننا للتحرير والتقرير فيغدرون
بعد التأمين ويهلون بعد التهوين . طالما طوعت لهم نفوسهم ان يرهقوا
المستأمنين اسراً ونفياً وقتلاً فهم لحفر ذمة وحنث يمين . تلك صلابة تقشعر
لها الابدان وخلاصة تتخدش منها الاذان . فكيف ينام الله عنهم وقد روعوا
حتى الاطيار في وكناتها والاممك في غمراتها . لقد نهبوا ما تحت الارض
وما فوقها وشربوا على موائد دماء ودموعاً . في طلب السلطة والثراء دعسوا
الاشفار والافلاذ ولبسوا الخملعة واللاذ . وبينما الجرحى يدحسون والكلى
يرتكضون تراهم يتطرزون في اللباس ويتطرسون في الطعام . وما كان
اصحاب الكمة ليشتفوا بما يشتفونه من الدماء فيزدادون جوعاً ونوعاً . فكانهم
جبلوا على الشر والاذى وفي السالف والواقع تذكير وتفكير . العقلاء يتوقعون
منهم خيراً ولا يتوقعون خيراً فاصبحوا ايها الاغبياء والمتغابون . لا تبوحوا
ولا اتوحوا لثلاث تكون الشكوى مجلبة البلوى . واكبسوا سرهم في الضمائر
واجبسوا دمعكم في المحاجر . حتى اذا وثقتم من قوة تعادل قوتهم دقوا الحديد
بالحديد . هم عاذلون لكم لا عاذرون حين يسمعون ننديداً فامعومهم تهديداً
اين يرتكسوا ويرثدوا لا يحملوا ضيقاً لكن يفرسوا اسنة وسيوفاً . فلا اتكأ
على رافتهم في استئصال شأفتهم ما داموا يخيمون ولا يظنون . ما الله ولا
الملائكة نصراء عليهم انما النصر بالكفاح وصنع الصفاح بالصفاح . اللفظ

يشتد به الضغط فزماً وحيلة وكتماً . وعلى العاقل ان يتبصر وعلى العقول
 ان يتصبر . لا انعم الله بالهم ولا سكن بلبا لهم وهم ذوو الحجة الداحضة
 والحديث المرجم . ان جراحاتهم لا تؤسى وللناس من نعيمهم بؤسى . ما
 اكذب الحكاية واشد النكاية حين يقتلون ويتباكون على القتلى . ابدأ
 يسترون مطامعهم بدعوى تمدين الشعوب وتحسين الاحوال . فكأنما معهم
 وكالة من الله او وصية من آدم بابنائيه اليتامى . هو لاه يهربون منهم ويودون
 ان تفصل بينهم وبين الداخلين بحور من نار . فيا لكثرة الرياء وقلة الحياء
 في هاتيك الوجوه الصفيقة . الاقوام قانعون بانصبتهم ومناصبهم وان كان
 عيشهم ذا منصفة . وانهم ينفقون بمقدار مما رزقهم رب العالمين لكن الفرنسيين
 والانكليز المتلهوقين يقولون للمتلهوفين : جئنا لتحريركم وتحضيركم فاذا
 ظلمناكم لا تشكوا واذا ضربناكم لا تبكوا . ان الظلم والضرب نافعان لكم
 نفع الدواء المر للمريض المدنف . حتام بتغاضى من اذلولى عن سلال او
 سلاب يخدف ما اخلولى . ان لم يكن في وجوه الظالمين حياء فليكن في عروق
 المظلومين دماء . ما هذه المداهنة والمكاهنة في استرقاق الاحرار والاغرار
 مها تكن امة ضعيفة يحق لها ان تكون ذات حربة هي لها طلقاً . فتتولى
 امرها بنفسها ويتجلى لها غدها من اممها . لا يكون فلاحها الا باستقلالها
 لاستدلالها وباعتمالها لا كتمالها . فالاسود تغلظ رقابها بان يخلو لها غيلها وغايلها
 ليست امة بحاجة الى قيم او وصي يأخذ من مالها ومن دمها . فيزيد بها
 استئذاؤه عجزاً على عجز وفقرأ على فقر . ما كانت الحرية ملكاً للاقوياء ولا
 فضلة يتفضلون بها على الضعفاء . ان هي الا صنو الحياة وقد وهبتها الطبيعة

للماشي والطائر والغائص والزاحف . بالحياة والحرية تتساوى جميع الموجودات من اكبرها الى اصغرها ، الضواري والكواسر لا تتباغى ولا نستغص ضعاف الوحش ورهام الطير ، اذا جاءت تدفعها الضرورة الى اصطياها ولا تطعمها الفريزة في استعبادها ، الوكر للنسر والعش للعصفور والعرين للأسد والكناس للغزال ، وما كان قويا ليغتصب مأوى ضعيفها ويمنعه من الحرية التي هي له كالهواء والماء والضياء . اما الانسان فقد قفص الوحش والطير والناس وهو اشرس وافرس . قتلى السباع فرادى وقتلى البشر جماهير فمن اغرى واضرى ؟ اهكذا من شدة الله له أزرأ وأمرأ يلقى الناس منه خسراً الانسان الذي هو مثنة ان يكون حراً يحرم الحرية ويقتل عليها والحارم القاتل اخوه الانسان المفطور على الظلم والطمع ، فما اكفره في استعباد مثيله وجعل نفسه عبداً قنا ، العبودة ملكة راسخة فيه يبدل من الفاظها ويغير من اوضاعها وتظل العبودة عينها ، ابدأ بسير منها على نمط وان رغن كلاماً في منطق أو نطق ، فهو على كل حال عبد منهاج ليس له الا منهاج ، خالف سنة الله في خلقه وسلب المخلوقات عطاوة الخالق ، الله القدير خلق الانسان حراً مطلق الفكر والارادة ، وتركه يتمتع من دنياه كما يشاء ليكون له فضل التدبير والتمييز ، لكن الشريرين من البشر بين صنعوا سلاحاً وقيوداً وبنوا حصوناً وسجوناً ، وما أثبت اخلاقهم ان يؤذوا الذين ليسوا بمؤذنين ، فما ارحم الحيوان للحيوان عند ظلم الانسان للانسان

١١

أخني الافرنج على كل امة تضعفوها بعد ما استضعفوها ، انما يزيدنها

شقة قولهم انها بحكمهم سعيدة ومعيشتها رغيدة ، وبينما هي فاحصة من الالم
اذ يصورونها زافنة من الفرح ، قد يظهر العمران في مدائنها والذهب في
خزائنها ومنه البدر المبدر والقناطير المنقطرة ، لكنه لسوء حظها حب على
شرك ومم في دسم ، لا انتفاع لها بما في ارضها اذ ترمى ولا تلمس وتشم
ولا تذوق ، كل ما يصنعون هو لخيرهم لا لخيرها وطالما اتخذوه واسطة لتبرير
الغاية ، فقالوا زوراً وبهتاناً هذه صنائع منا ونوافل وانما نعطي عن ظهر يدوغني
وما كانوا الا دنقاً اشحاء يتظاهرون بالسخاوة وليسوا أسخياء ، حيث لا
يأملون ريعاً لا يتبرعون ، ولا ينفقون درهماً حيث لا ينتظرون مكسباً ، تلك
احاديث مسرجة وشماريح بذيعها المتحمدون اظناناً وفي الامر الف مظنة ، في
المستعمرات الشواهد جمة لمن تحسب واستقصي ، ان اهليها في حالة يرثى لها
بل يبكي من الذل والجهل والفاقة . للسيطرين خيراتها وطيباتها فاذا شاءوا
جوعوهم واذا شاءوا امسكوا لهم رمقاً ، وان موتاً لا يجر الى عار خير من
عيش في رماق ، لقد غلظت اكبادهم حتى عذبوهم بالخمصة عمداً ليكبحوا منهم
جماحاً ويهبطوا جناحاً ، فكما آتسوا نفرة او ثورة رموهم في الظلفات والظلمات
كذا حرموا الناس ارزاقهم ومنعوهم اقواتهم وما كان صبر البهيمة جائزاً
فهم ملاء البطون من الاموال ثقال الظهور من الدماء ، من خشارهم وبسيلهم
يطعمون الخماص ويسقونهم ويقولون لنا الفضل بالفضالة ، لئن عمروا البلاد
فلايكثر دخلهم من دخلها وتغليب نسلهم على نسلها ، فهم فيها اهل العماد
وحزن اهليها كالجمر تحت الرماد ، طالما نقلوا الى بلادهم جواهرها واموالها
وأثارها فاستغنوا وافتقرت ، وبعد الاساءة يدعون الاحسان فلا كان ذا الاسع

وذلك العسل . المذؤوبون يعافون جميل الفرنسيس والانكليز ولو كانوا آلهة
 حالين في الناسوت ، هبهم يعطون محسنين فهل يكون الاحسان اجباراً
 واكرها ، لم يرضوا وليسوا راضين بعوارف هي جوارف ومكارم هي مغارم
 تلك المدنية المزعومة فيها الفساد والمشقة والضناكة ، ارضهم ملك لهم
 يربدون ان يمشوا فيه حفاة عراة ويعيشوا ابراراً احراراً ، ويرفضون اعتناق
 المدنية والدين من نفاطة ناهب ومرزبة راهب ، ويأنفون من خلاعة وإباحة
 تحبان اليهم بين اغاني القيان وقناني الحوانيت ، انهم يستلذون العسر في
 الحرية ويستبدشعون اليسر في العبودية ، فالاسود الخادرة على الخوى والطوى
 أشرف من البهائم المعلوفة للذبح والركوب ، ما هذا التكلف والتكلف في
 حب يولد البغض وعدل ينتج الظلم ، حنك الفرنسيس والانكليز يتلاعبون
 بالشعوب ومنهم كل موقع وموقع ، ويماسحون الزعماء الجامحين في هوى
 النفوس الجانحين الى الحرية والاستقلال ، من على المكاتب والمنابر يستفردون
 بامور الامم متخذين حاجاتها بمظهر غير عابئين بالعواطف والمنازع . فيقولون
 للمتظلمين ان رضيتم فالعدل لا يرضى ولسنا براضين ، نود لكم تأهيلاً وتأهيلاً
 ونحن الاوصياء عليكم وعرادتنا مصوبة اليكم ، تالله لا أقتل لامة من تسلط
 أخرى تبغتها آمرة ناهية ، في ذلك ضعفها بالادب والمال والنسل والسياسة
 والحرب ، فلا تنشط من عقالها لضغط الاجانب على عقلها وشعورها ومشيتها
 وفي الضغط على العقول والقلوب اطفاء لكل شعلة مقدسة ، اما ضعفها الادبي
 فيكون بتفوق لغتهم على لغتها ، وبعبثية الاخلاق والعادات بما يسرب اليها
 في المعاشرة والمعاملة ، وبفقد المروءة والحمية لما تعتاده من التوكل والمصانعة

والتسليم ، وبتقييد افكارها واقلامها تحت سطوة المراقبة ، اما ضعفها المالي فتأدية الجباية والانفاق على المراقبة والعمال وباستيلائهم على موارد ما صر لها ومصادر مزارعها ومصانعها ، وبمزاومتهم لتجارها وصناعاتها وابتياعها منهم غالباً وشراؤهم رخيصاً ، وبانتقال كنوزها ومعادنها وثروتها اليهم شيئاً فشيئاً ، اما ضعفها النسلي فيما يصيبها من القهر والنكد فتعتل اعصابها وتختل امزجتها ، ويمنعها من حربتها وصرفها عن اللهو والانبساط الى الكآبة والتحسر وبضعف الغريزة فيها لضعف ابدانها وقلة اهتمامها بالطيبات ، وبتشتيت شملها واحمال ارضها فالولد والنبت شعبان وشبهان ، فكل قطر يحمل فيه الظلم يقل فيه الولاد والتاج والعمران . ولمن يطلب الابرار برهان حسي من مقابلة الشعوب الحاكمة بالشعوب المحكومة ، فيرى هذه الى نقصان او انقراض وتلك الى زيادة وافراط . واقرّب الامثال مثل الامة الانكليزية والامة الارلندية وهما جارتان ورئدان ، كم من امة قهرت فوقف نموها اجيالاً وبعد انفراجها تضاعفت في سنين ، ان البهائم اذا حبست او أعزبت عن مواطنها قلّ نتاجها وضعف وانقطع ، اما ضعف الامة السياسي فبسيطرة الغرباء عليها واذعانها مخيسة مبخوسة الحق ، وبجرمانها من تدير امورها الداخلية والخارجية وعقد القروض والمعاهدات ، وبمحطها عن مقام الدول التي لا تعترف بها ولا تقبل لها سفراء وبعدها غفلاً لا يعتد بها فهي تقديرأ اما ضعيفة تحتاج الى حماية واما متوحشة يجب تأنيسها وثقيفها ، واما ضعفها الحربي فباحتلال مرابطها واختلال جندبتها ، وبتسخير جندها وتسفيله واخذاد جذوة الشهامة القومية ، وبعدم الاجازة لها ان تقني سلاحاً وتبني اسطولاً ، وبعجزها عن الحرب واستعمال

السلح الا مأمورة لا خيار لها . تلك ملات لو المت بالا طواد لنفستها وصيرتها
بجائة وحتاتا ، هكذا يتحكم الفرنسيس والانكليز بالشعوب التي فاجأوها
ضعيفة ولم يدعوا ثتقوى ، فاذا هب شعب لاستقلاله احلوا قتله لاستبساله
وحجتهم في جريمته انه ليس اهلاً وانه يافع يوصون به كهلاً ، بين الشعوب
التي يتعسفونها من هي اشرف محتداً واصح معتقداً ، لو اجلوا عن حدودها
بعد اثار جدودها لجارتهم فما شتقوا لها غباراً ، وقد نهضت حرة قوية تأمل
وتعمل ولها اعتزام واحترام ، الولايات المتحدة الاميركية كانت مستعمرات
انكليزية ، بالسيف اخذت حقها وصارت دولة عظمى فكان استقلال تلك
البلاد في الجلال . هل كانت حيلولة الانكليز دون استقلالها لعدم كفاءتها
واهليتها ، اما والله لولا استظهارها واطفارها لما اسدفت لها ابواب وادمعت
اكواب ، الحربه بعد الاعداد والاظير لا تؤخذ بجائنا وظليفاً ، باستقلالها
بلغت اوج العلياء وصارت محط الرحال ومضرب الامثال ، لاي امة ما لها
من القوة والثروة والعزة البزرى ، شرواها الجمهوريات التي قملصت من اسبانية
والبرتغال في اميركية الجنوبية ، بفضل الاستقلال صارت ، اغنى منهما وارقى
واقوى . وطوائف البلقان اصبحت ممالك وقد كانت ولايات تركية ، حريتها
شدت سواعدها فصارت كل منها نحارب الدولة التي حكمتها عصوراً . جميع
تلك الدول لولا قطع رباطها باختباطها لم تصح لها عزيمة وللمتغلبين هزيمة ، لقد
ثابت وصابت حتى انفتح لها ما انطلق وانبلج الفلق ، ان للامة الضعيفة
الحرة املاً بالاستقواء لمقدرتها على استعمال مواهبها ، اما الامة القوية المستعبدة
فيدركها الوهن فالهرم فالموت الدواف

١٢

كلما قلنا صبح الحرية لنفس رأينا ليل العبودية قد عسعس ، فنحن في ليل من الظلم غدافي الاله اب فرعوني الارهاب ، لقد عبر بنا الامر في عبرنا واستصبر في صبرنا فهو مظلام عبيثان ، ظل الناس ارقاء للناس لا تستقر احوالهم ولا تستمر احوالهم ، فمن دولة الى دولة والارض وما عليها ملك للمتغلبين ، وقد كان بدال من البقاع كما يدال من الرجال ، فمن اقوال الحجاج «ان الارض ستدال منا كما أدلنا منها» ، نصبرت كل امة على امل الخلاص حتى كلفت هذه الحرب الضروس ، فكان وزراء الانكليز والفرنسيين يملأون الدنيا وعوداً ملفقة وطروساً منمقة ، فيقولون هذه الحرب العوان لاجل الحرية والمدنية والانسانية ، السيف لا يعود الى غمده الا بعد ظهور الحق وزهوق الباطل ، ان غايتنا الحسنى تنجية البشرية من صولة المانية الجندية فواجبنا ان نوالينا على الالمان والا تبطحت سيولهم ودعت في الدماء خيولهم من ينصرنا ينصر الحق على القوة وله منا عهد وميثاق وللخير انبثاق ، والله شهيد علينا والنصر مكتوب لاهل الحق والصلاح ، قالت كل فئة ان الله معنا وحاشا لله ان يكون مع الظالمين ، جعلته من جنسها ومن حزبها ونعالى رب السماء عن جنس وعن حزب وعما يزعمون ، لقد كانت الانكليز والفرنسيين شحاذين اتخذوا نكبة البلجيكي وسيلة استعطاء واستعطاف فعدوا ايديهم للشعوب يلتمسون صدقات لامة صوروها معوثة كسحاء ، ثم اكلوا اموال الصدقات والامانات وسرقوا حتى الكحل من العيون الانكليز ادعوا انهم يغيثون البلجيكي رد الاعتداء الالمان وقياماً بالمعاهدات

وهي التي استهدفت وعرضت نفسها للبلاء باصاحتها للموسوسين ومواطأتهم
سراً ، متى كانت قلوب الانكليز ترق وعيونهم ترف للمبتلين ؟ تلك
الجفون أبرد من القلوب وليس دمعاً ما في عيون التماسيح ، تظاهروا بالعطف
عليها وهم انفسهم دعوها في الكنفو سفاحة ودعتهم في الترنسفال قطاعاً
وخطافاً ، فاصبحوا عندها لقضاء الحاجة نصراء المظلومين ، واصبحت عندهم
لتبرئة الساحة الشهيدة الغادية ، ايه كان الانكليز والفرنسيين يمثلون انفسهم
ملائك ويسهبون الالمان شياطين . فوجهوا اليهم تهماً وعزوا جنائيات هم
مبرأون منها منزهون عنها ، وكان سلاح اولي العدوان سافه الكلام وسافه
في التسخيل والبدوان ، تذرعوا بالجرائد يقبحون فيها الالمان واعمالهم كتابة
وتصويراً لا تأبى نفوسهم تزويراً ، اما الالمان فكانوا في سكينتهم يفعلون
ولا يقولون ومنهم كل مظفار وسخود ، ولما انقشعت غيمة المعمان لم تثبت
رربة ولا تهمة فدمغ الحق الباطل ، ظل الحلفاء يخاتلون ويقاتلون حتى كان
من الامير كان انتصارهم بعد ما طال انكسارهم ، ما دفعوا القوة بالحق لكن
بقوة اعظم واضخم ، فالأغزر مالاً وعتاداً غلب الانز فدنقست البطولة
امام الجمالة . القوة التي تنقصوها في الاضداد والانداد اصبحت مقدسة بصيرورتها
اليهم ، ليت شعري اي حق يثاب اذا لم تؤيده القوة ؟ واي سلطان يهاب
اذا لم تعضده الجندية والشرطية ؟ لولا القوتان المحافظة والمحاربة لم تنفذ
الحكومة شرائع ولم ترهبها قرائع ، فما هذه الخزعبلات وقد علم الانكليز
والفرنسيين ان لا حق بلا قوة ، لم يعملوا يوماً بما هم قائلون انما قالوا
لنا الحق ولاعدائنا القوة للتبرير والتغريب ، فمال العالم اليهم على اضطرار

وما كان مخيراً بل مسيراً ، سلّمهم بربك أبا الحق ام بالقوة يتسلطون على الشعوب
لقد اخذوا قسراً ما استطاعوا من دميتها واموالها وعرضوا للمطاحر صدور بنيها
الذين سيقوا للذود عنهم كانوا من المظلومين منهم ، هل ظلمهم الا الذين
يدعون تحريرهم وما كان الا لئلا لهم ظالمين ، اوائك هم اهل المستعمرات
المحكوم عليهم بقتال اعداء اعدائهم ، فهم قتلى بلا اثم ولا حرج وبعد الضيق
ليس لهم من فرج ، طاردوهم وشاقذوهم في بلادهم ثم جاءوا بهم ليحاموا عنهم
مقرنين ، فالموت ملاقيهم كيفما ساروا ولا بدّ لهم من أحد شرين ، رجال
المستعمرات ناضلوا تحت اعلامهم ، فاهم فضل عليهم في كل ايامهم ، هلاً
كافأوهم على ما بذلوه في سبيل النصر الجلى ، فلا تكون دماؤهم قد اهرقت
انزافاً واموالهم انفقت جزافاً ، لما انهزم بنو عبس قال شداد لعنته كراً وانت
حر . وكان العرب يحررون مواليهم اذا آزرهم وابلوا بلاء حسناً ، الفرنسيين
والانكليز قالوا للذين تحت سيطرتهم كروا وانتم احرار ، ان كانوا شرفاء مثل
العرب فليوفوا بالوعود والعهود ، ولهم امثولة في الوفاء من قولهم وعد الحردين
وانجز حر ما وعد ، في هذه الحرب تناسى الشهداء تعاسة الماضي متعللين
بسعادة الآتي ، ولما ازفت ساعة الحساب قاموا يطلبون الوفاء بعد المطال
والضالة المنشودة هي الحرية التي عند مدرة المنتهى ، فردّ الفرنسيين والانكليز
التي هي احسن بالتّي هي أقبح . وعادوا الى ما اعتادوه من المواربة والتليس
وتسيفوهم بعد التسويف . الطمع والنهم يشحذان منهم معداً وقلوباً وليسوا
من اهل الوفاء مع الضعفاء . طالما انكروا قولاً صحيحاً وتهضموا حقاً صريحاً
مواعيدهم عرقوبية ومطامعهم اشعبية وتلك عادة فيهم أصبحت عدوى ، لامر

ما صلوا وصاموا فلما انقضى تركوا الصلاة والصيام ، وعدوا حين كانوا على
 ضعف فاخلفوا حين صاروا على قوة ، لا تذكرهم حيث لا نفع الذكري
 فلن ترى منهم عرفاً ولا نكراً ، لو كانت سرائرهم طيبة لرفعوا انبارهم اول
 وهلة وقالوا للضارعين : نعتز باساءتنا واخطائنا فاصفحوا عنا كراماً وكونوا
 لنا ظهرة مفضلين ، انا لراحلون عنكم فاستفلحوا باموركم وهذا فراق بيننا
 على وفاق . لكنهم وقد استتب لهم ما حاولوا في اعدائهم عادوا الى الارهاق
 والارهاق ، ولم يضارسوا القوة والاستبداد الا خوفاً على قوة واستبداد
 لهم يذهبان ، بعد قضائهم على الجندية الالمانية واظبوا على تعزيز جنديتهم
 وتأجيدها ، وغرضهم من ذلك الرزب والادنان في المستعمرات وقمع الثمن
 والثورات ، فكأنهم يقولون لطلبة الخلاص والعناق لا يراح ولا مزاح ، من
 ردم البناية الالمانية يشيدون بناياتهم ويتعاسمون غنائم واسلاباً ، كان الناس يظنونهم
 تأبين بعد ما لطمتهم المانية وحطمتهم ، فاذا هم يتبهذسون عجباً وكبراً وقد
 ابلنصوا من المخاصف واللهوات ، بالامس كانوا يشكون ظلماً معولين على
 النجدة الامير كية معولين ، واليوم تراهم اظلم لها ولنصرائهم عليها لا يرقبون
 ذمة ولا يختشون مذمة ، اشتان ما بين ظلماً وظلمهم وهي ظالمة في الحرب وهم
 ظالمون في السلم ، فعلها فعل الابطال الصناديد وفعلهم فعل الاخياف الرعايد
 لم يكن فيها الا كل صادق ثبت يستزري كل خائن فيهم وهيت ، بسلاً
 لهم وقد جنفوا على الاصدقاء والاعداء على حدسوى ، فجزوا الاحسان بالاساءة
 وقابلوا الشر الاصغر بالشر الاكبر ، وما كانوا عاقلين ولا عادلين لان القوة
 العاقلة لا تكون الا عادلة

١٣

الخلفاء غلبوا المانية وسلبوها ولو استطاعوا لسحقوها ومحقوقها ، لقد كان
 العفو أقرب للتقوى فالشرفاء لا ينتقمون من الاقران والا كفاء . وانهم لمحاولون
 ان يلقوا تبعة الحرب عليها وفي اثوابهم كل الدماء ، حق الحكم عليهم بما
 جاهروا به واستظهروا له وكانوا البادئين ، الفرنسيين تجهزوا للثأر وتشمروا
 اربعين سنة ونيفا ، والانكليز كانوا يندرون دائماً بالخطر الالماني ويصطنعون
 البوارج والاوامد ، كانت كل سفينة المانية جبلاً على كواهلهم وزفزفتها
 تززع عرش عاهلهم ، حسدوها حسدهم الله على صناعتها وتجارها وقد سابقتهم
 اشواطاً ونازعته انواطاً ، فما زالوا يتعجبون فرصة لينقضوا مصانعها قبل الاتمام
 ويتفردوا بملك البحار ، واذا تخرشوا بها اندرعت الى نزالهم لبوءة مشبلاً ، فتك
 بهم جيشها المجر تلك الفتكة البكر فقالوا صدمتنا على غرة وما كنا محتفزين
 لقد كانوا اكثر احتشاداً وثأباً انما تمحلوا عذراً لقصورهم عن بلوغ شأوها
 كيف يبارونها والبون شاسم وكيف يصارعونها وقد ابتركتهم في الصدمة
 الاولى ، لم يمسوا حتى مارسوها في وقائعها وطبغوا سلاحهم على سلاحها
 فكانت في السلم والحرب معلمة لهم اخذوا عنها الفنون ضرباً وافانين ، ما
 قدروها حق قدرها حتى قادروها فرأوا منها الاعاجيب ، اي نخر لهم في
 انتصارهم وقد حشدوا القتالها الصفر والجر والسود والسم ، في مستجمراتهم
 تجمعت الغاف الشعوب فاشبهت اثواباً فيها من كل لون ونسيج ، جاءت جماري
 حتى ظلمت بها ارضهم وكان الالمان جمرات ، فلم يدفق وينفق الادم الماني خالص
 ومال الماني مذخور ، وظلت المانية موزعة من مالها ورجالها وسلاحها بين الذين

حالفوها . اما الانكليز والفرنسيين فكانوا يستغيثون ويستجدون والعالم بأسره
 يوافيهم بالاموال والرجال ، هذه قوة المانية التي استخدمت كل قوى الطبيعة
 وسخرتها تسخيراً ، وهذا مجد ائيل ليس له في الاوائل والاواخر مثيل . ناجزوها
 وعادوا فحازوها على الهدنة والمشاركة ، فانجذعت بوساطة الامير كان واثقة
 باعهادهم وقد حسبتهم امة وسطاً ، انه كان باقياً للحكومة الالمانية ما يجعلها
 تقوم باعباء الحرب زمناً طويلاً ، لكن الشعب الالمانى استهوته مواعيد
 الامير كين وشروط رئيسهم ولسن ، فعمل الحكومة على قبول الصلح وقد
 ظنه صلحاً منصفاً شريفاً ، ولما طاوخته تلكا الوسطاء وقد اسقط في ايديهم
 كما اسقط في ايدي الالمان ، لم يكن ذلك مكرراً منهم بل عجزاً وهم غرباء في
 ارض قاصية بين مستذئبين ، تهور الالمان بتسليم السلاح قبل الامنة و كان
 التزامه ابقى واوقى ، انما الاحرار يخذعهم كلام لين فيقعوا بحسن النيات
 والظنون ، رأى الحلفاء خصومهم عزلاً فتدروا بعد الخيان وطرحوا السيف
 في الميزان ، عند احتلال العدو الالمانية استولوا على المرافق يستنزفون الاموال
 ويستنظفون الاعتدة ، وفكوا الجيوش ودكوا الحصون واقسموا السفائن
 والدفائن ، ونكى الفرنسيين في الالمان بكتائب من الزنج هتكت حجب
 السادة النجب ، ودامت تربة كانت حفنة منها اعز من بيض الانوق والابلق
 العنوق ، الغرامة التي ضربها الحلفاء على الامة الالمانية لا طاقة للعالم اجمع بادائها
 وهم ملاحون في طلبها ليلصوها من ثروتها ويمجزوها بكثرة التكاليف
 وكل همهم ان يزغفوا عليها ففي نفوسهم روعة تشنج لها الايدي وتجمحظ
 العيون ، كادوا لا يصدقون اذ جاء الفوز على الفور وما كانوا به يحلمون

فشرعوا يقلعون منها اظافير وقد ساعدتهم عليها الاحاظي والمقادير ، وما كانوا
ليرتدعوا ويرتدوا عن امة صرعى لا تملك شدة ولا ارخاء ، ما غلبوها بل
غدروها وهم ملتزمون بها خشية لزازها ، هكذا بسقط الحصان معاً فتجعل
الصدفة احدهما فوق الآخر ، فلا ينهض العالي عن الملعو لخوفه بعد الافلات
من كرة اخرى ، هذه الامة الجبارة صريعة لا تدفع الاذنة عنها شريعة
لدى نكبتها صغرت جميع النكبات فما اجمل التأسي في الاسى ، انها لصابرة
صبراً غريباً لعلها تجد فرجاً قريباً ، ولا عداؤها كل يوم مطلب وانذار ولها اليهم
معبأ واعذار ، يريد الفرنسي والانكليز ان يقضوا على الامة الالمانية قضاء
مبرماً ، ولكن امة عدتها سبعون ربوة لن يقضي عليها الفرنسي والانكليز
جيد جداً منطقتهم في قولهم اننا نعاشر الحكومة لا الامة فاين تعلموا المنطق
اليست الحكومة وكيلة الامة وكفيلتها في مالها وما عليها ، فكيف نفرم
الاولى دون الثانية وتصاب تلك دون هذه وهي هي ، هذا ما يقوله المزاجون
في اضطهاد الالمان والروس بين المراء والهراء ، وبمناوأة الحكومتين يقصدون
الازعاف على الامتين اللتين يتهيبون ، اما حان لهم ان يقلعوا عن التدجيل
والامر قد انفضح جهاراً وانضح نهاراً ، المانية الصرعى لا تزال مخيفة واطيافها
السود بهم مطيعة ، ام النوابغ والابطال قواها ابدأ تتجدد وعزائمها تتشدد
عظيمة هي حتى في سقوطها والعظام في عينها صفائر ، بما عندها من العبقريّة
ستغلب ما فيهم من العنجهية ، كل ما هو الماني يهولهم ويدهشهم كأن القوة
للالمان جميعاً ، اذا كان جيش ادرب واضرب قالوا ان قواده المان ، واذا كان سلاح
ابتك وافتك قالوا انه طبع المانيا ، واذا اوجسوا انقلاباً في مظالمهم قالوا تلك

مكيدة المانية ، لنعم الفطاحل هم اولئك الالمان والحزم والعزم صفتان لازمتان اليهم مذسوبتان . ما اقتنعوا بانتزاع ممتلكاتها الافريقية فاقطعوا من الاراضي الالمانية . وقاموا بضيغون سيليزية العليا الى بولونية التي اصطنعوها وجعلوها دريئة . وللتليس زعموا اهلها حزباً المانياً كما زعموا السوريين حزباً شريفياً تلك الارض المانية بجثة وسكانها المان صرحاء النسب ، انما يريدون اختطافها كي يدعموا بها حليفهم على الالمان والروس ، فاتخذوا القرعة حيلة آملين ان يكون سهمهم راجحاً ، فلما القرعها وفاز الالمان قالوا لا اقتراع انما نجعلها شطرين كلما ضاق عليهم مدخل بالحيلة وجدوا لهم مخرجاً بالقوة . في جهة يقولون لا حكم لامة على طائفة ويحكمون طائفة بامة في اخرى ، الميزان في ايديهم يرجحون اية كفة شاءوا والنيات وطيات . المانية تفصل عنها مفارطها وتضرب عليها القرعة ويصير الوتر فيها شفعاً ، فليتعز الشعب الضعيف الواهي باقدر شعب ناءت به الدواهي . ويحرم عاقلها وقوادها وساستها وهم اخف المتحاربين جرماً . ويطلبهم خصومهم للمعاكمة وقد كانوا اخلق بان يقفوا موقف المذنبين ذلك لعمر العدل افتراء محض له من المطبوع والمشروع دحض . في اي شرعة يكون الخصم حكماً وتقبل له شهادة ؟ واي دولة حاكت رؤساء الدولة المغلوبة والحرب تكافؤ وتصارع . غريبة دعوى الحلفاء واغرب منها اعلانها على رؤوس الاشهاد . ذهب العاقل الفيضان وهو في اعتزاله واعتقاله اكبر منهم محشودين . كل ذات شفة منه تحرك ذات صدر منهم فيرون كلته خطاباً وخطوته ميلاً . يطل عليهم درناساً في خدار فيسمعون صلصلة القيود قصيف رعود . بعده غير القواد البواقع الذين مادت الارض لوطأتهم وبهت الناس

من جرأتهم . كانت الممالك حلمات لهم وميادين يطر دون ملوكها ويستعقرون
 عروشها . المانية نهكتها شدة اندفاعها وتجرها اسخط الشعوب عليها ولو
 تأنت ولايت لما وجد اعداؤها مبياً سارت به صيباً . بقتوها وغلوها ساعدتهم
 على نفسها واستغفرت لهم نصراء . وقد كان احسان اياتها كافياً لا كساب
 القلوب فالناس معجبون بالعظمة . مضطرة امضت عهدة فرساي المطوية
 كصدور الذين وضعوها على الاحقاد والضغائن . ما تلك عهدة صلح بل
 انذار حرب مؤجلة الى ميقات . ان خط القلم في مهارقها امض من السيف
 واعض من القيد . هذا تشفيهم من امة هي ام الحسنات التي يعرفها لها العالم
 طراً . اما حليفها النمسة فملكها أمسى وطوى الدهر ذكرها فانسى . لزبتها
 كانت أشد اللزبات فها هي الامة المصبورة والارض المتورة . طرحوها في
 مذابة البلقان فاصبحت بين الخطاطيف خطفات . وما ناشها الا الذين اظلم
 عقابها واذلم صولجانها . فهي نازعة الى اختها الجرمنية تريد التحاقاً والتصاقاً
 لكن اعداءها يحولون دون رغبتها ويشلون عليها صنائهم من البلقانيين
 هكذا الدولة الابدفة الفخيرة اصبحت شوهاً واضحى فرش قصورها ركاًماً
 مليكها فر لا بلوي عناناً وقد رأى في كل رمقة سنانا . فهو متربص في منفاه
 اسداً مخرجاً من خيسه مخرجاً . وكلما هم بأوبة الى السرير علا الصراخ تحذيراً
 وانذاراً . كل البلاء من الدولة الانكليزية السائرة على خطتها الممهودة . انها
 معيدة لادوار التاريخ واليها المعاد في كل الامور . كما استجاشت اوربة على
 نابليون استجاشتها على غليوم وهي الفائزة الحائزة . فكما ارتفعت دولة خفضتها
 حتى لا ترى مع ايدها او فوقها يداً . ما زالت اما حاكمة واما محكمة كانها

موضع القسطنطين من الدول والناس . الفوز لام صبور ولغيرها النفوت لفطنتها
 في الحيلة وعلمها بانتهاز الخلسة . الناس مسخرون لغاياتها ثقتهم كما شاءت
 وشاء لها الهوى . وان وراء حيلتها القوة فتستعمل الثانية عند فشل الاولى
 ذلك معروف منها ومألوف لكن الناس يتغابون وما هم اغبياء . وانما حيلة القوي
 تدعي سياسة وحيلة الضعيف تدعي خساسة . لا اعدى للانكليز من الفرنسيين
 وتراهم مترافقين متحائنين . لم يؤلف بينهم الا المصالح التي اجمعوا عليها
 والضرورة التي دفعت اليها . المتفقون على النهب يتلافون اختلافاً على القسمة
 خوفاً من ردة المنهوبين . فورا السماح والرضى خائنة الاعين والسخط
 والخليلسي . ستزول المحالفة بزوال المنفعة فبعد المصانعة اشد الممانعة . ما يظهر
 من الشفاه والسطور غير المكتوم في الصدور . انهم متماسكون على شفا جرف
 هاري خشية السقوط في المهواة . لم يك الفرنسيين والانكليز اشهره من سائر
 الاوربيين وما كان هؤلاء اشرف . ذلك التعفف منهم ليس من قلة الشهامة
 او كثرة الشهامة . لكن الاولين وقفوا دون الفرائس اضرى واضرس
 فأوجها الآخرين . لاصغر فئاتهم حصنة من البلاد المفضوبة حتى البرثغال
 لم تعد نصيباً . ما غشي الاوربيون ارضاً فانفكوا عنها الا بطعن دراك ورمي
 حراق . بالقوة يأخذون فلا يؤخذون الا بالقوة فعلام الحجة والاحتجاج
 هل يؤمل من اللصوص ان يردوا المنهوب بنفوس طيبة وقلوب متهيبة . لو
 كان لهم ذمة وضمير وشعور لما اعملوا رميضة الخناجر في الخناجر . كم مرة
 جبروا وشمروا فعادوا من حيث جاءوا وبالحسرة انباءوا . ما رد الطليان عن
 الحبشة والبابية واضالية ورد غيرهم عن غيرها ؟ ردتهم صدمات رجال اشداء

مذاوید جعلت ریاحهم موءنفسكات . فلا منجاة من وجوه كابواب القبور
 الا بقلوب وزنود كزبر الحديد . ولنا الخير من ندافعهم بالآلات قهرونا بها
 فيدفع بعضهم بعضاً عنا . الفرنسيس والانكليز نزعوا السلاح من العالم قاطبة
 وسلاحهم لا يزال مصقولاً مسنوناً . ان كان نزاع السلاح للسلم كما يزعمون
 لماذا لا يطرحون ما به يقتلون ويبحر حون . وان قالوا نبقیه للخفارة والحراسة فلما
 ظفر الهرباً أحد من برثن النمر . العالم رازح مقسورثن وبصخب تحت ثقل
 جنديتين هما الافرنسية والانكليزية . اين الجندية الالمانية منهم وقد
 كثرت تشكياتهم منها . لقد كانت في ارضها للحماية والدفاع ولا تزالان
 في اروض الآخرين للاعتداء . هاتان ينفق عليهما من اموال صرعاهما وكان
 الانفاق على تلك من خزينة الدولة . المانية كانت تجند ابناها والفرنسيس
 والانكليز يجندون ابناء الملل . صبراً عليهم فما لا يدرك بالتدابير يترك للتقدير

١٤

حكم الانكليز والفرنسيس على الاتراك حكمهم على الالمان . فكان
 ذلك الحكم جائراً يغلظ فيه التزيه جائراً ماذا يقال في معاهدة سفر وهي
 مظهر التعصب والتعنت . ان فيها موتاً زاعطاً لامة غالبت الموت فانتزعت
 منه الحياة في النزاع ، على القرطاس حرب صامتة دونها الحرب الصائتة . وفي
 السطور من جعل القوم فوضى ما يسمع له فوضى . بموجبها وحودهم سواء
 والعدم وليس واضعوها من اصحاب الصراط السوي . لم يأت الحلفاء في ظلم
 الترك بدعاً ولا حدثاً . هذا ديدنهم منذ اصبح ديدهم يحوس ويحوس . وقد
 كابدوا من الجيوش التركية ما صرم جبالهم وكسف بالهم . انها حاربتهم في

ساحات شتى وانزلت بهم خسراً فادحاً وكسراً فاضحاً . فاعترفوا بان الدولة
 التركية كانت اشد عدوانهم مراساً . وانها بعدت اجل الحرب وكانت
 اكبر نصيرة للدولة الالمانية . هذا فعل الترك في ضعفهم فما يكون بأسهم
 ونجدتهم اقوياء . وايم الحق انهم قوم يسلم يولدون جنداً وينشأون جنداً
 ويموتون جنداً . لهم شهد الجميع بالثبات والاقدام وكل منهم حاق الرجل
 وحق الشجاع . فهم مرادي الخصوم والحروب واصحاب الخيل المداعيق
 ذل الالمان على جده وكثرة وعز الاتراك على قلة وتخویر . او تلك سلموا
 السلاح الكثير هائعين وهؤلاء مانعوا بالقليل غضاباً . الالمان امة وعصية
 والاتراك عصابات بين اخلاط شعوب دوخوها . فرعاياهم اعدى اعدائهم واشدهم
 خصومة لاسيما الارمن والاروام . عقاربهم تدب فلا يحمون عن جنابة
 ولا يحمون في في خيانة . وقف الترك بين الرعايا الخائنين والجيران المتوثبين
 والاعداء المقاتلين . وفي عتوهم وعنوا الالمان ظهر بروع الصريمة الشرقية على
 الصريمة الغربية . لو كان للشرقي تدريب الغربي وتسليحه ابرز تبريزاً وما
 ارخص النحاس ابرزاً . الغربيون جند لمهتم في الصفوف والكراديس
 حيث الامر والطاعة . والشرقيون فرسان حمس يستلحمون لثورة النخوة
 والحمية والاريجية . فالشرق ارض البطولة والفروسة والشهامة . والغرب ارض
 المرانة والدراية والختلاف . مروءة الترك مروءة شرقية وعزتهم عزة اسلامية
 بهما تتوقد النفوس الالية فتغضب للحرمة والحق والشرف . فلا مل الشرق
 نخر بالعشيرة التركية التي هي اشد العشائر . انها من الشرق مكان الروح من
 الجسد ومنها ينتظر اعتزازاً وامتناعاً . لها تجميده وتظفيره وقد فطن لما في

حب الافرنج من الخب . الشرقيون متحدون بالعصية الشرقية على كثرة
العصيات . والعصية درجات من عصية الوطن وعصية الجنس وعصية
الاقليم . لله درامة لها الضرب المبر والطعن النبر تخرج من حرب فتدخل
في اخرى . عظيمة مزاياها ومناقبها فالتركي خليق بان يكون نخورا . لن
يقوى الافرنج والروم على امة هذه عصبيتها وهذه اخلاقها . وكفى بخطورة
موقفها دليلاً على شدة بأسها ورباطة جأشها . فقد حكمت في البلقان شعوباً
مشهورة بالشراسة والشكاسة . وناهضت احقاباً روسية والامم الاوربية التي
جاءت بعبابها . فرجع الروس ادراجهم وذهبت وصية بطرس الكبير ادراج
الرياح . وظلت فروق التي كانت هدفاً لهم امنع من وكر العقاب . تحالف
الروس والافرنج والصقالبة على الترك فباسلوهم مبتسلين . ولبثت دولتهم من
حجيز الى رمية نهضة بالاعباء حتى في الاعياء . وما زالوا ينتابونها حتى
اقتطعوا كثيراً من املاكها عامدين الى اهلاكها . فألفوا من قطائع البلقان
ممالك جعلوها حواجز دون ايغالها . ولما تضافر البلقانيون عليها والدول من
ورائهم نازلتهم عزلاء في اشد النوازل . فكان اليونان والسرب والبلغار
يحاربون بالاهبة وتحاربهم بالمهابة . وان سلطة اجيال لا تمحو آثارها مرودة
اعوام . فاجتمعوا للنهب والقتل بشعار الجهاد في سبيل النصرانية . ولولا المعاونة
الاوربية لما صاروا اسبداً يجر دون اسيافاً . في الحرب الاخيرة اغتتم الانكليز
والفرنسيين فرصة سنحت والايام قد سمحت . فدخلوا عاصمة السلطنة صلحاً
بعد ان عز عليهم اخذها عنوة . وقد دهدقت بوارجهم في بحرها وصبصبت
فيالقمهم في برها . اباحوها فاكنتظت باحاتها بدنع الجند والقديدين وظلعت

مباحاتها بزمع الغرباء والغريبات . فاصبحت دار السعادة دار النحاسة وغدا
الباب العالمي باباً واطلاً . ولم تعد مدينة شرقية اسلامية لاختلاف الفئات
والهياكل واللغات مزيج الانكليز ولكنهم سيخرجون والانكليزي مصلاق عرقه
معلق . وما كان الرحيل بعد الحلول من بكتهم وهم اغرز من الجراد واسراً
لقد اولعوا اليونان وانفلوهم ازميز وادريانية غنيمة باردة . فنكسوا رؤوس
الاهلين ونجسوا مدافن السلاطين . وارتكبوا من الجرائم والمعاصي ما اضطرب
له البلد القاصي . قتلوا اذرع قتل واظهروا قسوة وخشاً ينفران وخشاً . فكثرت
النواح في تلك النواحي وصارت الاعلام نكرات لكثرة المنكرات . اخشوا
مدعين انهم جاءوا لتحرير النصارى دعوى الذوئبان في انقاذ الحملان . فاثبتوا
انتماءهم الى الذين كانوا يرمون عبيدهم بالنبال قنصاً . في القسطنطينية قضى الامر
لولا عصاة من الامجاد الانجاد . توافقوا وتوافوا الى الاناضول عاملين عن
بواء واحد . هناك اجتمعوا تبنفاق الهلال الحاقن وطرحوا عهدة سفر لغوا
ملقى . فتسموا بالمليين انتساباً الى الملة التي هم شداد الحفاظ والغيرة عليها
فصارت نسبتهم هذه قدوة للشعوب وقد صادفت هوى في النفوس . دعاهم
اقتالهم عصاة ولصوصاً لما في صدورهم من الغل والموجدة . لكنهم وقد شهدوا
صدق حملاتهم عادوا فصالحوا هم احرار انداب . بعد الانكار اعترفوا بسلطتهم
وقضيتهم واستدعواهم الى التساوم والتساوي . فشخص مندوبوهم الى لندن
وباريس والابصار شاخصة الى انقرة عريسة الاسود . فلم تجد نفعا مفاوضة
الذين لا يقنعهم الا برهان القوة . فوثق المليون عرى الاتحاد بينهم وبين
الحكومة الروسية الفوضوية . وقالوا الاصلح الا بانكشاف الاجانب عن ارضنا وانا

محاربون الابدن ، فانحضر الانكليز وتوعدوهم بعذاب يوم الظلة وامر عصب
 ذنب الترك انهم لا يتنزلون عن وطنهم وحقهم للمباحين . مضت ايام
 الفتح والغزو فاستقرت الامم في مواطنها ونقرت البيئات . فلكل امة
 ارض مفروزة وتخوم متبينة لا تعداها ولا يتخطى اليها . الى اين يحدس
 الترك مخزائين اذا اخرجوا من بقاع فيها بيوتهم وقبورهم ؟ الانكليز يوثبون
 اليونان الى الحرب ويقولون لا ضلع لنا فيها . ويقتلون وبيعثون على
 القتل وفي الوثيرة يتبرأون بالوثيعة . انهم يمدون اليونان خفية فاذا غلبوا
 قالوا ثقوية واذا غلبوا قالوا تسوية . في الحرب البلقانية صرح رئيس
 وزراءهم بان لا غرامة ولا استتباع ارض وقد ظن النصر للترك . فلما رأى
 البلقانيين منتصرين عاد فقال لا يحرم الغالبون نصيب الغلبة . فتقاسم الاوشاب
 ما تجاذبوه من الاملاك التركية ولم يجدوا ثمة معارضا جليلة طريقة الاوربيين
 في مناوشة الترك حديثا وقديما . اذا انتصروا بقطعونهم عن حقهم واذا انكسروا
 يحرقون بطل الاعداء . وفي الحملة الادهمية على اثينة مصداق لقول الخبير
 الصدوق . فاعداء الترك مضاربون يربحون في النجح ولا يخسرون في الخيبة
 هذا الذي اطعم اليونان حتى بالقسطنطينية وامامهم ملكهم قسطنطين ، يحملونه
 مريضاً لينتشجعوا به وما كان حضوره ليكسبهم شجاعة . عنتره حمي قومه
 ميتاً على صهوة الجواد اما قسطنطين فلن يحمي قومه حياً في الفراش . يتسمون
 نهباً وكبرياء هيلانيين فهم اقزام ينشبهون بالجبابرة . طالما هجموا فانهزموا
 ومروا الترك في اكساء المنهزمين . بالمدد الانكليزي تمادى اليونان في الشر
 والقعة والتفطيع . والانكليز يعضدونهم ويجهزون باضطهاد المسلمين من

وراء الترك المليين . وقد علموا ان الاسلام يستمد منهم قوة وانهم يستمدون قوة من الاسلام . جيش المليين الاتراك جدار يتدهور الشرق لتدهوره وتولي الدنيا على اثره ، فهو الحرز الوحيد الذي يتشوف اليه المسلمون بين اليأس والرجاء . بمحاربتة يحارب الافرنج المسلمين الذين يظفرون ويفشله يفشلون . فهم يمنحون بميلهم اليه ودعائهم له لانهم شريكون مسلمون اما النصارى فلا جناح عليهم اذا تبرعوا وتطوعوا متعاونين . واني لهم ان ينجدوه وقد حيل بينه وبينهم باهوال واغوال . ما العصر عصر صلاح الدين ولا الرجال رجال ولا السلاح سلاح . دعائهم وات الترك دعوة حولها اعتصب الشعب التركي واعتصم . فهو قلب واحد ويد واحدة في الاميال والاعمال . وتبذل للجهاد والدفاع دون المحارم حتى الصبيان والنساء . تراجع الابطال الى معتزك الاناضول بعد قراعتهم في كل الوعكات . ولا يزالون ثابتين تجاه قوات متدفقة عليهم كالسيول . فمن الانكليز الى الفرنسيين الى الطليان الى اليونان الى الارمن . عواصمهم في ايدي اعدائهم وفئة منهم تكافح جيوشاً وتعاند دولاً . وهذه الفئة القليل عددها المنقطع مددها معزولة عن احوائها المقيدين . حاق الاعداء بها من كل صوب وطبقوا عليها الارض والسماء تطبيقاً . اما جيوشهم مفتوحة السبل وافرة الآلات والذخائر والكرراع . هذه وقائع الترك مفصلاً بينهم من اعداء صفوفهم متلاحقة متلاصقة . فما يكون من صولاتهم اذ التأموا حول مركز دولتهم . لو اهل المترصدون الدولة التركية وانظروها عشرين سنة لرأوا منها امراً جليلاً ، مخافة هذا يعاجلون بها بري البراقيل ويكثرثون في طريقها العراقي . وقفة الترك في

مستنقع الموت وقف لها العالم معجباً مهولاً . لقد ابلوا في اعدائهم احسن
البلاء وقابلوهم بشيم البلاء . ولا بطالهم اسما . رخيصة نفخة رنانة طنانة
كعزفات الابواق . فعذوبتها في قلوب الموالين بحسب عذابها في قلوب المعادين
انهم كتبوها وكتبوا ايامهم تحتها باطراف السيوف على صحائف خالدة . ما
اعطاهم في الضعف قوة الا التآف بالعصبية والتحالف بالوطنية . لو كان للعرب
عصبية الترك لقاوموا اوربة جمعاء . كيف وهم اصحاب العبد الا كثروا المجال
الاوسع والملك الاقدم والحق الاكبر . وقد عرفوا مقدار قوتهم لو يذكرون
ايام اجتمعوا بالاسلام . نزل الفرنسيين في كيليكية لا يعلمون ما وراء
الاكمة . فلما اصهر الجيش للجيش زال غرورهم فقالوا ان كيد الترك لعظيم
يومئذ طفقوا يطبنون النار التي اضرموها وقد سحرهم رمي الاساور سعراً
فتوددوا الى الترك وهادنوهم على شرط ان يفصلوا عن البلاد . وشهدوا لهم
بحق المطالب وعظم المناقب بعد ما عدوهم سفلاً وهمجاً . هكذا الحرب ما
فتت مدعاة السلم والطعن ظنار قوم ، ان في كيليكية رجالاً جعلوا اعنابها
حامضة ورياحها رامضة . فقال الفرنسيين رواجاً نزولنا في كيليكية الى حين
وفي سورية الى الابد . طابت الإقامة لهم في سورية لانهم لم يجدوا فيها من
يغضها اليهم . حلوها فوق وطاء من الدماء وتحت غطاء من القمام ولكنهم
سير حلون ، نعم سير حلون سلفة سلفة رحيل ذي نواس عن اصحاب الاخدود
ما تحمل الافرنج الا على طرق من الدم واللظى تروع آثاراً وتذكاراتاً . هلا
انعظنا نحن العرب بما تراه ابصارنا وبصائرنا . الذين حالفناهم على الترك قلبوا
لنا ظهر الحن وحالفوهم علينا . الذين افسدوا بيننا وبينهم يصالحونهم ويشهرون

علينا حرباً . الذين حاربنا واياهم جنباً الى جنب ينزعون سلاحنا ويسعون
اعداء الامس سلاحاً . الذين اتهمونا بالاثمار واياهم يراضونهم على غيظنا
الذين منوا علينا بالعق منكم يستبدوننا ويروهم جدراء بالحرية والاستقلال
الذين سندنا ملكهم متداعياً يهرون ملكنا متراكباً . الذين بسطنا لهم اكفنا
وفتحنا منازلنا يضر بوننا عليها ويقتلوننا فيها . تلك خطة منهم لحطة منا كأن
لم يك فينا ما يكفيناه ، فلنطو كشفاً عن الافرنج ونمد ايدينا للترك بعد ما
طهرتهم وطهرنا الدموع والدماء ، ولتعاون على كشع الغرباء عنا بالجنس
والوطن والغرباء بالهوى والشعور ، ولنجبهم لانهم جيران شرفيون بيننا وبينهم
وشائج لها التحام ، ان ما جرى في ايام الرزايا يجري بين الاخوان في الامرة
والاحزاب في الامة ، جميل ان نتسامح ونتصافح امام الرسول قائلين : خذوا
ما لكم واعطونا ما لنا وعهد الله بيننا

١٥

هذا صنيع الانكليز والفرنسيس بالمعاركين فما صنيعهم بالمشاركين
دماؤهم اذهبوها فرغاً وقد نقرغوا بعد ارتفاع الباروك للكبح والذبح ، هب
الشعوب المظلومة صفحت وضربت صفحاً عن الامس ، فكيف تنسى ما
يفعلونه بها اليوم تحت الشمس ، كم في السهولة والاجبال من الملاحج
ومسقطات الاحبال ، تلك الشعوب حسبوها راقدة فاذا هي ترقب حاقدة
ستظل مرضى باحقادها وتورث مرضها قلوب احفادها ، بحكم الانكليز
والفرنسيس شديد عقابها وغضب الله عليها ، اترأها كبرت ذنوبها هذا
التكبير حتى تكفر هذا التكفير ، كيف نتصرم وهي نتصرم على الذين

يقضون حوائجهم من جوائجها ، يضربون فيها احزاباً باحزاب وبقون
 في الجلود والقلوب اثوراً وجباراً . ثم يسوقون رجالاتها الى الروع بين
 مقارع الحاشرين والعاشرين . فالشعوب الضعيفة ما برحت مسخرة للقوية
 بنفوسها وما ملكت ايمانها . بثس الجزاء جزاء الفرنسيين والانكليز للشعوب
 التي حفظت عهد الولاء في البلاء . وبثس الجواب باطلاق البنادق على الذين
 جانبوهم في الخنادق . تلك الشعوب منعها شرفها من الانتقاض ايام كان
 الالمان على ابواب لندن وباريس . كانت قذائفهم تتساقط على العاصمتين وابلاً
 مدراراً . واهلوهما لا يستصبحون في الليل احترازاً من متفجرات الويل
 فكانوا يطفئون المصابيح في الليالي المدهامة وحولهم رياح عواصف ورعود
 قواصف . لكن بني الانسان مطبوعون على النسيان وسرعان ما ينسون
 لا تكلفهم ضد طباعهم فالناس في عرفهم امر ومأمر وقامر ومقمور . ا كفههم
 لا تنبسط للصدقة وقلوبهم لا تفتح للشفقة . فما انعس الشعوب التي ناءوا
 عليها بكاكل وخلفوها تململ . جاءت تطلب امانتها مئة وحربتها مضنة من
 نهايين غير وهابين . ولئن تكرموا عليها بالتافه مما هو لها نغصوه بالاني
 عمرك الله كيف الصبر على التهم والخلاص من التحكم . ا كثر بفظائع
 الانكليز في الهند ومصر وارندة والترنسفال . واعظم بفجائع الفرنسيين في
 الجزائر وتونس ومراكش والسنغال ، لقد سلطوا الحديد والنار على السكان
 ورموهم ثبي ثبي ، واذ تطلعوا الى الحرية عاد الجلادون الى التشديد والتبديد
 ولا ذنب لاولئك الشهداء المعذنين الاطموحهم الى اشرف الغايات ، مسكينة
 هي الانسانية التي ادعوا انهم ابناء بمجدها وشهداء نجلتها ، ما ينطقوا به علانية

يكتب عليه نسجيلاً وتنجيلاً ، ربما كان مقتل المرء بين فكيه فالبلاء موكل بالمنطق ، ألم يقولوا نحارب لاجل الانسانية والحرية ؟ بلى وما غلطوا ولا خلطوا لان الانسانية في نظرهم محذوفة السين فهي الانانية ، والحرية يعنون بها التي كادوا يفقدونها ليحظى بها المستعبدون ، فالانسانية والحرية في اصطلاحهم اوريتان ولم تكونا قط آسيتين او افريقيتين ، هذا ما يبطنون فتمام البسطاء لا يفظنون ، ألا يرونهم متعاونين في الاستعمار والاستعباد بشد بعضهم بعضاً وذلك لا اعتقادهم انه اذا سقطت هيبة دولة اوربية تسقط هيبة الاخريات ، قل لي بربك ايها المنصف النبيه النزيه ، أمن العدل ان يكون الجبل الاسود من المملكات ومصر من الممتلكات ؟ أمن الحق ان يمنح استقلال الارمن والجران ويمنع استقلال البوير والارلند ؟ أمن القسط ان يصير السودان احراراً في جمهوريات والبيضان عبيداً في مستعمرات ، ولكن اين القسط والحق والعدل والمآرب تتنوع فيها المشارب . اصغر الامم واحداً ترفع الى اعلى الدرجات . واكبرها واقدمها نثحط الى اسفل الدركات . تلك لها دول وسفراء ومقامات وهذه في عرف السياسة معدومة . لا شافع للبوير والارلنديين والمغاربة والهنود والمصريين ما دام المال بهم مغرباً . الطبيعة اتعستهم بما وهبتهم من خصب التربة وثراء الثرى . بلواهم بجودة المعادن وزكاء المنابت وحسن المواقع والشر في التعدين لا التمددين . هل ينبغي للارلند والبوير تحضير وتهذيب ولبسوا شرقيين ولا مسلمين . هل جبل طارق في حاجة الى رام ورأمة وهو جلاميد . ضياعاً ذاهبة عراقية الاصول وقدمية الدول وعظمة المدنية وامجاد التواريخ . لاحقة ولا حجة ما دام اصحابها مضيقاً عليهم لحاجات

في النفوس . وليس التفسير للارذلين عجيباً فلو كان في البومة خير لم نفت
 الصياد . الصقابة توطد لهم دعائم الملك في البلقان على الجهل والفقر والخشونة
 والحقارة . ولا يتاح تكرس دولة للعرب المنتشرين امّا وشعوباً في المشرق
 والمغرب . هؤلاء كانوا الملوك اصحاب الدول اذ كان اولئك الممالك . من
 سارع في تحرير الصقابة وتعبيد العرب ؟ الفرنسيين الذين كانوا يتجرون
 بالخصيان الصقليين ويحملونهم الى عرب الاندلس . والشاهد ما جاء في نفح
 الطيب للمقري عن ابراهيم بن القاسم القروي قال « الفرنجة يجاربون الصقابة
 المتصلين بارضهم لمخالفتهم ايام في الدبابة . فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بارض
 الاندلس فلم هنالك كثرة . وتخصيمهم للفرنجة يهود ذمتهم فيحمل خصيانهم
 الى سائر البلاد . وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين فصاروا يخلصون ويستحلون
 المثلة » هذا دليل على ان المسلمين لم يكونوا يعلمون الخصاء ويستحلونه قبل
 تعرف الفرنجة اليهم . افا للزمان الذي صير الملوك ممالك ورحمة للهنود
 والمصريين والمغاربة

١٦

مهم يا ابن الشرق في الهند بلاد الاساطير والتهابل . هنالك الانكليز
 اشمولوا القوم شراً وطمسوا على الاموال والآمال . فالهنود محفوفون محاويع
 والغرباء طوال الذبول في الدامياء . منهم شهداء ماتوا تعذيباً ومنهم احياء
 تذهب نفوسهم حشرات . لاحماء لهم حيث النيران مؤججة والجيش
 مدججة . بصم الاذان دبداً صناعاتها وصداح ابواقها ورعود المدافع
 وليس للذين على الحق استماتوا الا الاعضاء والشيوخ سلاحاً . طالما اضطروا

وحققهم اظهر من ابن ذكاء فتنى القديرون اعطافاً . اولئك الضحايا اصحاب
 القلوب المتبولة والارجل المكبولة . لهم نتألم وعليهم نأسف يا ابن الشرق
 لانهم شريكون . الفتى الشديد الحميا يغضب للحق واهله اياً كانوا واينما كان
 والحر اخو الاحرار من كل معشر وفي كل منزل . جنى على الهنود البرغال
 والهولند والفرنسيس والانكليز . فمنذ تغلوا في مواطنهم نالت عليهم فواح
 مزقتهم حذاقاً . وقد كانت الهند مملكة عظمى يجمعها سلطان رهيب مهيب
 فلما رأى الافرنج غرة منها ارموا عليها وقتلوا سكانها مسحاً بالسوق والاعناق
 انه نجصالة من حب الفلفل أنخن الطاغية البرغالي فسكودي غاما في
 اهالي كلكوتة . وقدم بعده مواطنه البو كرك فكانت له مذابح رائعة ومظالم
 شائعة . ثم نصب الرهبان صلبانهم واكرهوا الاهلين على النصرانية حتى بلغ
 تدميرهم عنان السماء . بلية الشرق بحملة الصليان اكبر منها بحملة القضبان
 انهم يقبحون فيه كل جمال وينقصون كل كمال . كم افسدوا عاطفة ودنسوا
 قداسة ودلسوا في حقيقة ، ليس اولئك المبشرون بالانجيل الا نذراً بالشر
 كثار الاراجيف . خطأً نموا الكلام في الصحائف المتداولة والاحاديث
 المتناولة . فهم مندسون في الشرق المنصوف اندساس العث في الصوف
 انما البلاء جهد البلاء في الهند من الانكليز المتخمطين . دخلوها قافلة متجرين
 فاصبحوا فيها حاشية ملك ودولة . فلما استفحل امرهم وامتد سلطانهم تداعى
 الهنود وثنافروا للجهاد متحدين . فكانت لهم تلك الثورة المشهورة التي
 ابتيضت فيها الجالية الانكليزية . ظلت حكومة لندن تقفي النجدة بالنجدة
 حتى بلغت امراً نكيراً . فابتدت سلطتها تأييداً وربما ابدتها تأييداً . بعد

ضرب الهنود بالهنود شدت بعضهم الى بعض واستعرضتهم افواجا ، فبلحوا
وابلسوا مغلوبين على امرهم والانكليز يستضعفون الرجال ويمتهنون النساء
نفجع يا رعاك الله اثلاثمائة وعشرين الفونا من الشرقيين . على كثرة
عددهم وقصو بلادهم وسعة مساحتها يخضعون لاراهيط ، الهند الكبيرة الغنية
ملحقة بجزيرة قاحلة ماحلة ، فللانكليز فيها جنات وانهار ومدن حافلة وخيرات
وبركات ، هي معجزهم ومعدنهم وقد مهدوا في سبيلها العقبات والعقوات
تلقب ملكهم بسلطان الهند صلفا كأنها ملك جدته وكأن الهنود ابنا جلدته
وحف به ملوك الهند وامراؤها مسلمين عليه ماشين بين يديه . تزين وتزيا
بزي القوم فبرز مشعوذا او مهرجا . ولبس عمامة كادت تطير حمامة عن
رأس ازرق العين امغر الوجه والسبال . فلم يدر الليب ايصحك مستغربا
ام يبكي مستكربا ، ذلكم ايها الهنود هزل الانكليز في جدكم وتلكم مفاريحهم
في الجنازات . الهند ما الهند وما ادراك ما الهند . هي الارض التي جمعت
اكرم المتاجم وازكى النبات واطيب الثمرات . هي اقدم الاقطار عمرانا
وملكا وتمدنا وتاريخا . هي مخرج الحكمة والشعر والدين والعلوم والفنون
هنالك الآفاق الواسعة والمسافات الشاسعة والسماء البهراء والارض الزهراء
هنالك النفوس التقية والقلوب النقية وكل ما في الشرق من الجمال والجلال
فتحها العرب فظلمتها خلافتهم بضعا وخمسة اجيال . ثم تداولتها الامم الغازية
حتى شقيت باظلمها واقساها . غدر ابنا السماء المجهمة بابناء السماء المجهية
وحملوا اليهم غيوما في قذائف تبث دخانا وصيقا وسخيتا ، فالزرقاء كناء
مما به تربدت وسحاب الانكليز قد تلبدت ، بصرف الامر عن وجهه حجبا

وجه الله والسماء ، وكل شر يخشى من اناس قلوبهم متحجرة وبطونهم متعجرة
قتلوا الهنود وقهرهم ثم سخرهم كأنهم خلقوا سدى ، منهم يأخذون عملة واجراء
الى مستعمراتهم ولا يوفون بحقوق لهم واجور ، ويحظرون عليهم ان يهاجروا
الى الاملاك البريطانية وهم في الهند ملوك ، هكذا كل بلد طيب للافرنج
المتعشين وليست بلادهم طيبة لاحد من المسترزين ، هل بعد شوئهم على
الناس شوئ وبعد لوئهم لوئ ، اما الانكليز فشعب يحل موادعاً مخادعاً فيثوي
عرنديساً عتريساً ، في الملحمة العظمى اراقوا دماء الهنود على انصاب الامرة
والاثرة ، وبغزقوا الاموال التي جبوها منهم مستادين او مستجدين ، واليوم
يمطرونهم في مواطنهم رصاصاً فيتساقطون رفوفاً وصفوفاً ، الطاغية الذي
قتلهم يحية قومه بالريحان ويحيونه بالاعلاق ، وما كانت ثلة غنم لتقوى على
دئب حديد الظفر والناب ، لو كان الانكليز وحدهم قتلة الهنود ما وجدوا الحادث
عجيباً ، ولكن المناكيد المناكيب يقتل بعضهم بعضاً بامر المحتكمين ، يبعثون
الفتنة ثم يلحون على الزعماء بتهدة الخواطر الثائرة ، فويل للواقعين في ايديهم
احياء انهم ليغبطون الاموات ، ليت للهنود ما للارنديين من شدة الشكيمة
في مصادمة الانكليز ، ارلندة على صغرها وقربها تقررهم قرعاً فيضيقوا بها
ذرعاً ، والهند على كبرها وبعدها لا تصيبهم قليلاً فتشفي غليلاً ، لو كان
الاراند بعدد الهنود عشره لما بقي مضاع كلام ولاغ دماء ، ولكن اين القوى
الادبية قوة الخلق وقوة العلم وقوة الاعتصاب ، هذه صيالم الدولة البريطانية
مستنزفة الحيات والحدقات ، متى تجبس تلك السعلاة في جزيرتها لتموت
غماً بجزيرتها ، فتصير مقلمة الظفر عن الاذى في بريطانيا الصغرى ولاحقاد

الشعوب النظام على سواحلها مع الامواج المزبدة ، السفاحة لا تترك الهند ما دام لها متن متين وركن ركين ، وان يكون طردها الا بقيام الهنود هبة واحدة براهمة ومسلمين ، لقد حان التأخي بعد التراخي ليتناصروا على اعداء الفثنين ، وكفى بغندي بشيرا ونذيرا وهو الرسول الامين ، المعضلة الشرقية علة الحروب لما بين الافرنج من التخاصم والتزاحم ، فهم شاقون بالشرق مشقون لاهليه وعليهم واقعة مسؤولية الخراب والدمار ، متى يصبح الشرقيون اصحاب اوطانهم تبطل الدعاوى والخصومات ، فليتقوا الله ويحذروا وخامة العقبي وشر المصير ، أظمة الشرق في ثورانها فالعياذ بالله من ثورانها ، سوف تجعل ما شدوه وما شادوه حطاماً ورماداً مذروراً

١٧

مصر العزيزة ما احبها وهي التي كان العزيز ربها ، دهمها سكان الجزيرة المكروهة فقاهرتها مقهورة ونيلها منيل ، تلك ارض عربية وان لنا فيها اخواناً عرباً جيراناً ، القلوب موصولة بصلة الارحام فلهم ارق ما فيها من العواطف ، هواهم هوانا وارضهم ارضنا ونحن شركاء بوئس ونعيم ، في سبيل حريتها ارضت ما غلا سوى شرفاً رفيعاً ، فبكت وبكىنا متأسين على قلوب جريئة ونفوس بريئة ، سلام على كل شهيد ساكن الجنان ارداه صريع الدنان ، قضى الانكليز في ارض القراعنة والخلائف على السيادة والحرية فاضحى السلطان يأتمر بامر عامل يصغر خدّاً ولا يحسبه ندّاً ، والفلاح يحرق ويزرع ليتنعم الجندي المرباط في الكتيبة الخشنة ، فما حالة ذي المحراث وما حيلته تجاه ذي شكة وسان مسنون ، ذل المصريون ذلاً عليه اختاروا

الموت وقد كانوا بين الاحياء موتى ، فنهضوا للاستقلال بعدما عيل صبرهم
من الاحتلال ، وما حملوا للذحل سلاحا بل أملوا من العدل صلاحاً ، كانت
جريمته عند الانكليز انهم ارادوا فاجترأوا فطلبوا ، فاخذوا للامر حفلة وسدوا
منافذ البر والبحر بالحراب ، ونفسوا عليهم حرية واستقلالاً في سبيلها قاتلوا
استقلالاً ، كانت في مصر ثورات رجفت لها الارض وما وجفت قلوب
المستبدين ، فرشقوا كل حفال بقذائف جعلته اشلاء ممزقة ، وانصبت جنودهم
تصب النار على المستضعفين بأيدي صلبة كالقلوب ، وحامت طياراتهم في جو
مصر طيراً ابابيل ترمي بمنفجر سجيل ، فصارت الاسواق ساحات حرب لم
تحترم فيها المعابد والحدود ، عظيم والله ما حل بالمصريين التعساء وحولهم نار
وفوقهم نار ، وقد كان اعوان الانكليز عليهم جميع الاجانب الاوربيين
فاغتالوهم ذئاباً خاطفة ، والاشد اغتيالاً زعانف اليونان والارمن والمالطيين ، ان
الارمن واليونان كانوا ولا يزالون الد الاعداء للعرب والشرقيين ، هل يغفر
أو يتناسى فتك الارمن باهالي حاب في زحفة التتر الجائحة ، التاريخ العربي
فيه صفحة لهم تزداد على الايام اسوداداً واحمراراً ، فليعلم كل عربي وكل
مسلم انّ لها عدوين مسخمين هما اليوناني والارمني ، هذان العدوان لا
يصالحان ويصالحان بل يزدلان ويقذلان . تلك مقابلة المعروف من اجانب
اردياء نزلوا في مصر على الرحب والسعة . اللثام اذا اشبعوا بطروا واذا
اكرموا تمردوا فلا ضيافة لهم ولا كرامة . يعتدون على المصريين الذين امنوهم
وموتوهم وصيروهم منشامين . فتطلب دولهم بدماء نفر منهم وليس من يطلب
بدماء المصريين . القتل الافرنجي يقاد به ويودي وهو الشرير المعتدي . اما

القتلى الشرقيون وقد حلّ بواديهم فلا دية لهم ولا قود . ماذا يجري بين
الاوربيين والاميركيين لو تصدت الجوالي وتعدت ؟ الله يعلم انه لا يبقى في
الدار طوري بين اصبوحة وامسية . الدول الاوربية ومن جملتها دويلة اليونان
قام قائمها لمقتل اسافل من رعاياها . فأوجبت لبث الانكليز في مصر لحماية
الجوالي الاجنبية . واخذت من رد المصريين للتعدي حجة لقولها انهم لا
يستأهلون الاستقلال . الغضبة للعق تحسب في الشرق تعصباً وتوحشاً وفي
الغرب تمنعاً وتحرراً . حجة المفترين مدفوعة بواقعة الحال وشهادة العيان
ان كان الاوربيون بخشون خطراً على رعاياهم فليأخذوهم وينصرفوا . المصريون
في وطنهم ومنازلهم والافرنج غرباء نزل وضيغان ، الضيف والنزيل يترحلان
عن القوم اذا لم يجدوا مخفضاً ومأمناً ، فلا يقيمان بينهم على رغمهم بقوة الجند
والطوف والحرس . كثيرون الذين يطلبون الى الانكليز ان يخفروا الاجانب
وليس بين اولئك المتمدنين من يطلب كف الاذى والقتل عن المصريين
ما يتمتعاه المنظوفون ان يكونوا في بلادهم احراراً غير معتدى عليهم ولا
محرومين . عجيبة انت ايها البشرية وقبيح ما فيك من الخبث والمكر والشماتة
والادعاء . انت وحشية لا انسية فبعدالف عقور لا ارى فيك انوساً . مصر
يحني عليها وتشكى فما اكفر الجناة والشاكين . هل اقل من ان يساوى بين
الاوربي والمصري في ارض هي مصر ، من القصاص للمصريين حسن اعتبار
بعد صدق اختبار لعالمهم يتقون . الروح المصرية اختمرت فلا خوف من
الرجعي والقهقري . منازعها لن تنزع من الصدور والروؤوس بكلايب من
حديد . الشعور بالوطنية طفحت به القلوب حتى في النساء والعلماء . فكان

له في حر كات الاستقلال مظاهر دمت لها العيون طرباً وانفعالاً . حيا الله
مقصورات الحجال العرييات المصريات المسلمات . ظلمن كالبذور من الحدود
وقابلن الكماة برزات بطلات . بعد وطاء المسك والكافور مشت ذوات الفغام
على الدم والرغام . تلك شيم من جداتهن فالبينات بالامهات متأسيات
العرييات بهرن النساء ذكاء وشجاعة وعفة وحسناً . جمعن الفضائل وكن
للابطال امهات وازواجاً واخوات وبناتاً . فلزوجة المصرية كهند بنت عتبة
زوج ابي سفيان وعائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير . الاولى كانت
تحضر موتمرات قريش وتشهد المواقع مع زوجها . والثانية كانت تناضل
الزماة وتحاور الشعراء والعلماء . ولم تكن تغدق على وجهها نقاباً فعذها زوجها
فقلت « ان الله وسمني بميسم جمال احب ان يراه الناس ليعرفوا فضله عليهم
وما في » وصمة يصمونني بها » والاخت مثل خولة بنت الازور الكندي التي
خرجت مع اخيها الى فتح الشام . وكبشة اخت عمرو بن معدي كرب
وقد كانت جميلة تباري اخاها بالشجاعة . وليلي اخت الوليد بن طريف التي
كانت تبارز الرجال . لما قتل اخوها صبحت القوم دارعة وحملت لانتهاج
الردى ، والبنت مثل عمرة بنت علقمة التي شهدت يوم احد مع قريش فظل
لواؤهم صريعاً في حومة الوغى حتى رفعته لهم فلاذوا بها ، ومثل اردة بنت
الحارث بن كلدة طيب العرب ، فانها اعتقدت من خمارها لواء ومشت قدام
القوم في فتح ميسان ، والام كالحنساء التي شهدت في شيخوختها واقعة
القادسية ، فخرضت اولادها الاربعة على الثبات فقاتلوا حتى قتلوا ، ولما بلغها
الخبر قالت الحمد لله الذي جعل القتل لي ولهم شرفاً . الام العربية المثلى هي اسماء

ام عبدالله بن الزبير ، عندما حصر الحجاج بن يوسف مكة دخل عبد الله
 اليها وهي شاكية فقال : كيف تجدينك يا أماء ؟ قالت ما اجدني الا شاكية
 قال ان في الموت لراحة ، قالت ما احب ان اموت حتى تقتل او تظفر ، وفي
 اليوم الذي قتل فيه جاءها في المسجد فقال : خذني الناس فما رأيك ؟ قالت
 ان كنت تدعو الى الحق فامض عليه وقد قتل اصحابك ، وان كنت تريد
 الدنيا فبئس العبد انت وهذا ليس فعل الاحرار ، لا تقبلن من اعدائك خطة
 تخاف فيها على نفسك ، فوالله لضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في
 ذل ، فالتهمت جوانحه حماسة من كلام تلك العجوز الشريفة وخرج مستقتلاً
 حتى قتل . هذا اثره من ماثر العرييات الفضليات التي تعقب النفوس فضيلة
 وشرفاً . وقد حفظ التاريخ منها شيئاً كثيراً لا تستوعبه دفئا كتاب ، متى
 يظهر في الامة امهات كأم عبدالله بن الزبير يزكن ابناؤها ويركن بناؤها
 ان امهات النجباء منجبات وامهات الكرام مكرمات وامهات الابطال
 بطالات ، الامة المصرية في عهدها الجديد منجبة مظرفة فبشر البنين الصالحين
 لا يستوي البارون والعاقون واللاجون والحاقون فانتظو عقاباً وثواباً ، بارك
 الله في المصريين الاحرار الذين يجاهدون خير الجهاد ، لقد تبطلوا وتدرأوا
 على اعداء سواد عسكرهم في سواد البلد ، فلا يكتفوا ببعض الحق والحق
 لهم كله لئلا يزداد الخصوم استجراحاً ، ربما سمحوا مكرراً بعد ما سمحوا فعلاً
 فكان السماح استدراجاً ، يعطون موقتاً حتى يتسنى لهم ان يستعدوا فيستردوا
 حذار من مهاودين بينهم غير خفيهم ففي صدورهم اصلال نتحوى ونتلوى
 اقدام الانكليز لزجة ولهم من برودتهم مهلة للتحيل والتروي ، وقد جاء في

امثال العامة البارد غلب الشيطان ، كل امرئ مأخوذ بما هو فيه فالانكليز
بضربتهم بضربون ، ولا يخرجون من مصر الا باخراج ارواحهم ودون
انتزاعها نزع القلوب ، انها واسطة العقد من المستعمرات والقفل من سلسلة
المستعبدات ، وموت الانكليزي البليد الجليد بانفراط العقد وانكسار الغلق
فليعلم المصريون وجمع المظلومين ان بينهم وبين الانكليز هوة ، فلا ذريعة
للتخلص الا القوة القوة القوة . فيم التعلل بالوعود وارسال الوفود على غير
نتيجة وجدوى ، كذا يضعون وقتاً ثميناً وفساد الرأي في التردد والانتظار
مصلحة الانكليز في التأجيل ومصلحتهم في التعجيل فبدار بدار ، لقد فاتهم
فرستان من نهضة محمد علي وثورة عرابي فكان خسرانهم جساماً ، لا تفوتهم
فرصة ثالثة ربما تكون الاخيرة وكل الخير فيها ، ولا يقبلوا اشتراطاً وانفاقاً مادام
في مصر جند ازرق الاحداق مدافعه مهرونة الاشداق ، اما رأوا خلال شهور
طوال نوس الانكليز وخيبة المسعى ، لئن يهنوا يعودوا الى اقبح مما كانوا عليه
من الجور والهوان ، لا اعتماد الا على انفسهم اذ ليس لهم نصراء ، فهم كجميع
الشرقيين مخذولون لا تسمع لهم شكوى ولا ترفع ظلامه ، لقد كان حظهم
من الامير كيين حظهم من الاوربيين ، الاجانب يمالئون الانكليز
لا تنفعهم بالامتيازات ، والانكليز جعلوا اقرارها بدلاً من السكوت
والاغضاء ، اوّه على ما فات في هذه الافات ، الامتيازات التي وهبها
ملوك الاسلام كرمّا صارت على المسلمين غرماً ، واشد المضاضة في هذه
الغضاضة ان يتمتع بها حتى رعايا احقر الدول ، من الحماقة طلب الغائها الى
الانكليز او الفرنسيين حيث يحكمون ، ابغضون المتواطينين وايام سرّاً

لينكروا الاجتفاف والاحجاف عليهم ويفضحوهم علناً ، كل داخل في مصر
عدو اكل داجن حتى الصحفيون ، انهم يتعرضون للمصريين و يقرعونهم
ويطعنون فيهم شامتين هازئين ، اما والله لو فعلوا في غير مصر لكسرت
ادواتهم ودواياتهم على رؤوسهم فاختلط الاسود بالاحمر ، ليس للصحافي
الاجنبي الا المشي مع اهل البلاد مستحسناً غير مستقبح ، مفيد توقع الغرباء
ونافع تهجيلهم بتحريك العواطف الجنسية وتشديد الروابط الوطنية ، انهما
يزيدان المصريين تعصباً وتشبثاً وهم مشهورون بالحفاظ منذ القدم ، هذا
الاضطهاد تخرج منه القلوب محووسة كانها فضة محووسة ، كم في تلق
الفرنسيس للمصريين من الاربعة وفي الموانسة من الموانسة ، يمتلقون
الخدع كانها تخرج من تحت ارجلهم فيبتاعون ديناً و يبيعون عيناً
و يتظاهرون بالميل والعطف وهم شر كاء الانكليز في الجريمة وقد كانوا
مقايضين ، انما حتموا عليهم وحنقوا لانهم قلعوهم من مصر فقالوا لا لنا ولا
لهم ، لماذا يرضون عن قفول الانكليز من مصر ولا يقفلون جندهم من
جاراتها المغريبات ؟ لانهم لا يجيشون بالامر من عين صافية فهم من هنا وهنا
مذبذبون ، كل دولة تحسد الاخرى وتريد ان تأخذ الدنيا بصنابتها ، الجرائد
في حكم الانكليز نقدح في ما تي الفرنسيس وتلهج بالحرية ، وفي حكم
الفرنسيس نقدح الانكليز وتقني بمقوق مصر والهند وارلندة ، فعلى
صفحاتها معارك حامية الوطيس والكتاب بين حاذف وقاذف ، هذه سياسة
اوربة الفجوع اوربة المستذبة اوربة المستكلبة ، كلما تزخر التيار الاوربي
على مصر دفعته العروبة والاسلام ، فلا تحفظ ارضها من الافرنج الا رفاتاً

ورفضاً ، كان الفرنسيين اول المعتدين على مصر وقد مضوا اليها قدماً ، في
الحملة الصليبية الثامنة عادوا بالخزيات مدحورين وبات ملكهم اسيراً ، وهم
بها ملكهم لويس الرابع عشر اذ كان مطلعاً ذا نفس طلعة ، وقد اولعه بها
وزراؤه وزينوا له فتحها بتأليف الكتب وتنسيق الخطط ، فلم يقدم لما رأى
دونها من ركوب الاهوال وانفاق الاموال ، وفي زمن الثورة حمل عليها
القائد بونا بارت حملة استجلاء واستيلاء ، أليس عجيباً ان تبادي امة بغزوتها
ايام كانت تنادي بالحرية في نزوتها ، وادعى صاحب الحملة انه يفتح مصر
باسم السلطان العثماني لتحريرها من عبودة الممالك ، تلك هي قاعدة
الفرنسيين في الفتوح والغزوات ، يقتلون التونسيين والمراكشيين باسم
سلطان مراكش وامير تونس ، ويقولون اننا نطوع للحكومتين المراكشيتين
قبائل الماردية والمارقين ، فيستنهضون الجنود والموالي المراكشيين ليلغوا
من بلادهم واخوانهم مبلغاً فاحشاً ، كذلك يفعلون في سورية باسم لجنة ،
الامم فيطرد القوم بعضهم بعضاً ، والانكليز يستصدرون الاحكام على
احرار الترك والمصريين من الحكومتين التركية والمصرية ، احبط
الانكليز مساعي الحملة الافرنسية وسحقوها في وقعة ابي قير ، ففر القائد
بونا بارت شريداً مسقخفياً وخلفه فلول الجيش وحطام السفين ، ولم تكن
غاية الانكليز الا استبقاء مصر حتى يتسنى لهم ان يملكوها ، ثم ظهر المصالح
العظيم محمد علي ممثلاً لطريقة صلاح الدين ، فركب مسحله في تأسيس
دولة عربية كبرى تعيد مجد الخلافة ، فايده الله بالفتح والنصر حتى كاد
الجيش المصري يبلغ حيطان القسطنطينية ، كان ابنه ابراهيم احذق الرجال

في الحرب واكثرهم دربة ونجدة وبأساً ، فتم له في برهة ما لم يتم لغيره من
الغزاة والفاتحين ، و كان جيشه في المسير داعقاً وفي الهجوم صاعقاً ، فدهشت
دول اوربة لاعمال محمد علي وعدته رجل الشرق الاكبر ، وارتاعت الدولة
الانكليزية لكبر دعوته وعلو همته وها لها نهوض الشرق اجمع ، فعلقت تمكر
مظاهرة بالغيرة على الدولة العثمانية لتحول عنه قلوب المسلمين ، واقامت
دول النصرانية بوجوب القضاء على القوة الاسلامية قبل استكمالها ، فاقبلت
اساطيلهن ثرعد وثرعد والجيش المصري يتخلخل ويتفلفل ، كانت
الحكومة الافرنسية تشجع صاحب مصر خافية وتقره بالمواعيد والمساعدة
فلما برح الخفاء خذلته ولم تحر جواباً لجبن ملكها وضعف وزارتها ، فظل
ملتقى تعليلها وتأويله بين سمع الارض وبصرها ، فاضطر الى التسليم والاذعان
وقبل وهو الغالب بشروط المغلوب ، بالفشل انتهت تلك الماكرات الخطيرة
من جراء المسلمين ، اوشكت الدولة المصرية ان تضرب بجرانها فكانت
مكيدة الانكليز منحسة ومتعسة ، بها تعسوا فما انتعشوا وشيكوا فما انتقشوا
هلا يعلمون خسارتهم وشقاوتهم بالانكليز وما يعملون ، خلفوا مصر مردفة
مع الدولة العثمانية لئلا تكون لها منزلة دولية ، فكانهم اودعوها الى حفز حتى
بتهياً والاختذا وپباشروا الامور في اوقاتها ، يا لضيعة الحقوق والاورطار
في النهضة العلوية والثورة العراية ، المصريون لم يتدبروا الامور مقبلة
فطلبوها مدبرة وايها ان تعود ، لو ثبتوا ولم يهتموا لتهديد الاوربيين
لافلحوا وكان لهم نصر عزيز ، وما ذهبت طرابلس وتونس والجزائر
ومراكش وسائر افريقية المسلمية ، وما بقيت مصر والهند والسواحل

العربية في قبضة الانكليز ، وما اقتسموا والفرنسيين بقية البلاد العربية وهي الشام والعراق ، دام الانكليز يتلصصون حتى دخلوا مصر في ريدجان لا في حبو كرى ، وكانت دعواهم وقاية العزيز وحماية الاجانب التي هي علة العمل ، متى 'يضاف هؤلاء الضيوف من الشرق او تكون للقوم عليهم سلطة في ديارهم ، يا صباحاه دخل الانكليز وحسبك من داخلين ، فما عبدوا ان جردوا مصر من سلطتها وحربتها وجنديتها وبحريتها ، فكان كل الاختلال من ذلك الاحتلال ، وصار نصيب الاحرار القتل والسجن والمنفى المصريون اطمم بمظالم الانكليز فالتعريض بها تصريح والتلميحات تلويحات منهم ذاقوا الامرين وها هم يلقون الاخرين والاعرين ، عندما شبت نار الحرب وهبت ريحا خدعوهم بالمواعيد والمواثيق ، فاستناموا اليهم وسامحهم سماجا لا يعرفون سماحا . فانتفعوا بخيرات مصر وسواعد الالوف من ابنائها ماذا كان جزاء المصريين على الخدمة والحلم والكرم ؟ التقيح لكل حسن والاساءة بكل احسان ، ما برحوا في مصر ولن يبرحوا وغرماؤهم على استحقاق الدين ممتولون ، من المقهورين التذلل والتملل ومن القاهرين التدلل والتعلل ، والشعب المصري يموت فيقال للانكليز انتم بوفاء ، ومن تعس هذا الشعب ان حكومته تناكده احيانا مع مذيليه ومذيلها ، كانت عليه في ثورة الجندية وهي عليه اليوم في ثورة الحرية ، بعد كل هذا بمن الانكليز على المصريين بالعدل والعلم والمال ، اين العدل افي السيطرة الانكليزية ام في الامتيازات الاجنبية ، اين العدل افي المحاكم المختلطة ام في المحاكم العسكرية ، ذات وجودهم في مصر ينفي كل عدل ويوجب كل

ظلم افلا يستحقون ، لئن اخذوا الحق افلاح من ملاك صاحوا هذيه
العدالة وهاتي الادالة ، لم يكن ذلك لفضل بل لما رب من تمليق الفلاح
واملاق الملاك ، فكل ما يقولون ويفعلون تتراوحه المحسدة والمفسدة
لينصفوا الفلاح الارلندي قبل المصري فهو جار جنب ، لم يغصبه الانكليزي
ضيعته وجزيرته والحق والحرية ؟ هل يعادل انصاف فلاح مصري ظلم الامة
المصرية جمعا ، ذلك الفلاح لنصفه حكومته ولها دين وشرع فيهما كل
العدل والانصاف ، وربما فضل ظلم مواطنه على تحكيم غريب يعطي صوفاً
ويأخذ خروفاً ، اين العلم أفي المدارس التي اقلوها ام في المدارس التي
انقصوها ، اين العلم أفي التعليم الذي كاد يموت بغصته ام في المال الذي
حذفوه من حصته ، كم يعارضون التعليم الملي ويصرحون بانه مضر بالسلطة
الانكليزية ، كم يرغبون في ابقاء الشعب المصري متسكعاً في الجهل متخبطاً
في الضلال ، كم يجتهدون في قتل اللغة العربية ليدثروا الوطنية والعصبية
اين المال أفي الصناعة التي ظلفوا اثرها ام في الزراعة التي ضايقوها ، اين
المال أفي الضرائب التي يرسمونها ام في الديون التي يركونها ، اين المال
وفي مصر النقص والغلاء والجوع والافلاس ، هبهم اعطوهم كل هذا فلا
يساوي الحرية التي اخذوها ، ان الحرية انفس من النفائس واثمن من
المال واعز من الحياة ، فلم يعذب الموت في سبيلها وهي التي لا حياة بدونها
يقولون لك الانكليز عمروا مصر وقدموها وحسنوها ، قل ان مصر لولا الانكليز
لكانت اكثر تعميراً وتمويلاً وانسلاً ، ما تراه فيها ليس الا يسيراً مما كان
واجباً ان يكون ، مصر مغبونة غبناً فاحشاً بصفقة الانكليز فلا تغشك

الظواهر ، الانكليز . اعترضوا لها وبطأوا عليها باصلاحاتها السريعة الرائعة
لو ظلت سائرة على نهج محمد علي لاصبحت مصافة للدول العظمى ولها جيش
واسطول منيعان ، لقد كان الجيش والاسطول المصريان في عهده من الطراز
الاول ، فما يكونان بعد انقضاء ما يرمي على ستين عاماً من ذلك العهد السعيد
ما حازه المصريون كان باجتهادهم واكتسابهم من تلقاء انفسهم لا بترتيب
وترغيب من الانكليز ، فضل المحتلين الوحيد انهم صيروا اهل مصر مصريين
فحسب ، بحب الذات جعلوهم يحبون انفسهم وبلادهم وبالمقت حببوا بعضهم
الى بعض ، هذه حسنة كبرى للانكليز والافرنج في الشرق فهم من هذا
الوجه مفيدون ، حبذا الاضطهاد والاستبداد اذا كان منهما التعاطف
والتلاطف ، مصر العوبة في ايدي الانكليز الزاعمين ان لهم فيها ما اثر
ومصالح ، فمثلهم مثل الذي يسترعيك ثوراً في مرجك او يستودعك متاعاً
في بيتك ، تقول له خذ متاعك وثورك واذهب بسلام ، فيقول لك الثور
سمد ارضك والمتاع زين بيتك فالارض والبيت لي ، ما لك الا ان تذبح
ثوره وتحرق متاعه وتطرده معقياً على اثره التراب ، المعتدون المسيئون
يقتضون الحمد والشكر من المعتدى عليهم والمساء اليهم ، ويتساءلون
متجاهلين ما هذا النقم على اسباغ النعم ، فكانهم يقولون للغريق لا نعب
ماء وللجريح لا تبدر حراكاً ، كيف لا نتكلم الافواه بما نتألم به القلوب
وشياطين الانكليز تؤز المصريين ازاً ، الحجر اذا ردى يسمع صخيخاً
والعود اذا احرق يخرج دخاناً وزفيراً ، فلا اقل من الشكوى ايها الذين لا
تندى لهم جباه في المنديات ، انكم تبصقون في وجه الحق والفضيلة

وتجدفون على الله والطبيعة ، الماء الذي منه شربتم رنقتموه والخبز الذي منه
اكلتم دنستموه ، لانباء الجزيرة الغياء مصر والسودان التي افتتحها
المصريون ، فالنيل الكبير عبد للتاميز الصغير والاهرام اشوامخ اصحابها
مطاطأون ، مملكة الفراغة والخلائف اصببت بالجلائف ، فخطبها عظيم
وهي قاعدة العروبة وازهرها قطب الاسلام ، لولا الانكليز لكانت سلطنة
عظمى بها ينتظم العقد المفروط ، هي امروعة يكثر فيها الثراء والعمران
ولكن خيرها للغرباء ، مدينتها اقدم المدينيات ولغتها اشرف اللغات ودينها
احق الاديان ، اخذ الله بأيدي الضعفاء في موطن الفراغة والخلفاء ، مصر
على قدميتها ومدينتها ليست دولة معروفة ذات سفراء ، والحبشة دولة حرة
مستقلة بين ممالك اسلامية مطموسة ، اشفعت لها يا ترى نصرانيتها ام
دفعت عنها رجوليتها ، اجيبوا ايها المسلمون الذين ملكوا افريقية بقليلها
الحبشة تشب عن الطوق ولا طاقة لكم بدولة في افريقية المكتظة بكم
هذا ما ينزع له الخبر في الحابر والدمع في المحاجر ، آثار الخراب والموت في
مصر تعطيها حياة وعمارة ، كم في ظاهرة القاهرة من مظاهر القدرة والعظمة
وكم في مساجدها ومدافن خلفائها من التحاسين والتعاجيب ، هناك ابو
الهل الرصيد كانه منها الوصيد ، وحياله الاهرام التي اخذ التاريخ من
رصاصها صحائف لا تبلى ، في علوها علو الهمم وفي سعة رملها فسحة الامل
الاهرام السرمدية ساخرة من الدهر والبشر ، تصادمت حولها الجيوش
فتبورت ونقادت عليها العصور فتبورت ، ما برحت فرعونية في ارض
تحولت عربية . وما الفراغة الا ملوك عرب عزت بذكرهم وعظمت بملكهم

اجل ان ابن مصر مصري وطننا وعربي ادبا ونسبا . ولم تكن مصريته لتتفي
عربيته فالعرب في الجزيرة منهم حجازيون ونجديون ويمانون . وكيف يرفض
العروبة فريق وقد تعربت البلاد والاخلاق والآداب والعادات . وعربية
منازلهم ومعابدهم وملابسهم ومشاربهم ومطاعمهم . وقد اقتبسوا كل ما فيهم
وما عندهم من دين ولسان عربيين . فختم العروبة لن يمحي لشدة تأثيره وما
نسخ قط بادع ما رسخ . تحاول فئة شعوبية ان تخرع ادبا مصريا بحتا وهل
يكون الادب المصري الا عربيا . فمثلها مثل اسير يرسف في قيوده فاين ما
يسرقسكه فيعود اليها . الادباء يستلهمون الكتابة ويستمدونها مما حولهم وما
حول الاديب المصري الا كل ما هو عربي ، وهل نفيد او نلذ اخبار قوم بادوا
ولم يبق لاوائك الاموات صلة بهؤلاء الاحياء . لقد تغيرت الارض والسلالة
والديانة واللغة والطباع والتقاليد . فهذه الردة ضرب من الغلو الدافع الى
الحق والهوس . ان بعض الاوربيين والاميركيين يدعون انفسهم شعوبا
لاتينية لعرق لاتيني ضعيف وفي المصريين عروق عربية قوية . فاذا لم
يكونوا عربا كما نشاء الحفيظة والمفخرة فلا اقل من ان يكونوا عربا على طريقة
الامم اللاتينية ومن اجل مصالحهم بين الشعوب العربية . وحاشا للمصريين
الكرام ان يحددوا الجميل والنعمة وينكروا الاصول والانساب . وكفى
بالثقافة العربية طابعة لهم ومنطقة عليهم ، والا فرنج انفسهم يعرفون المصريين
عربا كما عرفهم نابليون في تقارير الفتح . هكذا يغمط فضل امة يساء اليها
من جميع الذين احسنت اليهم . فسلاماً على الكنانة ربة النيل والاهرام
وحفاظاً على خطة محمد علي الاكبر

الانكليز والفرنسيين اقتسموا خطتين بينهم فكانهم ورثاء المسلمين
ابدأ يتغولون ويتغنون ولهم تراث محرق في ارض محمد ، لكن وطأة الانكليز
اخف من وطأة الفرنسيين تلك الثقيلة ، الانكليز يدخلون البلاد بعلّة
وتوادة ملامية ما كرين . فيقولون لاهلها امهلونا الى وقت معين واحسبونا
ضيوفاً ، فلا يكاشفونهم بتحويلهم دفعة عن لغتهم ودينهم وعوائدهم واحكامهم
سكان مستعمراتهم يسرون عن قلوبهم بالشكوى فيسمع الوري منها صدى
ولزعمائهم وادبائهم حرية الكتابة والخطابة ان لم يكن لهم حرية العمل
الانكليز ينعون الموتى اما الفرنسيين فيطمرون الاحياء ، فالمستعمرات
الانكليزية يسمع من اجتها وصياطها صوت خفيض ، اما المستعمرات
الفرنسية المندثرة فلا حس فيها ولا حسيس ، قطانها خافتة اصواتهم
وسواء احيائهم وامواتهم ، جعل الفرنسيين اوطانهم سجوناً وبيوتهم قبوراً
وربطوا السننهم وافئدتهم وادمغتهم يلوحون بالسيوف مرابطين ، هذه
طريقة الفرنسيين الغنيمة وقد اشتهروا بالهوج والهوس ، لا اسوأ منهم طباعاً
ومعاملة وقد اصبحت الافرنسي فزعة وهو النجاج النار ، فهم اشد الشعوب
تعصباً وتصلفاً واسرعهم الى فتنة وقطيعاء ، لو استطاعوا لشدوا على الناس
حبلاً وجبلوهم حبلاً . فالامة التي تخضع لهم يحاولون ان يرمسوا لغتها
وعصبيتها واخلاقها وآدابها ، منذ استيلائهم على الجزائر وتونس ومراكش
عفوا اثارها وخفوا اخبارها . فاصبحت بمعزل ودرج اهلها في الاكفان
قبل تغميض الاجفان . تحت حكمهم طوى عرب الغرب الصحائف وكادوا

يطوون المصاحف ، دعى تلك الاقطار مادي حتى وهن الاسلام فوهي
دراك فالفرنسيس يعشون بدين حنيف ولسان عربي منيف . الله الله في بلاد
تؤذنفها العروبة والاسلام بالرحيل ، أياس ام رجاء من اخوان عرب
مطاعم مطاعين . قل لهم حفاظاً على ودائع نبيكم واجدادكم فهي ذخائر
الدنيا والاخرة ، لا تكسروا الاقلام بعد السيوف ولا تموتن الا وانتم عرب
مسلمون . بعد مجد قدموس مجد عتيد وافريقية عرصات لكم وحرثات
رقابكم للفرنسيس وتأبى نفوسكم الاشياء ونفورا . تلك عداوة السلالة التي
زادتها الايام لداً . القناة العربية صلبة لا تلين لغزهم ولن يكسروها . في
مواطن العرب حركات ميمونة تبشر بحسن المال . ولا خوف على امة لها
قوة اديبة من نفوسها ورؤوسها . هي والله قوة خفية تنساب كالومضاء في
الاسلاك . بها تزدقف يوماً ما خرج من ايديها ولا يقوى عليها حديد المغتصبين
اجل نهضت كل البلاد العربية الا المغربية . فهل اخمدت فيها النار وكتبت
عليها الذلة والشنار . لقد كانت العدو ملجأ الابطال بعد نكبة الاندلس
اليها تراجعت صفوة العرب من ملوك وامراء وكتاب وشعراء . ولا تزال
العروبة في سكانها ابدى مخايل وخاللاً . انهم لمعدورون على القمود ولا عذر
لهم بالسكوت . الا تكن غارة فغيرة على كتاب الله وآداب السلف . جميل
ان يموت كل عربي مسلم على كتابه موت ذي النورين . المؤمن الهميز
الفؤاد اذا استنعى به الشر اختار قبلاً لا يعرف دبيراً . فتراه في مهدنة وله
قفص من النور وسط قفص حديد . ان للمغاربة متسعاً في المضايق لنهضة
ادبية وحفيظة عربية . فيهما ترويح للارواح وتكبير للهمم ومنها استمداد

قوة واستجداد . فليحملوا سلاحاً اديباً لا تذكي عليه العيون حتى تعود النفوس
 الى منازلها . فيصير كل بيت مدرسة وكل والد معلماً وكل وجه ماذية
 وكتاباً . كيف لا تبث بينهم هذه الدعوة ومنهم لبيت الله حجاج وفي
 الازهر طلاب . لاستغراقهم في الجهل اوشكوا ان يخرجوا من العروبة
 والاسلام . فليخش العالم العربي الاسلامي صائحة بعد وقعة صيلمة . في
 اقصاه وادناه صيابة من الشعراء والكتاب والعلماء . كل منهم ذاع له صيت
 وراع منه صوت في المحافل والمواكب . اما الاقطار المغربية فعميقة العقول
 والقرائح . لا قصيدة لشاعر مغربي تنشد ولا كاتب له رسالة تنشئ . واذا
 كتب احدهم يلقي الكلام على رسيالاته غير مبلت ولا محقق . لا غرو فالمغرب
 استعجم بحكم الفرنسيين كأن ليس فيه عربي ندبة . قتلوه بالجهل عمد
 عين نخلا من المدارس والمكاتب . ان الجهل اقل للامة من سلاح المتكفي
 وسهام المترمي . وما من بقضة بعد سبخة بغير دأداة المطابع التي قال
 فيها الامير عبد القادر « هي مدافع الفكر وفيها لبن الله المغذي للعقول »
 هلاً اتمم عرب الغرب بكلامه وفعاله فانه كان رب السيف والقلم . روحه
 اظلت المغرب ولا تزال حامية له حانية عليه . لم يبق لهم معقل بعده حيث
 غربت شمس المجد والسلطان . الا يذكرون جهاده وبلاءه وهو الفارس
 المتفرس والقائد المتحرس . الا يذكرون الدول الاموية والاغلبية والمرابطية
 والموحدية . نارت الفتنة فولت دولة الاندلس فامرضت بعدها تلك الدول
 واحرضت . طالما ارتعدت لذكورها فرائص الروم اذ كانت تقذف اليهم بكل
 فيلق ومرزاب . ويلمها زمرة فيها اجاز الفرنسيين البحر واستولوا على

حاضرة الجزائر . وكانت عليهم ان اميرها لطم و كيلهم بمروحة وقد تجاسر عليه في المجلس . شبتوا بفرصة لملك فرضة منها تدرجوا في البلاد حتى استبرأوها . فكانت نكبة المغرب من لطمة مروحة و كان الغرم بالغنم مجبوراً حرب الجزائر بطول شرحها ان تفصيلاً وان اجمالاً . فليس في هذه الطوامير مجال لمواقع التوابير . عصفت رياحها لو افح ونو افح فكان انتصار الفرنسيين اشبه شيء بالانكسار . تجعبي جيشهم فزقه الامير عبد القادر بالبطوة والسرايا . وقد تناوب على قتال البطل المغربي أشهر القواد وامهر المتقدمين . فغلبهم في الحرب والسلم بضرب ورأي فيصليين حتى استسلم اسيراً في خير سبيل جاهد عرب الغرب جهاداً رضي الله عنه والرسول . اولئك الابطال لا عار عليهم بما ضاق له الفضاء وحكم به القضاء . دون شرفهم ودينهم وحريتهم قاتلوا حتى ابلغوا النفوس اعذارها . وعلى قلة عتادهم وعددهم اعجزوا دولة معتزة وازعجوها . حاربوها مدة مديدة والبر والبحر مقلان عليهم في المرحى . فسمعت لبات خيلهم قلاعاً وحصوناً من الصخر والمدر وقابلوا مغيرين على الدهاليل مدافع نيرانها تدغفق مثل الالهاليل . فان كاد الاعداء يشفقون على فوارس يسفون سروراً من الطير أيضاً . كراً وفراً كانت تلك الحرب التي استعرت فاشتغرت . وكانوا يستطردون ليستدرجوا وينفضون لينقضوا على عراب مروات مبيقات . صار كل بيت حصناً وكل مكان مكنياً في حرب الابطال . والنساء كن يحمصن الرجال وينبلنهم ويجهزن على كل ريث . وبعد نفاذ ذخيرتهم بات نوى التمر حشو مضخاتهم وكوى الدور مرامبها . عثروا بعد ما نثروا الاشلاء على الشواكل واسخنوا عيون

الثواكل . ولم يسلموا مظماً من الارض الا بنهر من الدماء . كرب الفرنسيين
يعودون شماتي لولا كثرة العدد والمدد . فشهدوا للمرامين عن حريتهم
واستقلالهم بانهم ابسل البسلاء وافرس الفرسان . ولما تمكنوا من البلاد
شردوا الامراء كهجيرا هم من الشعوب وصغروا الكبراء . وارتكبوا
فواحش تمس منها النفوس وتحصر بها الصدور . فيما كان عبد القادر في
المنفى كان نابليون الثالث في الجزائر يقول « انا سلطان العرب كما انا سلطان
الفرنسيين » فرد عليه فكتور هوغو بقوله من قصيدة هجاه بها « ان انت
الا ثعلب مطلق وعبد القادر لث مقيد » ثم احتل الفرنسيين تونس
احتلالاً هيئاً لقاء الاحتلال الانكليزي لمصر . وقد نواطأوا على اقتسام البلاد
الاسلامية حصصاً حصصاً . ونابوا الى مرا كش بجيش مدام فبطشتها احوالهم
وخلعوا السلاطين . فاصبح خولاً لعروج افرنسة الذين ترفع آباؤهم عن
ملوكها . مرا كش مشطورة بين الفرنسيين والاسبان الذين انفقوا على
السلب واختلفوا على القسمة . فكل فريق ينظر الى الآخر ظلاماً
ويقول هذا نصيبي . اما اصحاب البلاد الشهداء فلا نصيب لهم الا من الجنة
والطليلان انفجروا على طرابلس الغرب ولم يكن لأهلها معدى . لغاية
أو لحاجة غرض الانكليز والفرنسيين عنهم اطرافاً . فصبحوا اعراباً لا مفزع
لهم ولا عصرة بسفين طفاف وخميس طحون . واكاروا عليهم بداهية لبساء
يتقفرون الآثار ويفيحون الدماء . لكن الفرسان المغاوير داسوهم بمسألهك
أنضى وهاسوهم بمخاذهم امضى . فكسروا ايديهم على المدافع واثارت خيلهم
نطاهام الكتائب . كانوا يتحدثون جسراً على الرماة ولا يرددون حسراً عن

الكماة . والاصيد العربي يسابق نفجات الريح ليسايف صاحب المدفع المرزيج
 فيعود من العظة والسيهوك وقد ذفت على الايطالي المنهوك . لكن الشجاعة
 تغلبها المناعة واللحم لا يصادم الحديد . لوما قذائف البوارج مرثعنة نثرالما
 وطأت رجل ايطالية ضفة عربية . بعد سبعة اعوام لم يتقدم المعتدون الى
 ابعدها من مداها . فهم على سيف البحر قبالة اسود مزججة ونور مزنجرة
 جاءت الايام المفرات فرمكوا يهاودون الغاضبين ويسترضون الحائقين
 وقد تأكدوا ان طرابلس الغرب عربية لا رومانية كما زعموها . خيست
 انوف الطليان فهي ميراث العرب وانهم خير الوارثين . الفرنسيين والاسبان
 والطليان يردون زيارات العرب في تلك الغزوات والهبوات . ان يكن لهم
 بأسهم فاين البسالة والمروءة والحلم والكرم . المفظون تهاوت شهاداتهم وتواترت
 فرياتهم فما حفظوا خطوطاً وقطوطاً . يغصبون العقارات ويخرجون اربابها
 بالشكل واليتم والترمل . وكما دخلوا بلداً لم يبقوا لاهله سبداً ولا لبدأ
 احداث الدهر ملكت اكف الحسان اعنة الفرسان . فهان الذين كانت
 عمائمهم تيجاناً وسيوفهم سيجاناً . من بسمل وحمل تكارم عن الرذيلة وله
 وجه كالوذيلة . وان ماضغ الشيع والقيصوم لامز من مبطان مرتخ وسكير
 ملتج . اذال الفرنسيين على افريقية يتقبون فيها وخلفهم اسابي الدماء
 وتبسطوا يحفرون الطرق ولهم سلائق حتى في المجاهل والمذاهل . فلا ترى
 هناك للاسلام الا زعماً فاشلاً وحظاً واشلاً . فانتكف القوم ونفروا في
 كل وجه لتقدمة جيش لا ينكف . واصبح الفارس المنجاد منجوداً ورأى
 الشرف القداس يداس . هذه حالة المغرب المتداس من ايدي العرب الى

ايدي الفرنسيين . ليتما عبد القادر يشهد البلاد التي هم يجمعها دولة عربية اسلامية كبرى . صارت اقطاعات افريقية يسرح فيها الجندي السبتي وتقرح الهينغ الفرنسي . فافريقية ليست لاهلها والاوزاع ينتشرون في حزنها وسهلها امساً الفرنسيين في الجزائر حتى كادت تفقد صبغتها العربية ونحلتها الاسلامية . واكثرها فيها البيع والديورة والقلبات امراضاً للاسلام لا إفراضاً للنصرانية . وانشأوا يفرغونها في قلب افريقي لها منه انقلاب وقلاب فوا أسفا على البهجة الاسلامية والبهشة العربية في تلك الربوع . الملحدون يخدعون المغاربة بقولهم ان افرنسة دوله اسلامية . وللانكليز مثل هذه الدعوى وجميعهم يتفضلون بحماية المسلمين . اي والله تلك نكارة افرنسة ونكيشة انكلترة عدوتين زرقاوين . تعتديان عليهم فتتقضان ممالكهم ثم تقولان اتنا دولتان اسلاميتان . ضحك الفرنسيين من المغاربة ببناء مسجد صغير في باريس الكبيرة . اذلك الجامع المبني من مالهم يرضيهم محرقين في اوطانهم ومفرقين ؟ وهل بني بماضب الفرنسيين عليه من الاموال والبلدان بعد صياحهم فيحي فياح . ساء الذين مدوا الثأطة بالماء لاطالة الاعماء والاعماء . فقاموا يشوقون المغاربة الى تشييد جامعة اسلامية في العاصمة الافرنسية . والمقصد منها ان يبتزوا اموالهم ويشغلوهم عن الحركات الوطنية والجنسية . بابعادهم عن مواطنهم يبعدون قلوبهم فالبعيد عن العين بعيد عن القلب . وفي باريس يلتقونهم افسد المبادئ ويحببون اليهم كل المساوي فيرق دينهم ويضعف لسانهم وتذهب الانساب والاخلاق والآداب . لقد ختموا على المدارس العربية وعوضوهم منها مدارس افرنسية . فالناشئة

المغربية هم مربوها تربية فيها الفساد والضياع . اشرب المغرورون حب
افرنسة فباتوا في ارضهم غرباء . انما العرق دساس والسلالة جذابة
فالا كثرون اليها منجذبون . وقد اعيى الفرنسيين امرهم فما استطاعوا تطبيعاً
ولا تطويماً . الغلام المغربي اذا راهق ينفلت منهم شبلاً مستأسداً . وبعد
ترك التبشير يرتد عليهم ناغراً الى قومه ناغشاً . ويهرب من مغل الاصابع
مقنع يريه قمر المقنع . وطالما كان لاسرارهم مدياعاً ولاسبابهم مضياًعاً . لا
يفتأ الفرنسيين يحملون المغاربة على احتقار دينهم ولغتهم ونسيان جنسهم
ووطنهم . وقد جعلوا يميزون البربر عن العرب ويفرقون بينهم لتأريث
التنافر والتحاسد . واهل المغرب يزاحرون بكونهم ابناء عرب ان عار بين
وان مستعربين . يزينون لهم ان يتصلوا من عروبتهم ويتصلوا بالفرنسيين
ويهنون الامر عليهم بقولهم صيروا فرنسيسا وظلوا مسلمين . لنا دنياكم ولكم
دينكم ودار البقاء خير من دار الفناء . هنا الصحارى والعيش الظليل
وهناك جنات غدا عيشها رغدا . جميلة قسمة الفرنسيين واكل منهم ظبية
دجال وسليسة رقطاء . الزخرف استغوى كثيرين من المغاربة فركبوا
الهوى مزرعنين . يرون اشياء مزوقة مخيشة فيحومون عليها فراشاً على شعائل
ولا يلمون ان تحت الصقال والدهان خبل الاذهان . يقول الفرنسيين
عمرنا وصلحنا وكرمى لاهل البلاد . ذلك تضليل فلهم وحدهم منافع ما
يعملون ولغيرهم مصة الوشل . اليسوا الملحين في المستعمرات الحاحا حتى
الحجوا اهلها الحاجاً . اليسوا الساعين في تغليب النسل الافرنسي الدخيل
على النسل البلدي الاصيل . اليسوا الموجبين توزيع مائة الف افرنسي كل

عام في المستعمرات . اليسوا الباعثين رباب الافرنسيات ليفتن رجال
الشعوب . ولا ينجل سياسيوهم من قولهم ان لافرنسة جيش رجال وجيش
نساء . كلاهما عامل في الخارج لمصلحتها والثاني اعمل من الاول . نعم ان
لافرنسة جيشاً جراراً من الرواهب والنواهب . والفرنسيس يستميلون
المغاربة ويستنزلونهم الى المصاهرة والمظاهرة . ابى الدين والشرف قطاباً من
دم القاتلين ودم المقتولين . وابت نخوة العرب ان يمس الاعاجم العربيات
الحرائر . يريدون من وصل الارحام ترويحاً لبناتهم وتعويجاً للحفيظة والعصبية
ولهم من الخلعة وسيلة لاستنزاف الدم والصحة والمال حيث يدعون
الارشاد والارفاق . ولم يكونا قط من قائد مدرب ذي حسام مدرب . ان
كاتباً خير من ضارب فلماذا يعلمون الشعوب بسيف جراز ومدفع جراف
اراهم بوقظونها من حيث يرقدونها ويحيونها من حيث يمتونها . تلك مواظ
تفرع رؤوسها ولولا غشي المحارم لما استفادت واستفاقت . القتل نصيب
المغاربة من الدولة الافرنسية ناروا عليها او ثاروا لها . فكما تورطت في حرب
طوحتهم معها فكانوا قاتلين دونها ومقتولين من اجلها . بعد تحريبيهم وتخريب
اوطانهم تسوقهم الى المعارك سوق الغنم الى المجازر . فما اتعسهم موتورين
يتسابقون الى الردى تحت سيوف الواترين . تلك الدولة استنجذتهم فأروها
حسن البلاء والوفاء . لكنها وقد عقدوا لها ميثاقاً لا تحل لهم وثاقاً . فهم من
حكمها لاهفون بالقتل والقهر والظلم والغصب . تبالغ حيفها حتى اوقفت
تونس بين السيف والنطع عشر سنوات . وعذبت زعيم احرارها بظلمة
وهي التي تدعو عاصمتها مدينة النور . تقتل عرب الغرب ثم تضرب عليهم

بعثا لتقتيل عرب الشرق . فالألى آسيناهم وآويناهم اخوانا يفتحون الشام
للفرنسيس ويجزون منارقابا وقلوبا . ورب امير جزائري اكرمنا مشواه كان
لهم في بلادنا رسيلا وصنيعا . وعلى حرمانه للسكنى والملك في الجزائر
رشحوه لملك الشام مخاصما ومزاحما . وكل حقه عند الفرنسيس في الجزائر
ولا حق له في سورية عند السوريين . ليعلم عرب الشرق ان في الغرب عربا
وان للعروبة جناحين مبسوطين على المشرق والمغرب . وقد خاف داهية
الفرنسيس شر المصير فقال يتحتم علينا ملك الديار الشامية لوقاية املاكنا
المغربية . وقد كان طمعنا في سورية رغبا فاصبح رهبا . الباغون في المغرب
يظلمون اهلهم وتضرب البشائر لهم في العشائر . فيحتشد الاغبياء لقوادهم
وامرائهم ويستقبلونهم بالزينات والمآدب . اماتت اللبوث في اقفاصها ام
صرعتها رميات قناصها . بعد هذه الحرب تطلب ابناء الشعوب وتطلعوا الا
العرب الغربيين . اتراهم خلعوا ثياب العروبة فلم ينفروا من الظلم كأن اكفهم
ما عرفت اعنة واعرافا . حاشا لهم ان يرضوا بما آباه آباؤهم فماتوا كارهين
للدنايا . الجزائر دامت حربها اربعين حولا فكان عربها امدى العرب . وقد
اعجب اعداؤهم بصبرهم على المكاره حتى عدوا قتالهم نخارا . فمن يكون
المغلوبون الذين يدعهم غالبهم ابطالا وقد رأوا منهم رمي الحدق وبك الحلق
وبسلاء الربف بطشوا بالحملة الاسبانية وامسروا قوادها ففزعت فلولها الى السفين
وبالسلاح الذي اعتدت به ضاربوها فالشجعان العزل ينتزعون من اعدائهم
سلاحا . لقد فعلوا فعل اجدادهم فتاح الاندلس في يوم البحيرة ولا بروج
لهم الا السروج . فما خسره الاسبان في تلك الوقعة اقتضى رده ثلاثة الاف

معركة في ثمانية قرون . وفتح العرب اسبانية في اثني عشر شهراً وملكوها
 دهرًا . ولفتح قطعة من مراکش قضى الاسبان اجيالاً ولم يحفظوها اياماً . وقد
 كان جيش العرب في وقعة الفتح عشرة آلاف وجيش الاسبان اربعين الفا
 فبهذه الفتكة العربية علم الاسبان ان هؤلاء الابناء من اولئك الاباء
 وبجولات الريفيين وصولاتهم كانت لهم ليال زائلة النجوم . وان هم الاعصائب
 يمحصرها الاعداء في بقعة ضيقة من جميع الجهات . وصدق موالي الاسبان
 من اخوانهم فتضاموا اليهم حتى نتموا . وحملوا اليهم ما تحت ايديهم وتواثقوا
 على الكفاح مصوبين الى الاعداء سلاحاً اخذوه منهم . ومن الكرم النادر
 ان بعض العرب حووا في منازلهم فرارين من المعتدين شردوا في الاغوار
 والانجاد . وقد كان الاسبان في الريف اهل بغي وخنا وغدر اتوا جميع
 المنكرات . فليتهم كان حسان المحض كراماً مع اكرم الخلق وقد خالطوهم
 عصوراً في الاندلس . الشعوب بزعمائها والجيوش بقوادها . وان الزعيم العربي
 عبد الكريم لأمدى من الزعيم التركي مصطفى كمال . هذا وريث دولة
 وجيش وخزينة في امة مدربة ومملكة فسيحة . وكان المدد والنجدة يأتيانه
 متواليين من الموالين لا سيما الروس . وذاك ريب قبائل لا مال عندها ولا
 نظام في قدة ضيقة من مراکش فكان يحارب بجند وعدة قليلين دولتين من
 كبريات الدول تسدان عليه المنافذ . ولها جيوش جرارة واساطيل طفافة
 ومدافع ودبابات وطائرات . والحكومة المراكشية وما تحت سلطانها في
 حوزتهم والاهلون يضربون الاهلين . تلك بسالة الامير عبد الكريم ورجاله
 وانها لبسالة عربية . لكن العرب في الشرق والغرب لا تزال جدودهم عائرة

لأنهم ليسوا بمتقين . فعبد الكريم كعبد القادر في سرعة النجاح وسرعة
 الفشل لأنهما فردان صالحان في مجموع فاسد . الفرنسيين والاسبان يتحرقون
 غيظا ويدعون الابادة الاحرار شذاذاً وقطاعاً . وقد رأوا منهم حمسا منجذنين لهم
 رمي يعبر الخيط في سم الخياط . فقالوا نحن في حرب كبرى تجاه اعداء متمرسين
 ينبغي لقتالهم كل الشدة والعدة . فالتأثر الشهم الغاضب للحق والشرف يدعوه
 الافرنج لاصاً وبغصون بذكره غصا . وما اللص الا المعتدي الذي يعد الاي
 عاصيا والمجاهد خارجياً . فاذا قام شعب يسترد ارضه المغصوبة جرموا وسجنوا
 وقتلوا ونفوا . فالسالبون يحسبون من المنكرات الذود عن النفس والبيت
 والاهل والوطن . ويكونون وهم قاتلون مبرئين القتلى المخروقة حرمة منازلهم
 ومواطنهم . تلك سخريه من الدين والحق والشرع يفور لهم الدم . فمتى
 يهرعون الى البحر او ثقلد الصحراء عليهم فتخفي منهم جسوما ورسوما
 الديار المغربية مريضة باجناد وانباذ جاءوها جماء الغفير . واهلها اشقياء بمطامع
 الاوربيين ومظالمهم لا يتداعون ليجلوهم كما تسحف الريح السحاب وتسفو
 التراب . فتظهر دعوة الحق وبصدق حديث الرسول القائل : لا يزال
 طائفة من اهل المغرب ظاهرين حتى قيام الساعة

١٩

طريقة المتغلبين كثيرة الانشعاب فليس لهم رحيل عن الشعوب
 عضلوا عليها واستأجروها معاومة فاصبح استجارهم مداهرة . وكلما غلق
 الرهن وانقضى الاجل نكروا لها وقالوا لم تنته المهمة . نحن على ثبار امر مفيد
 ومنا على كل امة رقباء . وأن بيننا وبينها معاملات ومصالح وقد جئنا لتعليمها

ونويلها . الامة رقية نفسها فليسيغوا لها غصاتها لتجد حاجاتها . والطبيعة
والضرورة تدفعانها الى المنافسة بالاعتداء والاكتساب . فلماذا نجي هاتيك
الدول بجند مشطب السيوف والوجوه . ورجالها يقولون نحن خليون من هذا
نخيرا نريد والاعمال بالنيات . اجل ان الاعمال بالنيات ولكنها بالنتائج ايضا
فمتى تقبح العواقب تقبح الامور . ويزعمون انه يشق عليهم جوا ومتوحشين
لثأنين فيقدمون على تهذيبهم حربا اذ يتعذر سلما . ان البشر خلقوا الوفين
قبولين فلا حاجة الى القهر حيث التشبه والتحدي اقرب للتقدم والترقي
لكن الطامعين يريدون البلاد وما هم للعباد بمريدين . رب متعجب سأل كيف
يحكم انفار اقواما . يحكمونها لانها في مسكعة من شوونها وهم على رشد
وهدي . اشعثهم تلمس ابصارها فلا يفرخ روعها لتستروح ولا يخلو جوها
لتستوضح . الفرد او نفر يحكم الجماعات بما له من العقل والرأي . فالفضل
للقوة النفسية لا للقوة الجسدية . ولولا العقل لكان البهيمة اشرف وافضل
لانه اشد واعضل . الا ترى الجسور يصطاد الاسد والنمر وبذال الفيل
والجمل . الناس طبقات بالاخلاق والعقول والاخلق الاعقل يسود ويسيطر
كذلك تسلط الاوربيون على شعوب فسدت اخلاقها وعقولها . ولقد دويت
وغويت باغفال الحكمة واهمال الحمية فتوريطها من تفریطها . الاخرى بنات
الاوليات فلترجع الى نفسها تعرف علتها . ما فقد قوتها العصبية الا من
فقد قوتها الادبية . فلو كان لها عقل لكان لها رأي . ولو كان لها رأي لكان
لها حيلة . ولو كان لها حزم لكان لها عزم . ما تحكم الاوربيون بالسلاح
فقط لكن به وبما وراءه من الاصابة والاصالة . هب تغلبهم كان بقوة السلاح

او ليس سلاحهم نتاج التفكير والتدبير . انه لا يجدي نفعا في ايدي رجال
 لا شجاعة فيهم ولا مراعاة لهم . كم فيلق فرت هاربة من كتيبة . وكم
 قليل جلب بخيله ورجله على كثير . مضاء المضرب من ساعد الضارب وزماع
 الامة من قوة الشكيمة . جرب عمر بن الخطاب صمصامة عمرو بن معدي
 كرب فلم يجد فيه ما اشتهر به من التصميم . فكتب اليه بلونا سيفك فكان
 العمل دون السماع . فاجابه يا امير المؤمنين ارسلت اليك سيفي وبقيت لي
 كفي . الامة هي الخلق الذي يربطها ربطا ويضبطها ضبطا . فتراها ممثلة
 في كل شخص من اشخاصها تمثيل الكلمات باجزائها . وكأنها باندماجها
 جوهر فرد كله البعض وبعضه الكل . فهي واحدة بهيئاتها وبيئاتها وكل شيء
 يجمعها ولا شيء يفرقها . ولا فوارق بينها وفواصل معها توسع المساحات
 ونشع المسافات . الخلق للامة كالاس للبيت فلا ركزة له ولها بلا هذا
 وذلك . فممتنع تأليف امة من طوائف استمازت اخلاقها وتربياتها . ولا
 سبيل الى التئامها الا بقوة تصهرها وتفرغها في قالب واحد . اذا فسدت
 اخلاق الامة لا تثبت لها دولة ولا تنفعها العلوم . لقد كان سقوط الامم
 من ضعف الخلق على كثرة العلم . وكان تأسيسها لدولها في عهد البداوة
 والامية . فالامة قوية ما حفظت عصبيتها واخلاقها واعلاقتها . وان عظمتها
 بدولتها لان الدولة ملاك الامة كما ان القلب ملاك الجسم ، اساس الدولة نبيل
 الخلق ودعامتها حسن التربية ، فاذا ساء الخلق والتربية ولت الدولة فيولت معها
 الامة ، قوة الاخلاق سودت اليونان والرومان والفرس والعرب ، واذ
 فقدوها فقدوا كل شيء وسقطت تلك الدول ، وما سقطوا الا لذهاب

الشهوات بالاخلاق والاهواء بالاحلام ، قال افلاطون « في اقبال الدولة
 تخدم الشهوات العقول وفي ادبارها تخدم العقول الشهوات » فعلى الامة التي
 تريد النهوض ان تخلق باخلاق اسلافها الاولين ، فان في خشونة المتقشفين
 فضائل ليست في نعومة المترفين ، فهي الى الخلق احوج منها الى العلم ، والجاهل
 الخلق خير من العالم الخليع ، حياتها في لسانها واخبارها وايامها فمن المبحث
 يكون المبعث ، وموتها من جهل لغتها ومآثرها وآدابها وانسابها ، فلو كان
 لعرب الشرق والغرب علم بالماضي المجيد لما ذلوا وظلوا اشتاتا ، كانت لهم دولة
 تشرق الشمس من جانب منها وتغرب في آخر ، وكان خليفتهم يقول للغمامة
 امطري حيث شئت فالارض التي تروينها يأتي الي خراجها ، ذلك نبأ بلغ
 السماكين ولكن اكثرهم لا يعلمون ، فوز الرجال والشعوب بالعزم والثبات
 والثقة والاقدام ، والجماعات تعلو وتسفل بافرادها ، والجيش تظفر وتفشل
 بقوادها ، رب رجل باقدمه قدّم امة ورب كلمة كانت وسيلة النجاح ، لكل
 امة رجل هو في سر ضميرها وعلى ظهوره موقوف نهوضها . ذلك هو الرجل
 جد الرجل ، ذلك هو المرتجى والمنظر الذي منه الخلاص والرشاد ، ولا راب
 لصدع حتى نتمخض به امرأة فتلده صغيراً كبيراً ، الرجل العظيم لقومه
 كالروبة للحليب لان روحه تمازج كل الارواح ، فالصينيون صنع كنفوش
 والعبرانيون صنع موسى والعرب صنع محمد ، كذلك الدولة اليونانية قامت
 بالاسكندر والعربية بمعاوية والتركية بعثمان والروسية ببطرس ، الانبياء
 والشارعون والغزاة قلبوا العالم وقلبوا في ايديهم حظوظ الشعوب ، وقد كان
 فوز اولئك العبقريين بعلو الهمم وشدة العزائم وبعد المنازع ، تضعف الامة

لعمقها بالرجال الملهمين والمتفوقين ، فلا تبحث عن علة اخرى وهي العلة
الوحيدة ، متى تلد نساؤها قوامها تشتد بعد الوهن وتعتز بعد الهوان ، فان
لها منهم تجرباً وتدريباً فقد كانت خبيتها من هيبتها ، لما اظهر الرسول العربي
دعوته نصح له اهله ان يرتد عنها ، فقال لهم لو وضعت في يميني الشمس وفي
يساري القمر لما عدلت وتحولت ، وفي ما كتبه الى قيصر وكسرى يدعوهما
الى الاسلام معظم الجرأة واليقين ، كان يستمد القوة من النفحات العلوية
والنفحات الالهية ، فينفخ في نفوس تابعيه وقد نفخ في نفسه الروح الامين
وما زال يماحل دون دعوته حتى بلغت خوافق السماء ومخافق النجوم
فدانت الملوك لعربي بلغ الاربعين وضيعا مجهولا ، وذلت الامم لعرب مستهان
بهم معزولين في ارض مقفار ، وخضعت عواصم الممالك لقربة صرحها كعبتها
كل ذلك من نفس هب على الحجاز فالهب فيه نفوسا ، ولما اجرى ابو بكر
بعثا على المدينة عارضه بعض الانصار قائلين : لا نفرق جماعة المسلمين
فقال ذاك امر عليه استقرت نفسي ، فلو رأيت السباع تخطفني لانفذت
بعث اسامة الى الشام ، وفي اليرموك هزم اربعون الفا من العرب مائتي الف
من الروم . وفي القادسية انتصر عبيد بن مسعود بالف رجل على جيش رستم
والهرمزان ، وطارق بن زياد فتح الاندلس باثني عشر الفا ، وقال لموسى بن
نصير لما اراد منعه من التوغل : ان ارجعن ايها الامير حتى اخوض بفرسي في
البحر المحيط . كانت غارة العرب على الاندلس تبتلع ابتلاعا وتقتلع اقتلاعا
وكانت خيلهم مظماة تملأ البلاد سهيلاً وضباحاً ، نصروا بالبأس والرعب
وقد هال السكان منهم غرابة الوجوه واللباس والسلاح ، فكانوا يقولون لا

ندري امن السماء هبطوا ام من الارض نجموا ، ظل القوط مجفلين حتى
اعتصموا بالجبال واضحت الاندلس خاصة للعرب ، وكانت همة موسى بن نصير
ذلك الفاتح العظيم فوق المتاعب والمصاعب ، فهونت عليه ان يصل الاندلس
دار الحرب بالشام دار الخلافة ، وان يحمل مخترقه لبلاد الفرنج والروم طريقا
يسلكه العرب من دمشق الى قرطبة ، كان مقداماً هاماً اذا ازمع صمم واذا
افترص يم ، فهم بان يتجاوز جبال برنات ويقتحم افرنسة وما يليها من
الارض الكبيرة ، حتى اذا بلغ القسطنطينية فتحها واتى دمشق على نهج قاصد
وفيما كان يتأهب للخطة الكبرى اتاه رسول الخليفة يأمره بالانصراف ، وما
كانت نفسه لترضى بملك الاندلس التي رآها لاوربة مفتاحاً ، فذهبت خطة
القائد العربي الاكبر التي صغرت عندها خطط القواد اجمعين ، ولو لم يكن
على قصد وموثق لما هم بها وجيشه لا يربي على اربعين الفا ، وان موسى بن
نصير من اعظم الفاتحين فهو قائد العرب الاكبر ، ومن الجحود ان لا يذكر
مع الاسكندر وحنبل ويوليس قيصر ونابليون ، فانه في كل غزواته لم
تنهزم له راية وقد عاد الى دمشق بجرّ الدنيا وراءه جرّاً ، لم يعرف بعض
الخلفاء قيمة الرجال والاعمال فحرموا العرب خيراً كثيراً ، غنت تلك الخطة
الوليد بن عبد الملك واهمه التغرير في بلاد قاصية بين شعوب متواصية ، ولو
اذن لابن نصير بمتابعة الزحف لمهد في اوربة مهيعا عربيا ، فقد كان للعرب
حينئذ قدرة على فتح اوربة في ذلك الاندفاع ، بعد موسى حاول ولادة
الاندلس ان يقصدوا قصده فارتدوا خائبين ، وذلك لان العزائم كانت قد
رقت والهمم قد فترت والفتن قد كثرت ، والليب يدري ان الحاجات

بالمطالب والامور بالمواقيت ، اطل العرب على افرنسة من الثنايا فهلم امرأوها
وهرعوا الى ملكهم كرلس قائلين : كئنا نسمع بالعرب ونخافهم من ناحية
المشرق فاذا هم مغربون من ناحية المغرب ، وقد ملكوا الاندلس على عظمة
سلطانها وكثرة سكانها ومناعة بلدانها ، وليس لاولئك المغامرين عدة
ودروع وهم جمع قليل ، فقال ان القوم في حدة بأسهم واقبال امرهم فلا
تصادروا سيلهم فانه لا يرد ، كلهم بسلاء لهم غنى عن الدروع بما بين الضلوع
وقوتهم بايمان يجب الموت اليهم ونيات تظفر الاقلين بالا كثيرين » اجل ان
قوة الامة بايمانها الذي يدفعها الى الاستشهاد في سبيل الحق والشرف ، وفي
ماثر الامم القديمة والحديثة مصاديق من جملة الاعمال ، لستان ما بين عرب
العصر الحالي وعرب العصر الحالي ، الامة العربية فسدت خلقا وخلقاً اذ ليس
في الاواخر مناقب الاوائل . فنسبة عرب اليوم الى عرب الامس كنسبة
الاروام الى اليونان والاطليان الى الرومان . الفساد يمسح الامة فيلذ الشجعان
جبناء والكيسون حمقى ، هاتوا ابن الخطاب وابن ابي طالب وخذوا ذاالوشاح
وذا الفقار ، هاتوا ابن معدي كرب وابن الوليد وابن العاص وخذوا القلزم وذا القرط
واللج ، هاتوا مثل اولئك الابطال وخذوا مثل تلك السيوف ، جيئوني
باشباه اولئك الرجال احثكم بامثال تلك الاعمال ، اروني انداد اولئك العظام
لاريكم نظائر تلك العظام ، ان قلتم هذا زمان وذلك زمان اقل وجد
النوابغ لمقتضى كل جيل وحال ، وان تقولوا ذاك سلاح وهذا سلاح اقل
الرجال توجد السلاح ولا يوجد السلاح الرجال ، العرب فلوا الجيوش المعبأة
وهم فصائل لا مراس لها ولا نظام ، وفتحوا البلدان المحصنة ولا حصون لهم الا

ظهور خيلهم ، وقد كانت ادراعهم الواح صدورهم وصدور الرجال امنع
 الحصون ، غلبوا اعداءهم اول بدء بما عندهم من شدة الحمية وصدق العزيمة
 ثم اخذوا الصناعة عنهم فحاربوا كل عدو بمثل سلاحه وظلوا غالبين ، فهدموا
 من الدول اقدرها واقدمها وبنوا اعلاها واوسعها ، وما كانوا وهم غزاة الا
 اعرابا جفاة قال فيهم عمر بن الخطاب : انا منهم بين السنة لداد وقلوب شداد
 وسيوف حداد « لا اصلاح للامة الفاسدة الا بشورة تمخضها مخضا ، انها
 تنضجها انضاج الشمس للثمار والنار للطعام ، وهي لها كمصليحة تذاب فيها
 الفضة لتصير خلاصا . فلتأخذ من قبورها لمهودها ومن خلودها لحياتها ، ان
 معادها ومفادها من القوة العصبية والقوة الادبية ، فاذا فقدت هاتين القوتين
 دبرت مع الدابرين وغبرت مع الغابرين ، فقل اللهم اعوذ بك من فساد
 الابدان والارواح

٢٠

كل ضعيف مسخر لقوي وكل صغير تابع لكبير ، فالصغر الى الكبير
 مجلوب والضعف من القوة مجنوب ، ومن الضعفاء حاشية للاقوياء او غاشية
 كأنها الطفاوة للشمس والهالة للقمر ، السلطة للقوة ان بدنية او عقلية او
 سلاحية او مالية ، فالاقوياء مسلطون على الضعفاء حتما وطبعاً من حيث
 يريدون ولا يريدون ، ولو خلدوا منهم لعادوا اليهم مدفوعين من الحاجات
 والغرائز ، النقص في الطبيعة العاجزة يطلب الزيادة من الطبيعة القادرة
 وبافتقاره اليها وانكاله عليها لا يجد استغناء وانفصالا ، ان الفطرة تغلب
 الفطنة فكل بسليقته عامل واليها راجع ، والبشر يخشعون للقوة ويخضعون

معجبين بما في مظاهرها من العظمت ، تنوعت القوى والسيادة واحدة فلا بد من سائد ومسود ، هذه سنة الطبيعة الازلية الابدية والطبائع اقوى من الشرائع . فجميع الكائنات تسلط بعضها على بعض لما بينها من التفاوت ، الله قوة والطبيعة قوة فهي عدوة الضعف لانها قوة مصدرها القوة ، وقد حكمت على الضعيف بالعناء والفناء لتحافظ على القوي الافضل المفضل ، فتمتعت هذا بخيراتها وطيباتها ومنعت ذلك ايسر ما فيها ، فالضعيف عدوها وعدو نفسه واهله والناس ، فهو مستأجر ومستعبد ومسخر بضعف ليقوي ويفتقر ليغني فمن فقر الفقير غنى الغني ومن ضعف الضعيف قوة القوي ، كذلك تعظم الانهار بالجداول والسواقي والسيول ، فالذي ليس له قوة بنفسه يستعمله غيره لزيادة قوته ، والضعف مدرجة لكل علة ان في الاجسام وان في الاحكام ومن القوة دواء لكل داء ودفع لكل عداء ، والضعيف وان يكن محقا يغرم الفاو ويرغم انفا ، فبحكم الطبيعة تغلب الاقوياء على الضعفاء وحكمهم بغير شرعة الانصاف ، لتعلمن هذا الشعوب المنكوسة في امورها ولا تطلب حالا تكاد تكون محالا ، ولئن رأيت شعبا ضعيفا غير مسيطر عليه فان له قوة بانفته وحميته وجيران حماة الذمار ، ومثال ذلك احدى الجمهوريات الاميركية على صغرها وقلها ، الشعوب المقهورة لا تحصل على رغائبها الا بالتنشط والانشمار ، والرغائب لاتأتي على اغتماض فالدنيا زحام وسباق ، والفوز لسرعان الناس اولئك المفلحين القائلين تلك عزماننا ، فالشعب الذي يطلب حقه صدقة لا يصون مهجة ولا حدقة ، هل رأيت متسولا عاد متمولا ، ومن لا يقر نفسه ما له من واق . فليدعم الحق بالقوة وليعزم ويخرج وشيكا لتكون

له تجربة من تجربة . الدنيا مع الصاعد على اقاعد ومع القائم على النائم
والناس اعوان للسالب والغالب على المسلوب والمغلوب . والقوي الجسور موفر
لانه واقر الجنان يخشى ويرحى . والذي تطير نفسه لما عالا يعبأ به ولا يبالي
فالاول يمدح ولو تشنع وله التبجيل والتودد . والثاني يذم ولو احمد وله
الجفاء والاحتقار . ما اطمع الغربيين في الشرقيين الا الخوف والضعف ولو
كانوا كالامير كيين لدحروهم وردوهم . هؤلاء انكفأ عنهم اهل اوربة لما
رأوا من ابائهم وبأسهم وتعاونهم . فاصبحوا بعد امتيائهم يعدونهم اسواء
واكفاء وخطراء . فالغربي الحشن الغليظ يزدرى العربي الشريف الظريف
وما هذه كانت حالته ايام كان لقومه ملكوت المشرق والمغرب . سقوط الفرد
من سقوط الامة وسقوط الامة من سقوط الدولة . فلا خير في امة لا تؤمن
ابناءها وفي دولة لا تحمي رعاياها . لا حق بالقول والعمل الا لاصحاب الغلبة
فالويل للمغلوبين . ماذا تأمل الشعوب المغلوبة على امورها وبطل الغالب فوق
حق المغلوب . انها الملمومة على خمولها وانحطاطها بعد ارتفاعها ونشاطها . فالدولة
العربية كان لها ميراث الدول وعروش الملوك الاول . فما زالت حتى فقدت
كل شيء مجرق السياسة وسوء التدبير . والدولة التركية عادت قوتها قوى
الدول الاوريات مجتمعات . وبعد ما كانت سلطنة البر والبحر عشت بها
دويلات كبر من ولاياتها . فما منعها من ان تجاريهن اذ لم تبقهن وقد كانت
البطاشة الغلبة . انلك ادوار ام اقدار يقف المرء امامها طورا عاذرا وتارة
عاذلا . ان الكوارث نتائج لاسباب من فساد الاخلاق والاحكام والآراء
حق القصاص على الاهمال والتفريط وفي قصاص عبرة لمن يعقلون . لا استقواء

للشعوب المستتفة ما لم تسكن ما ارتج وتقوم ما اعوج . ولا انتصاف
 للمظلومين الا باصلاح ما فسد وترويج ما كسد . الشعوب الاميركية ترتع
 في مواطنها آمنة حرة لا تعدو ولا يعدى عليها . وقد خلت سلطة الشعوب
 الاوربية بما عندها من قوة القومية والوطنية . وبما ان لكل شيء آفة من نوعه
 كانت بلية الآباء من الابناء . فابناء الانكليز والاسبان والبرتغال طردوا
 الانكليز والاسبان والبرتغال . وهكذا كان الدم دافعاً للدم والحديد ساطياً
 على الحديد . وقد حاول الانكليز والفرنسيين والبولندي استعماراً في اميركية
 الجنوبية فارتدوا خاسرين . فلارجنتينيات صنعن بالانكليز في اسواق بوانس
 ايرس ما صنعتها المصريات بالصليبيين في اسواق المنصورة . فكن يرمينهم
 بالحجارة والماء الساخن من اعلى السطوح . وتوالى الفرنسيين والانكليز الى
 المكسيك لتمليك الامير مكسيميليان النمساوي . ومأربهم من تثبيت
 الملكية فيها بالقوة القاهرة ان يجعلوا الديار الاميركية مراتع اوربية . فانتفض
 اهل المكسيك وشهامتهم قد ابت ان يخضعوا للملك عليهم قسراً وكرهاً
 فهكوا المتواطئين وكسروهم وقتلوا الامير المخذول رمياً . والزنج في جزيرة
 هيتي الصغيرة اوقعوا بالفرنسيين حتى صالحوهم على ذل وفشل . فاصبحوا في
 ربوعهم اصحاب سيادة واستقلال بعد عبودة واشغال . وجميع الاميركيين
 متضامنون في الذود عن اقطارهم فلا تجراً عليهم دولة اوربية . وان في اميركية
 جمهوريات صغيرة قليلة هي بسيادتها كالكبيرة الكثيرة . فهم اعزاء على قلة
 اغنياء على فقر اقوياء على ضعف . ولقد ساعدتهم احاظيم وجدودهم فنالوا
 استقلالهم هيناً ميسوراً . وفي بعض البلدان لم يسفكوا قطرة دم كما جرى

في البرازيل . فسلطانها بطرس الاول اعلن الاستقلال ولم يتكلف الا لفظ
 كلمته المشهورة : « الاستقلال او الاستقلال » . توفى الامير كيون الى التحرر
 السهل بضعف الحوامي وبعد الديار وقلة المعدات . وقد وافقتهم غزوة نابليون
 الاول لاسبانية والبرتغال فكانت فوائدهم من مصائب حكامهم . فمنذ مائة
 سنة كان الجند قليلا والسلاح قليلا ولم تكن قوة البخار قد ظهرت . فاين
 البوارج الشراعية من الدوارع البخارية : واين اللحم والعظم من الحديد
 والخشب . ناهيك عن الداكات دكا والراشات رشاً والطائرات طيراً
 والقذفات قذفاً . كل هذه اصطنعت لتزداد شقاوة البشر ويتصعب استقلال
 الشعوب . فلمقتحميها الفضل الا كبر ولهم اجر عظيم بعظمة الشهادة التي
 يتهافون عليها . فذا ثبتوا افاحوا ومتى نتم المقدرة نتم بها الامور . اخفقوا
 حتى اليوم لانفراد فئات عن فئات فكانت الحبية من الحركات المعتزلة . فعلى
 المحكومين ان يهبوا جميعاً في ميقات معلوم كما فعل الامير كان . وقد تعاقدوا
 وتواعدوا ليجيبوا الدعاء ويتعاونوا في الجهاد حينئذ يضيع المستبدون بين سعة
 الارضين وكثرة الاملين . ادراك الاوطار العالية يكون بالانفة والحمية
 والعزيمة والهمة . رب قلوب في اضلاع احد من سيوف في اغناد ورب
 حفائظ اشد من قذائف . لو كانت تلك الشعوب اية لما رضيت سلطنة اجنبية
 ولو اعتزمت لانتزعت سلاحها من اكف اعدائها . ان في قوى الارواح ما
 ليس في العواصف والقواصف

الماضية واهول . ما صلح الاوربيين الا كيد وعقدتهم الى حل و ابرامهم الى
نقض . انهم يطفئون نار حرب ويعدون وقوداً لاخرى فبعد هذه الحرب
حرب كبرى . وليس بامين من يخفر ذمة ويبحث بيمين . فهم ماشون على
اطمات وغيمة السلم التي يستسقونها زلالا ستمطرهم هيباً الجروح قد رمت على
بقي لان المدى كات مسابير . وما رأى العالم منهم اساة بل قساة بفتكون
ويبتكون لغيان الخمر في عروقهم . ولطول تضربتهم في الممارك اصبح لهم
شره النمورة بولغ الدماء . فايما يحلوا يستحلوا اما يزعمون قتلا بالموعظة وقد
برعوا في فن التعذيب كاجدادهم ورهبانهم . ولهم في العهد القديم آلات تمثيل
وتوجيه لم يعرفها الشرقيون الحكماء العلماء . ويحرقون القرى ويبلغون المراعي
والمزارع ولا تأخذهم رهبة في قتل المستضعفين والمستأمنين ، لقد كشفوا
اسرار الطبيعة فهم اعلم الخلق بمضارها ومنافعها . وان الطبيعة الحسنة مفدورة
ابدا من البشر القباح . لكنها ضاحكة من حقهم وضعفهم وقد علمت
ان المنازل مخازن المقابر . وما كانت لتشعر معهم او تأبه لهم وجنازاتهم
تتوالى في اعراسها . اجل اخترع الافرنج الات هلاك طالبين الخير
من الشر والنفع من الضر ، ولكن ما يقتلون به سيصيب منهم مقاتل
مجرورهم تشقى جميع الامم فهن ماشيات في ماتم ، الاتراهم
يصانعون بالسنة ذلق ويضرسون بانياب زرق ، وباحسن الكلمات يسترون
اقبح الغايات ويمارون ليحتروا ولا عارفة لهم معروفة ، لاصلاح بجبر على ورق
وفي الصدور الاحقاد والضغائن ، ولا رغبة في الصلح والصلاح ما دام الحكم
للسلاح ، ولا حرية حيث العيون تعصب والافواه فيها كأتهم ، ولا سكينه ما

سيطرت امة على امة وهضمت لها حقاً ، ان الصلح ما يرضى به الفريقان ولا يكون له طريقان ، وتوقيف الحروب بان يعود كل شعب الى ارضه غير طامع في صامت وناطق ، او يرضى المغلوب وقد اقتطع الغاب ارضه وانتهب ماله واتخذ رقيقاً . كلا انه لثأره حتى تغدو الربوع طولولا وتشكو السيوف فلولا . ان طالب السلم من الحرب لاضل من طالب الماء من النار . فليست المعاهدات في خرق مدرجة على حرق . ولكنها في اكف مسوطة وقلوب خالية من الحب والغش . لا تصلح المفاوضة الا بين المتساوين في كل حق وواجب . فالتاس الى التشاؤم ادنى منهم الى التفاؤل . فليقنط الصالحون والمصلحون ما دامت الكتبة وراء الكتيفة . في ندوة الصلح يأتمر فريق بفريق وما حبروا وخبروا اختلاف واختلاف . وعند مفاجأة الحوادث ستكون حيرة الحاسب والكاتب . وفوقهما سحابة من الشر تنذر بدمية من الدم هطلاء . فلا خير في صلح مضغوط فيه على الحق والحريّة والشعور والفكر . هذه مداخلة على دخل فلا بد للحرب من نشوب والمظلوم من نشوز . الشعوب ترهف اسياها لتمحوب بالصفائح ما خط في الصحف . وقد رأت كل صحيفة من المعاهدات اشأم من صحيفة المتلمس . فلا يكون القتال من خصم لخصم بل من مقهور لقاهر فهو قتال انتقام وفناء . تلك هي السياسة الاوربية التي تخدر الضمائر ونفطر المرائر . الاوريون يدعون تحرير الشعوب وهم عبيد تقاليدهم فليست اوربة ارض الحريّة بل اميركية الفتية . انها ضاقت على سكانها فضافت ارزاقهم فشرعوا بتوسعون . ومن هذا التوسع بالاستعمار الحربي كان شقاء البشر اجمعين . فهي كما قال فيها نابليون مفارقة

يقتل جرداها على حثوة من اجحارها . فتراهم يتنازعون بالحديد والنار
الداني والقاصي من البلدان . وبعد الحرب تلهي حكوماتهم رءياها بمستعمرة
كما تلهي الضواري بعقيرة . فما اوردت الا مسبعة وما نادي الصلح الا كوادي
الفرايس الذي قطعه المتنبى . فيه اجتمع دواهب ليتعاربو بسلاح الدسائس
والمكائد . وكل منهم يتظاهر بامساك النساك فيجد ولا يجرود ويعد ولا يعود
وما علم ان الشفار التي تقطع قربة من الشفاء التي تخدع . ولكن ماذا يخاف
دهري رغامته من الدنيا اللحم والذهب والحديد . واطما خضع المدية في
الجروح كما اجرى اليراعة على الطروس . اوائك الساسة يضحكون واما
قريب سيبكون اما لحة الامم التي زينوها فسخة اسقطتها الحرب شوها عوها
ان هي الا حباله ينصبونها للاغبياء وحبل يشدونه على المغلوبين . وبها يموهون
مطامعهم وقد جلموها للتفوق لا للتوفيق . فالنفع منها للامم القويات اللواتي
يتناصرن بها على الضعيفات . وكيف تدعى لحة الامم والغلات منتظمات فيها
دون المغاومات . فليست وايم الحق للامم بل هي لللاتين الانكليزية والافرنسية
هتان تفعلان ما نشاءن ومن حولهما للتصدق والتصويب تلك العصبة لم تقض
حاجة ولم تفي حقاً وكل ما صنعتها كان شراً . بها يتحكم الانكليز والفرنسيون
فهي منهم وفيهم . ولهم . وما يتطلبونه منها سيفضي الى ثورات غائلة وفتن
هائلة حسوا البشرية مطية فوضعوا لها من هذه الخدعة زماماً وشكلاً . وقالوا
لا تسمع شكوى ولا تقل دعوى الا برضى وتوسط من الدولة المنتدبة وهم
اهل الاتداب فمنتهى الغرابة كون المدعى عليه حكماً وخصماً ووسيطاً . لحة
الامم تسكت عن مذبة شعب وتصرخ لفرار جندي . وتخاف من طنين

ذباة وترمي الآمنين بطيارة ودبابة . الشعوب المظلومة رأت واسن رئيس
الامير كان رسول عدل وسلام . فما كان في اورية الا كمسيلمة في حديقة
الرحمن . املت ان يقضي لها يقضى عليها ومشى مع الظالمين . فطرحوا عقده
الاربع عشرة ظهراً وعقدوا صلحاً قهراً ، هذا مؤتمر الصلح وهذه عند واسن
وتلك لحمة الامم ، فحاديث الدعة الكاذب وبطلهم جعلوه بالقوة حقاً ، بعد
هذا الدمار والهلاك اهازئون هم ام هازلون ، الاكليز والفرنسيس يريدون
ان يسيطروا على العالم سيطرة ابدية ، ولولا الفوضوية الروسية لرزت عبودتهم
في الخافقين ، والفوضوية اصح كلمة تطلق على تلك البدعة الجديدة الرشيدة
فقد جاء في المكلم « قوم امرهم فوضى بينهم اي مختلطون يتصرف كل منهم
بما للاخر . وكذا يقال اموالهم فوضى بينهم اي هم شركاء فيها متساوون
لا تباين بينهم ، ولا يستأثر بعضهم على بعض فيها من اراد منهم شيئاً اخذه »
هذا تعبير مطابق لا زيادة فيه ولا نقصان وما كان غيره صالحاً . فاعظم ببدعة
لم تبق من خدعة وبها استقوى الضعفاء ومنها سيكون تحرير المستعبدين ، انها
القاضية على البؤس والظلم اذ بها يتساوى الناس بالحقوق والارزاق ، ولقد كان
ظهورها كظهور الاسلام ورجالها كرجالها اصحاب ايمان وثقوى ، ثلوا عرشاً
جلست عليه امرأة وراهب وحطموا التقاليد بما القى اليهم من المقاليد ، ومزق
جندهم جيوش المناوئين كما تمزق الريح ارجال الجراد ، فشباحهم تطول وتطل
على الدنيا ورسم كل منهم قذى في عيون المبغضين ، لقد عارضوا الفوضوية
بكل ما عندهم من الحججة والقوة والمال ، واضرموا لها في الداخل والخارج نيران
ثورات وحروب فما كانوا الا ليزيدوها اقتداراً وانتشاراً ، وفي بغضهم لها

حببها وانها المذهب الذي سيغلب العالم، وحاولوا خنقها في مهدها وانقرضوا على
لحدها فجر فهم سيلها وجرف الذين تبعوهم من الغاوين . ابدأ يشنعون بها ويتهمون
انصارها ويدعونهم وحوشاً بيضاً ، ويقولون نخاف على المدينة الغربية من الحمجية
الشرقية التي يفتح لها الروس باباً الى اوربة ، ولم يكن خوفهم من هجوم المشاركة
بل من خلاصهم وقد هالهم اعلان الفوضويين لخطتهم في تحرير الشرق ، المعضلة
الشرقية علة الحروب لما بين الاوربيين من التخاصم والتنازع ، فهم شاقون
بالشرق ومشقون فمتى يصبح الشرقيون اصحاب اوطانهم تبطل الخصومات
والدعوى ، اطمأ الشرق في ثورانها فليخشوا فورانها الذي سيجعل ما شادوه
وما شدوه حطاماً ورماداً ، وما كان غوث الشرقيين الا من الروس ولاغيث
الا من ذلك الغيم ، المنفعة كبرى من الفوضوية للترك والفرس والافغان
والصين واما العرب فقد فاتتهم جميع المنافع ، فالمظلومون لا امل لهم الا من
الفوضوية التي يحبون بجاتها ويموتون بموتها ، وهي الظافرة المنصورة من اجل
الحق والعدل والتسوية والحرية ، فلا احرار ولا محررين الا الفوضويون
الروس وقوتهم من قوة الدعوة القائمون بها ، ولصونها وتأيدها ضربوا بعدما
كتبوا فكان السلاح صلاحاً ، فقبح الفرنسيين ثورتهم ايما تقبيح وليس فيها
ما في الثورة الافرنسية من التفجيع والتفطيع ، وفي اعتناق الشعوب لها عفا
دليل على صحتها ولولا تضيق الحكومات لامت الورى ، فمن كان يقول ان
انوار الحرية تسطع على العالم من ارض العبودية ، وان الروس الذين ثقلت
مغارهم يطارحون اثقالهم واثقال البشر ، فيبشي العميد منهم حاملاً للظالمين
حساماً وللمظلومين سلاماً

كان العرب اسوأ الخلق حظا لاثمتهم وانخداعهم بما فطروا عليه من سلامة النية وطيبة السريرة . فالانسان يقيس الناس على ما في نفسه من الفضائل والرزائل . مشوا مع حلفائهم صادقين فكانت كل المخالفة من تلك المخالفة . وبعد ما نصروهم جاءوا يقسمون بلادهم فكان اقراضهم مقراضا قال الانكليز ليس للعرب الا الحجاز فلنا العراق وفلسطين . وقال الفرنسيين لم تكن سورية يوماً عربية فهي انا منذ الازل والى الابد . وكل هذه البلاد مواطن العرب وهي موطن واحد لا شريك فيه ولا قسيم . ينكر الاجانب والخوارج تسمية سورية والعراق ومصر والمغرب اقطاراً عربية على عروبتها بكل شيء . ويدعون امير كية الجنوبية امير كية اللاتينية والفرنسيين والطلليان والاسبان والبرتغال شعوباً لاتينية . وما تلك اللاتينية عندهم الا ضعيفة بازاء هذه العربية عندنا . العرب اخوان وجيران يعرفون الحدود وينكرون الحدود فما نكب معشر منهم في بلد الاتفجع له معشر في آخر . ان العروبة صبغة لا ينزعها الزمان وصلة لا يقطعها المكان . وان كلاً بحكم الطبع يرجع الى اصله واهله ليعلي الاخلاق ويغلي الاعلاق . جميع الناطقين بلسان يعرب في آسية وافريقية ابناء امة واحدة . وخير ما يسعون اليه انضمامهم تحت اعلام عربية مظفرة . فما اجتمعت قلوب امة على الولاء مثل اجتماعها في ظل اللواء فيؤسسون دولة او دولة عربية تسترد الارث وتجمع الشمل وتحفظ النسل وقد اتيح هذا لاحقر الشعوب واصغرها والعرب ممانعون على الكثرة والعظمة نحن عرب اولاد عرب فلا ينتظر الاعاجم منا جعوداً . نريد ان نكون في

المشرق والمغرب امة ودولة عربا مشتركين . لقد غشوا ارضنا وغشوا اهلنا
 فشقينا باستبدادهم وضيقنا ذرعا . وابتدأوا بهم الا ان تخرج اعناقها ومدافعهم
 الا ان تبرز خياشيمها . فنحن مبيعون مروعون بين حشوة قذاف ورشوة
 صراف . يعاقبنا الذين واليناهم ولم نعط نعمة ونقترف ذنبا . ويتقاضون
 حمدا على المساءة وما اريناهم الا احسانا . هكذا بين المديون على الدائن بالفائدة
 وقد نوى اكل الاصلة . فيشتفي الذنوب بقوله للغريم تخسرني مالي فاخسر
 شرفك . حبذا لو يفعلون ما قالوه فقول الشريف حجة . وحبذا لو ينجزون ما
 وعدوه فوعد الحردين . فنبذل الحذر اذن من الثقة والمقت من المقة . ان كانوا
 قد خلصونا فلا يذهب التفضل بالفضل والمن بالمنة . وان كانوا محسنين الينا فلا
 يطلبوا اجرهم ويحسبونا اجراء . ان للحسنات اجرا والمعروف مكافأة وقد
 حسبناهم مساعدين لا متاجرين . لم يكن بنو الاصغر وعباده احلا فانا واعوانا
 انما اكرهوا على قتال الترك اشفاقا على انفسهم لا شفقة علينا . وما كانت غارتهم
 غيرة فلدفع الشر عنهم صنعوا لا جلب الخير لنا . ولو كان الترك عصابة معهم
 لظاهروهم علينا وزادوا قيودنا ثقلا وعضا . ولو سالموهم لما اعترضوا . وطالما
 تلقوهم ووعدوهم بحسن الجزاء على الحياد . ما كنا سواما ببيع او متاعا بعار
 لننتقل من حكم الى حكم . ابى الله ذلك لعباده وقد سوى بينهم وجعل
 خلقهم سويا . وفسح الكون لهم ليسبحوا احرارا خفافا في النور والنسيم . فلا
 يخادعوننا بقولهم نود ان نحملك ونرعاكم والكم منا هداية وجدوى . ان
 الذي فوقهم وفوقنا يحميننا ويهدينا ولنا في السعي الى الخير والصلاح حسن
 القدوة وصدق العزيمة . ومن علومهم وفنونهم نأخذ ما يوافقنا ولهم جزاء

وفاق . ولنا الخيار في طلب الارشاد والاسعاف نقبل ما نشاء ونرفض ما نشاء
 قصدوا سوربة ليملكوها لا لينقذوها ففرقوا القلوب التي فيها الشقاء
 وطفقوا يتنازعون ما انتزعوه كأنه طعمة الآكل وفريسة الخاطف . فليت
 السوريين تحرروا بسواعدهم لئلا يسمعوهم ثمنين مساعدتهم . اذن لمات فريق
 شهداء وعاش فريق احراراً . لقد فاتهم وفات الترك وسائر الشرقيين فرصة
 يبكي عليها . فبالحياد والوفاق كانوا يستطيعون ان يتقووا من حيث يضعف
 اعداؤهم . لكن السياسة الخرقاء جرت عليهم كل هذه النوائب . فما كان
 ممكناً في عام اصبح ممتنعاً في اعوام : جاء المتفضلون يتحكمون بهم ويستوفون
 صدقتهم ديناً . والجيش الذي احتل كان منه بدعوى التنظيم ما اختل . ولم
 يرعهم ما شهدوه من الحداد والخراب على قبور مفتوحة وطلول مفروشة
 بالاكفان . فشهداء العرب السوريين نائمون تحت الثرى والغرباء يقلقون
 الاموات ولا يكثرثون للاحياء . فما اشبه السوري الشهم بمحمد بن صمادح
 صاحب المرية في الاندلس . فاضت نفسه جزعاً عندما نازلته محلات المرباطين
 فقال وهو يسمع رطانتهم في النزاع « لقد نعص علينا كل شيء حتى الموت »
 ففي هذه الحالة الرحمة للحي والغبطة للميت . ونحن كما قال المتنبي اهل منازل
 ينق فيها غراب البين أبداً . وقد حكم علينا الحظ الاعمى والعدل الاعرج بان
 ندوم حادّين محزونين . وانما الحداد في القلوب لا في الاثواب كيف يطيب
 لنا العيش بل كيف لا نعص بلماً لم رأى الحراب الاجنبية في ديارنا . السلاح
 الاجنبي للعداء والتذليل والسلاح الملى للعداء والتعزيز . هذا لكبر النفس
 وذالك لصغرها . فرحم الله كل نفس حرة تفضل الموت على هذي الحياة ! الا بي

الجمي يذوب كدماً لم رأى جند غريب يجر في ارضه سلاحاً معداً لتقتيل قومه
وتدمير وطنه . وليس لهم جند يدفع الشر بالشر ويرد الضر بالاضر . تالله ما
لهذا مات الشهداء السوريون !

٢٣

ما كان اتعسنا بسورية التي تجمعت فيها الطيوب والطيبات . فليت الذي
بدعها فاحسنها بالذين استوطنوها احصنها . ان جمالها يضري بها الغرباء فيضر
بها والجمال مطموع فيه . فلهم هذا الوطن المحبوب و كدنا نحرم فيه المأوى
والثوى . وقد تكون شقوة المرء من حيث يسعد فيها انعم الله علينا اشقانا البشر
ارضنا يتنازعها الاجانب وما كانوا ليخسروا شيئاً في ارض لا انتفاع لهم بها . لم
الجدال والخصام وسورية لنا وفيها ييونا وقبورنا . وعليها كان دمنا مسفوحاً
ودمنا مسفوكاً . وكفاهها ما عانت من الظلم وقاست من الاضطهاد . لقد فدحت
نكبتها حتى صارت الارض حديداً والسماء نحاساً . ولا يزال في ذكرها
ما يمنع العيون كراها . طلبت حريتها غالية فكان ثمنها دم الشهداء من
الجاهدين والمجاهدين . فعظامهم بارزة من الثرى تشهد لنا امام الله والناس
والحق للذين احبوا الفدى لا للباشين مع العدى . الدم الجاري في عروقنا
بغلي غليانا بحب سورية العربية . وانه لدم عربي محض وقد كان طاهراً زكياً
و كفى بصرخة الابطال ثبتيماً لما في النفوس الابية . بها قابلوا الموت فصداها
يرن ابدآ في الآفاق والاجيال . من اجل العروبة مات الشهداء السوريون
وبدمائهم كتبوا حجة حبها وحقها . وشهدوا ان لا قومية الا العربية فكانت
كلمة شهادتهم كصلاة عبادتهم . فما اعظم قولهم امام الموت : نحن عرب

فليحيي العرب ! . كان للعرب قبل الاسلام الدولات الحورانية والغسانية والتدمرية . وكانت هذه البقعة المباركة مصدر الدين والمدنية . فهي مرآة السماء وجنة الشرق واجمل المواطن طراً . لا سماء تباهي سماءها ولا ارض تضاهي ارضها . ولحسن الخضراء والزرقاء فيها وفي الشرق كان الشرقيون انبياء وشعراء وفلكيين . فالشرقي ينظر الى سمائه الصافية ويستمد الوحي والحكمة . والغربي لتكدر سمائه يبحث في الارض ليستخرج حديداً . حبذا ارض الشام من وطن فيه مرقد الآباء ومرنم الابناء . ولهم سهولها وجبالها وسواحلها التي تنظم المدن والقرى عقوداً . فمن اطل من على شرف تبدت له اجمل الشواطىء والمرافىء . فتذكر عواصم قديمة وزعت تجارتها وحضارتها على العالم فتمنى تصبح ثغورنا مراسي لسفين عربي يحملنا ويحمينا ؟ فنرى بوارج تغنيننا من التجارة وترد عنا الغزوات . ان تكون للإجانب هذه الارض المقدسة ونحرم من نهرنا وبحرنا ريفاً وسيفاً . فالمرتبة ابسر من ان نعيش اذلاء محرومين في بلادنا . واننا انصبوا الى الحرية وقد صرنا عشاقها واستحلينا مذاقها . الوطن بيت وساحله باب فاذا سد اصبح قبراً . كل شعب بعدت ارضه عن البحر يطلب في ارض جاره مخرجاً ومفرجاً . ولارضنا اجمل المرافىء واخطرها ونحصر فيها حصراً ، فيعطى غيرنا ما ليس له ونحرم كل ما هو لنا . لا يعيش في امن وخفض وعز من لا يطمح الى الحرية والاستقلال . ولو عرف السوريون قيمة الارض التي تحملهم لاستحبوا الموت حباً لها . وما الذم الموت عند منعهم من السيادة والقيادة . حفاظهم على امل وضعف خير من تسليمهم على خوف وقنوط . وفي جهاد الحرية لا شرفاء الا الشهداء . الا سلمت ارض الشام

بما ثلثت من سيوف العرب . فدونها دم ولهب من صوارم خالد وابي عبيدة
 وعمرو ويزيد . وظل عمر ومعاوية ممتدان عليها من القدس الى دمشق . وهي
 موطن الشافعي والبحري والمعري وابي تمام وابي الطيب . وقد اظهروا لها
 في اشعارهم محبة وعصية تذكيران الضلوع وتنديان الجفون . الفيحاء اكبرها
 ملك العرب واطربها شعرهم فهي اليهم حنون والشهباء تذكروا عهد سيف
 الدولة فتشاق شعر المتنبى وابي فراس ، وكل مدينة في سهول سورية وسواحلها
 تصبو الى امرائها وشعرائها . فما يكون والشام قد اصبح في حوزة الاجنبيين
 وهو العراق الرأس والقلب من جسم العروبة . الشام عربي والعراق اعراب
 وهو العراق العربي وفيه الخيرة وبغداد . ولا تقوم دولة عربية الا في احد
 هذين القطرين . ارواح الاجداد تنزو حانقة من عالم الخلود . وعظامهم تتألم
 لوقع الاقدام العجمية في الامصار العربية . هذا التراب فيه ترب الملوك من
 الغساسنة والمناذرة واجداث الخلفاء من الامويين والعباسيين . وفيه رمم
 الابطال والاولياء والشعراء والعلماء والشهيدون . فلو كان في الصدور
 قلوب وفي الاغداد اسياف لابت الشهامة والفضيلة هذه الوطاة الثقيلة . ان
 للاحياء قوة اذا سلكوا سبيل الذين هلكوا . فكيف لا تكون لهم ارض
 شربت دمهم ودمعهم وعرقهم عصوراً . فهلا تحاشد العرب لينوا دون الشام
 والعراق سوراً . ان فيهما عصبيتهم ولقمتهم ودينهم وآثارهم وامجادهم فلا اعز
 مما يفقدون . ان دم الخلفاء لتحرك تحت اللحود واطياهم تلوح على الاطلال
 ما استشهد السوريون والعراقيون الا لينوا على رقابهم وشفارهم مملكة عربية
 كبرى . وقد كان الجيش العربي مؤلفاً منهم فقاتلوا لتحرير البلاد العربية .

لا لاستقلال الحجاز فقط . فلاجل العرب اجمعين استقتلوا وكان وطهرهم ازفع
 لملك اوسع . ولولا موالاتهم للانكيز لما جلا الترك عن سورية والعراق
 القبائل العربية سهلت لهم ومشت معهم فكان لها فضل في كل الانتصارات
 وقد شهدوا بذلك على مسمع من العالم وكانت خشية الترك من اسودمرابضها
 البوادي . فسورية والعراق فدتها دماء السوريين والعراقيين . وان هما الا
 موطنان عربيان عروبتهما قديمة بالفتح والملك والحرب والنسل والشعوب التي
 نالت عليهما عارية خرجت من جزيرة العرب . فالعراق عربي من عهد حمور
 وسميرة الى عهد هارون وزبيدة . والشام نشأ فيه دولة تدمر التي اضطربت لها
 رومة العظمى . وعليه جر بنو غسان ذبول الملك اربعة اجيال . وما بعث
 عمر بن الخطاب العرب الى فتحهما الا لعلهم ان هناك اخوانا لهم ينصرونهم
 فسلاما على بلدين كالفرقدين وعاصمتين لخلافتين

٢٤

كان فتح الشام الثاني على ايدي العرب كما كان فتحها الاول . لكن الفرق
 ظاهر بين الفتحين فاين هذا من ذاك . كان اهل الشام في الفتح الاول
 يكرهون الروم لانهم ظلام وغرباء . فخلعوا ولاتهم عند وصول الفاتحين
 واخلصوا لهم لما رأوه من حلمهم وكرمهم . وفي تلك الغزوة المجيدة لم يقاتل
 العرب الا الحامية الرومية . وكان قوادهم يخدعون ولا ينخدعون وخلف
 الحيلة المقدرة . فلما تقابل للمفاوضة عمرو بن العاص وقسطنطين بن هرقل لم
 يتفقا فقال له عمرو : لكم وسيلتان اما الاسلام واما الجزية . وكان الامير
 الرومي يأمل ان يخدع الامير العربي وقد ظنه اعرايا غيبيا . فتأكد انه ادهى

منه ومن ابيه ونجا بسفينة الى القسطنطينية، وفي الفتح الثاني زحف العرب الى الشام مغِيثين ومنقذين . وقد همهم تحرير اخوانهم واوطانهم وحقن الدماء والدموع . فاسقط ظفر الجيش العربي سيوف النعمة من ايدي الظالمين . وما زال المظلومين يتطلعون حتى طلعت راياتهم فقالوا لنا البشري . ولولا نجدة ذلك الجيش الباسل لفني اهل الشام فهو الذي ادرك بقايا المهج . وكان وجوده في عاصمة الامويين كافياً لبسط الامن ورد الامل . لكن المفسدين تمادوا في تعييره وثنيصه ليكرهوه الى الناس . وهذا جزاؤهم المذين نصر وهم على الالمان في الغرب وعلى الاتراك في الشرق . ومن حسدهم حاولوا اجحد فضله واغفال ذكره وستر حسناته . اما المنصفون فاثنوا عليه معجبين بالبسالة والشهامة . فمن يصدق انه اساء الى اخوان فرشوا طريقه بالزهر ورشوا عليه الدموع والعطور الجندي الافرنجي قد تردعه القيادة والجندي العربي ناه من المروءة . والعرب يشهد لهم ماضيهم بحسن السلوك والمعاملة كما يشهد لهم حاضرم . فقد كان جندهم مثال السباحة والعفة في فتوحات الاسلام . فكيف والعالم اليوم ناظر اليهم وامامهم دول متمدنة لها النصر والفخر بمخالفتهم . والشواهد جمة على فضيلة الجندي العربي برواية الافرنج انفسهم السوريون فتحوا قلوبهم لذوي قرباهم قبل ان فتحوا بيوتهم . وقد عادوا بعد الجهاد ليجمعوا شمل المواطنين في اجمل المواطن . فضمت سورية عربا الى عرب و كان فتح العواطف اعظم من فتح القواضب . تعاطف الاخوان في اليوم المشهود فقال الاقوياء للضعفاء . جئنا نواسيكم ونقويكم ولا قربى بيننا الا العروبة . هذا دمعنا وهذا زادنا وهذا جندنا ودمنا من قبل ارقناه « طالما ترقبت سورية قدوم اولئك الانجاد وقد

خرجوا اسودا من اغيال . فساروا من نصر الى نصر ومن فتح الى فتح حتى
 وقف العالم مدهوشا . وما كانوا ليرهبوا آلات الهلاك فقابلوها بصدور وقلوب
 من حديد . وقد علموا ان لاسيف آية تمحو آيات القلم . النهضة العربية سيل
 جارف يطم على الحدود والسدود . فلا مرد لكوا من تتفجر وعواطف تتسفر
 وفي الشرق والغرب تتردد صيحة حي على الفلاح فتوقظ النائمين وتشوق
 الناهبين ، والارواح العربية تتجاوب وتتفاهم وایمانها حب الوطن . منذ الفی
 سنة خفق العلم العربي في سوربة ، وعاد الى الخفوق في جوها ليعيد دولة كانت
 زينة الدنيا . هذا العلم الشريف مرسوم على آفاق العيون وحبات القلوب
 والعرب محيطون به يضمون عليه الجوانح ويفقدونه بالنفوس والنفائس . اليه
 شخصت ابصارهم وعليه انعقدت آمالهم وقد نشروه حبا وطوعا فافترت له
 الثغور . وانه لعلم مجيد تحف به الاملاك وتحرسه الفرسان ، وسيخفق بما تحته من
 القلوب الخافقة ما دام فيها ارماق . لا حياة لنا ولا قوة الا به ولا انس لارضنا
 الا بالوانه . تلك الوان انزلت نعمة من السماء لتحل رحمة على الارض
 سوادها من خطوبنا وخضرتها من آمالنا وبياضها من صنائعنا وحمرةا من
 شهادتنا ، فعليها من ماء العيون ودم القلوب آثار لا يمحوها الزمان . وان ظلها
 يمتد لتجميع الاوطان وتوحيد السلطان . فغاية المنى ان نعيش ونموت احرارا
 تحت الراية العربية . وكل عربي فيه صبوة عليا كما ان كل موجود فيه شعلة
 ومضاء . وما القوة المنتشرة في سماء الوطن الا كالقوة المنتشرة في الفضاء
 لتحيي المخلوقات وتمرر بها وتصل بينها . نعم كل حياة مادية آخرها خيبة
 وفشل لكن الروحانية للدوام والنجاح . وان للعرب املا قويا كبيرا في الحقارة

والصفارة . فكلم نجمة في اعلى السماء ترمى ساطعة في لطف من الماء

٢٥

لم يكتف المعتدون بقهر عرب الغرب فجاءوا يقهرون عرب الشرق
 فاهل الشام والعراق نعساء كاهل مصر والمغرب ، فثلمهم مثل اسود تلتقف
 الافراخ وتخرب الاعشاش ، وقد اجرموا بدخول هذين القطرين وعاقوا
 سكانهما عن تحقيق آمالهم ، فلو ظلوا مندفعين بحريتهم لساووا اشواطاً في
 تنظيم دولتهم ، جاء الاجانب يرجعون البلاد الى اسمائها واقسامها القديمة ليمحو
 آثار العروبة ويمنعون التحامها ليستطيعوا التهامها . وقد اتخذوا صنائع من
 الخائنين اعداء الامة والوطن . وطالما ثبتت دول امام جيوش وسقطت بخيانة
 رجل او نفر . بخيانة ابن العلقمي هدمت بغداد وذهبت بخلافة وسلالة ودولة
 ومدينة . وان ابناء العلقمي بيننا لكثيرون فهم يقطعون حبالا ويرمون نبالا
 ولولا ذلك الفريق لما تسنى للغرباء التقسيم والتفريق . فالعدو الخارجي اهون
 شراً من عدو داخلي يكيد لآخيه وجاره الجنب . ما اشقى السوريين الاحرار
 بالسوريين العبيد وهم منهم بين وبلين . اولئك الذين يماثلون الاجانب
 يفتخرون بان يكونوا مماليكهم ويخدموا صعاليكهم . فيا لضيعة المروءة في
 من يفضل الغريب على القريب . فيدعوه الى سكنى ارضه وقهر قومه واكل
 زاده ويقنع منه بالفضلات . ان هذا ضد الطبائع والغرائز فالطير والوحش
 تذود عن اوجارها واو كارها . وما كان الخائنون الا عاملين في الخفاء خوفاً
 من العار والعقاب . اما خونة السوريين فيجاهرون بخيانتهم وربما يفاخرون
 وسيكون ندمهم شديداً عندما يرون الناس داخلين في مذهب الحق افواجا

وكان حمادهم ان يخلصوا المواطنينهم وينضموا الى جيرانهم ويعيشوا آمنين
 امناء . ان في ذلك راحة لهم وقوة وفي غيره الضعف والعناء . ولكن الدولة
 الفاتنة تخدعهم وتغريهم فيروا سيئاتها حسنات . وتزرع العواطف الوطنية
 في قلوب ابنائها وتعلمها من قلوب ابنائها . وتجدد الدين وتضطهد الكهان
 في بلادها وتظاهرها به وتحميمهم في بلادنا . فكل ما تراه رديثاً مضرباً تريد
 ان نراه جيداً نافعاً لنا . ولو علمت ان مريديها الاميون والمخشون والمتزلفون
 لودت ان تكون مكروهة منهم . ليست بجاهلة لكنها تسمع دعواهم لما رب
 وهوى وفي سرها تحتقرهم وتحترم مقاوميا الشرفاء ، واهون الناس من صداقته
 لا تنفع وعداونه لا تضر . فما كان ابطأها عن النجدة واسرعها الى الفتنة
 وكان على المدعية تضليلاً انها جاءت للمعونة ان تحقق الدماء لا ان تتعثر
 بالاشلاء . فاغاثتها لم تجد نفعاً والمصيبة قد جلت والبلية قد حلت . بعد
 الخراب والهلاك تباكى على الطلول والقبور والاغبياء لا يفتنون . فختام
 الاكاذيب والاراجيف والماكرون يشوهون الفضيلة ويموهون الحقيقة . فلا
 احسان عندهم الا من اللسان وقد اتوا لتفريق العباد وتقسيم البلاد . سيبدو
 عار الجبانة والخيانة فيبكي اهل البطل دماً ويموتون ندماً . الخوارج بيتنا مطايا
للجانج يوالونهم خارجين من العهد والقربى والوطن . ويتبرأون من العروبية
 وبقاؤهم حتى اليوم كان بفضلها ، هذا شيء مثل الكذب لكنه صدق . وما
 كره افرنسة الى الاحرار الا حب العبيد لها بنيات رديئة لغايات دنيئة . فبعد ما
 كانوا يدعون لها صاروا يدعون عليها . وقد كان خيراً لهم ان يقضوا
 الجلمد من ان يكونوا عبيداً عاجزين . فللكرام افعالهم وللطغام اقوالهم وما

كان الصداً ليعلق بالذهب . دعاة الدولة الافرنسية كهان جعلوا الدين وسيلة
 الدنيا لينتفعوا من مضرة المؤمنين . وموظفون كاصنام وآلات افسدوا
 ودعاء لا يفهمون للسياسة معنى . وفريق من المهاجرين هم كالماء يأخذون
 لون الاناء . وقد تغربوا وخالطوا الشعوب الحرة ولا يزالون عبيداً بين
 الاحرار . وصحافيون كرهوا الصحافة وحقروها وهم افسد السوربين خلقا
 وديننا واقلمهم ادبار علما . يدعون اصلاح سورية وينشئون لها حكومات على
 الاوراق وفي الاسواق . وجميعيات هي عصابات متاجرة بارواح السوريين
 واموالهم وبلادهم . وقد كانت زعامة اعضائها زعما باطلا والامة يمثلها امراء
 لا اجراء . تلك الفئات ايقظت فتنة كبرى واغضبت كل ذية شرف
 وشعور . فانقسمت وقسمت البلاد سلباً تعرضها على الاجانب فكتب العار
 واللعة عليها الى الابد . وقد شغلت الافكار واوغرت الصدور ونكدت
 العيش ومزقت الشعب احزابا لتبلغ آرابا . فما اوقع الذين يدعون النيابة
 عن شعب غيب نصفه التربة والغربة . وهم ادنياء سفهاء يملأون بطونهم
 لفراغ قلوبهم . وذلك من سوء الطبع والتربية وعدم الاحساس والادراك
 فلو كانوا نابهين لعلمو ما هي عزة الرجل في سيادة الامة ، ان الزيف من الجهل
 وليسوا بملومين لاختلال في ادمغتهم واعتلال في افئدتهم . فعندما يفقهون
 وينقحون يرجعون الى الصواب وهم اخوان ضالون تجب هدايتهم لا نكابتهم
 فما اجمل الصفح عن مذنبين غير متعمدين لا يعلمون ما يعملون . انهم في
 غوايتهم لا يدركون المقاصد الشريفة والمسااعي الجليلة . فليعاملوا بالحلم والرفق
 والحوادث مساعدة على ارشادهم واقناعهم . ان موالي الاجانب اليوم

اعدائهم غدا وسيكون بغضهم حقا بعدما كان حبهم وهما . فليطمئن اهل
الحفاظ والحمية فهم حزب الحق الرابط الجأش الواثق بصحة دعواه . وقد
يكون السكوت ابلغ من الكلام فانصاف المظلومين على الايام

٢٦

ما انعس شعبا متخاذلا كان العالم له خاذلا . فهو جامع الى الغواية لا
يجمع الآراء والعواطف ولا يمشي على قلبه خلف قوام والشعوب التي عديدها
خمسون ومائة مليون تتبع عميدا واحدا وتعترف له بالصلاحية . ولا بدع
فالفضيلة لا تعرف حتى يزول الجهل والحسد . انه الهج الناس بالحرية واقبلهم
للعبودية لفقدان الخلق والتربية واعتياد الكذب . وان الكذب اساس
الردائل كما ان الصدق اساس الفضائل ، فحقيق به ان يتحرر من عبودية نفسه
لينعتق من عبودية غيره . البلاد تقاس على البلدة والامة على الاسرة . وكما
يكون الشعب في المنازل يكون في المحاكم والمعابد . فما حال شعب بلا ايمان
ولا رجاء حتى العبادة عنده عادة لا عقيدة . هذا هو الشعب الذي كثر فيه
الشغب وما كان الا سوريا . ولو كان متفقا على الاستقلال مختلفا على نوع
الحكم لكان الامر . لكن كل نفر منه يريد ان يحكم من الدولة التي دانت
بدينها او تعلم لسانها . ويحاول ان يسلم وطنه ومواطنيه اليها لا يسمع لوما
او نصحا . فكل طائفة من الاجانب تخادع طائفة من السوريين وتقودها الى
حتفها . فوضعت امورنا في غير مواضعها وصيرت بلادنا اما ودولا شتى ، وهذه
ولاية الشام وحدها فصل منها خمس دولات . والنسبة في سورية مذهبية لا
عصبيية ولا وطنية ونسبة الامم الى آراضها واصلاها ، كلمات التفريق والتقسيم

تجرح شعور الامة وتنعي الدولة والوطن . لقد ضلت الفئات بالالوهام فهي
عدوات لانفسها ولاهل الحفيظة وموالاتها للاجانب جنابة كبرى . فستشقى
وتشقى بهواها حتى تحرق منه البذور وتقليم الجذور . وكل ما يريده الابرار
الاحرار ان يجعلوا الرجال اسيادا والنفوس كباراً . هذا ما جناه علينا جهلنا
وضعفنا وقد كانا السبيين لدخول الاجانب . فمن نكد الامة ان تبلى
باعتراضهم وهو مزعزع للدول ووضضعم للامم . فكما رثت امة خرقت
وكما وصلت قطعوا . وحين يرونها ناهضة يعثرونها ولولا دخيلتهم لم يكن
تفرق وتمرد . ان لهم فئة هي من الامة كالشجرة من القلعة . فتواليهم سفاهة
ولا امة ويواليونها اقضاء اللبانات . وقد تعس الشرق بهذه الفئات وهي
آحاد بين مئات . وطالما كان وجودها وبالا فوجب ان تبقى بالتي هي
احسن ، العضو المعتل يعالج او يقطع لسلامة الجسم . وبالفرد تفدى
الجماعة وبالجماعة تفدى الامة . لا هدوء حتى تصير الامة كتلة واحدة
بقوة الشرع والسلاح . وقل ان تستحكم دولة كثيرة الطوائف والعشائر
قال عمر بن الخطاب : ان افرقية مفرقة لقلوب اهلها . واقول ان الشام لشوء
على اهلها وقد يصح الجناس . وموقع الارض قد يكون سببا لشقاوة اهلها
كما هي الحال في سورية ومصر . فان موقعيهما من المعمور جعلاهما هدفين
للمرأة ومجالين للغازين ، واغريا بهما الذين كثرت مطامعهم لكثرة مطالبهم
فعلى الدولة ان توحد بلادها ورعاياها لتتم الوحدة القومية والوطنية . ولاندع
ميزات للطوائف ولا امتيازات للاجانب . فما اشتد ارتباط البلاد والعباد
الا بتوحيد الحكم والعلم . فتجتمع الامة قواها وتخضع لنظام بوافق مشربها

وتأمن اعتراض الاجانب وانتقاض الطوائف . ومن لا يصلحه الجليل يؤدبه
العقاب . فللمخائنين والعاصين القتل والنفي لانهم اعداء الدولة والامة والوطن
 واصحاب الفتنة يضر بون احتفاظاً لا انتقاماً حتى يستقيموا ويستقيموا . هكذا
تكبح الدولة جماح رعاياها لسلامتها وسلامتهم وتؤيد سلطانها بالرفق والعنف
فلا ترى نفراً نفوراً . اقتل ما يكون للامة الدعوى والفتنة ولا يحسمها الا
الحسام . فاهل الحمية والصلاح يقاتلون المشاغبين ولو كانوا اخوانا وخلانا
ما هذه الجلبة حين الحاجة الى السكينة وقد مل الوري الجدال والخصام بين
الاستقلال والانتداب . الحق لا يحتاج الى دليل لانه حق ولان اصحابه
محقون . فسورية للسوريين لانها سورية ولانهم سوريون . والمسألة السورية لا
تعقد فيها لونا طاهلها حلها . لكن المرجفين والمعتدين يغشونها بالباطيل ابهاماً
وايهاماً . ولولا تحريشهم وتضليلهم لكان الشعب السوري سلطاناً ورعية فهو
البن الشعوب واميلها الى الطاعة والسلام . تلك ما رب الابعاد التي فصلت
بين الاقارب . فطوراً يحتاجون بحماية النصاري وهو لاء في امان ونعيم . وتارة
بضياح حقوقهم وهم اقلية بين اكثرية مسلمية . وما كان الخطر على النصاري
الا من هذه الحماية التي تورث الشحنة . لا اقلية ولا اكثرية حيث الحكومة
والشريعة تسويان بين الجميع . وهذه الاقلية اضعفها حيادها وعنادها فكانت
جانية على نفسها . الدولة والوطن لها وللا اكثرية فلا حيف ولا خوف في
عصر التسوية والحرية والا اكثرية تداريها وتراضيها بصدق واخلاص . فلا
طوائف ولا مذاهب واكبر منها الامة والوطن . العقائد للضائر والصلوات
في الخلوات . فاذا افترق المواطنون على ابواب المعابد اجتمعوا في الوطن

الاحد . ولئن كان لكل فئة كتاب فكتاب الحق والعدل لجميع الفئات
 الطوائف في الامة كالسداء والمحام في الثوب وكلاهما لازمان ملتزمان
 ولا غنى لها عن احدها فلكل مصلحة ومنفعة . كل الشعوب فيها شيع واحزاب
 ولو كان بعضها على دين واحد . انما الفوز فيها للاغلبية المتغلبة بالتصويت
 والانتخاب . وبقوة الاكثرين يشتد ازور الدولة وهم اهل الغلبة والسلطان
 فلا كثرة تقود الاقلية الى الصلاح وليس عليها ان تقف اذا كبرت . العدل
 لا يعرف الملاينة وقد يكون التأيي فشلا والرفق فندا . فاذا اصررت الاقلية
 اضررت بالامة والدولة . فلتجرفها الاكثرية جرفا او تحذفها حذفوا ولا تأخذها
 رحمة وشفقة . فاما ان تلحق واما ان تمحق غير مأسوف عليها . لا يقوم
 الملك الا بوضع البأس والحلم كل في موضعه ، وان بين التأيي والتواني تقاربا في
 اللفظ وتباعدا في المعنى . وللاكثرية في الحكومات الرأي المتبوع
 والصوت المسموع ، واصغر حكومة ترى اهانة واستهانة في حماية الاجانب
 لبعض رعاياها . فللدولة وحدها حماية رعاياها وحكم ولاياتها . هذه السنة
 المتبعة من جميع الدول ولكنها ملغاة من الغربيين عند الشرقيين . ونحن
 المخطئون بما صرنا اليه من العجز بعد المقدرة . فلو بقينا او عدنا اقوياء لما
 تجرأوا علينا وقد كانت جرأتنا عليهم . ما شبه سورية بارلندة والنصرانية
 في هذي مثل الانكليكانية في تلك ، ففي قطيعة الستر نزالة انكليزية واقفة على
 ضعفها وقلها في سبيل الامة الارلندية ، وقد كانت ولا تزال حائلة دون اوطار
 الارلند على قوتهم وكثرتهم . والانكليز الذين شي على شيعتهم يؤيدونها بالجند
 والسلاح . ويأخذون من مقاومتها حجة لحكم ارلندة الشقية

بلاء النصارى من كهان يتاجرون بارواحهم واملا كههم ويتركون
 الصلاة لنيل الصلات . ويتسلطون باسم المسيح وقد جعلوا دينه وسيلة الدنيا
 وكان زاهداً فقيراً . وانه لا يريد ان يراهم غادرين بابناء وطنه واحق الناس
 بارثه وقد ولد وعاش ومات سوريا . فما اكثر الدواهي واقل النواهي بما تجنيه
 السنة الكهان وايديهم . فبهم يحبون الله يوم الحساب وكل راع مسؤول
 عن رعيته . وانهم مطالبون بكل فتنة او نكبة جعلوا لها اسباباً فلولا دخيلتهم
 وسعايتهم لكنت سورية في راحة وامان . ان في ذلك افساد الدين والدنيا
 واتلاف المروءة والوفاء . وقد تعاظمت البلية بتهافت الرهبان الغرباء على هذه
 الارض المنكودة . فالذين من ورائهم يثبتون سلطتهم لينشروا دعوتهم
 ويستهووا الطوائف . ويظهر بعضهم لبعض اجلالاً ونكراً جزاءً لغدر لا
 اعلاء لقدر . فتراهم يزددون البابا في بلادهم ويجعلون القس في بلادنا . فهلا
 يعلم كهان الشرق ان لا حرمة ولا سلطة لهم الا في الدول الاسلامية . وان
 الذين يراءونهم ويماسحونهم لا دين لهم ولا عهد . وانهم مسبوا هلاك النصارى
 في الشرق وجاءوا يشهدون جنازاتهم . فلو اختشوا ربهم لما ارتشوا بل عبدوه
 ساجدين ساهدين . ان المسيح ترك الدنيا واوصاهم بتركها فليقتدا به ويعتزلوا
 في صوامعهم قائلين قوله الحكيم « ما لله الله ولا لقيصر لقيصر » فليست الرئاسة
 في الامة للرهبان والكهان . من نكد الدنيا ان يكون في هذد البلاد كل
 احتفاء واحتفال لروءساء الدين . وان الشعب الذي لا يمشي الا خلفهم في
 امور دنياه لهو شعب جاهل خامل ضعيف . ولا يصبح عالماً ناهياً قوياً الا

بتفكيكه سلسلة العبودية من الدين والتقليد . فما كان يصلح في اجيال خلت
لا يصلح في هذا الجيل . هل يليق بالكهان العرب او يجوز لهم ان يسيثوا الى
امتهم ووطنهم . وهل ارتدوا هم لثوب الكهنوت يجعلهم غرباء في ارضهم وبين
اهلهم . او ليسوا من هذا الشعب ولهم فيه اخوان وابناء واعمام واخوال وعمات
وخالات . بتعرضهم عرضوا نفوسهم ومناصبهم للحق والسخر والمقت . ولو
مكتثوا ضمن الدوائر الدينية لحفظوا كرامتهم ومهابتهم . وخير لهم ان يدعوا
تقديم العرائض ويرجعوا الى اقامة الفرائض و كفى بالدين زاجرا لهم وناهيًا
ما هذا نهج المسيح وقد زهدوا الناس في الدنيا وهم احرصهم عليها . فخرمت
طاعتهم ووجب خلعهم حتى يتوبوا توبة لا ردة بعدها . فاما ان يعتزلوا للصلاة
والعبادة واما ان يصيبهم ما اصاب زملاءهم عند الاوربيين والاميركيين . ان
هم امام الشرع الا افراد من رعية الحكومة المالية . فيحق لها ان تحكم عليهم
وتعدهم من الخوارج . وان لم تصل اليهم بالعقوبة تجرمهم امام الله والامة
والبشر . لاراحة للعرب النصارى ما داموا متمسكين بتقاليد موروثه . لقد
نزلت من قلوبهم منزلة الايمان فافسدت منهم اخلاق وعواطف وعلوم . وانقادوا
الى كهنات منفعتهم من مضرة رعيتهم ، وكل منهم يساومه الاجانب على
طائفة يحسبها سواما . وما استكبر النصارى محنة الا كانت من الذين اتخذوا
الدين مهنة . فهم بين امتحان وامتحان مما جناه عليهم رؤساء الطوائف . فعسى
ان ينحوا المصادين لئلا يجربوا عنهم جمال الله والوطن . وان يخلعوا فئة تأتمر بهم
وتوالي الاجانب خرمة الوطن فوق حرمة الرهابين . وقد يهون تحكمها لولا
تحكم الطغفات من رهبان الاروام واللاتين . فهولاء المتجرئون يجوسون

خلال البلاد ليمهدوا لحكوماتهم طرقاً . فضربة لازب فصل البيع العربية عن
 البيع الاجنبية لسكينة الامة وسلامة الوطن . فيكون اتصال الروابط
 الوطنية بانقطاع العلائق الدينية . وتؤلف الطوائف المسيحية بالتساهل
 والتوافق بيعة عربية مستقلة . فتخلص من سيادة اجنبية عبثت بها وعثت
 في مصالحها . وتهمل السريانية واللاتينية واليونانية كيلا يبقى منها عروق
 دساسة وجروح نزازة . فتصير الصلوات كلها بالعربية فقط ليفهم المصلون
 مناجاة ربهم . ان الاكثرين من الكهنة يصلون بتلك اللغات ولا يفهمون
 لها معاني . ويندر بين رعاياهم من يقرأها او يعلم منها قليلاً . فاستقلال البيعة
 العربية شأن يتم به اكبر اصلاح . والمسعى الحميد مأمول من الرؤساء
 الذين اتسعت معارفهم وبعدت مداركهم . بعد ما استعرب نصارى الاندلس
 اصبحوا يصلون بالعربية وقيمون بها الفرائض . وكان الباباوات لا يألون
 في تحويلهم الى الصبغة اللاتينية . واذا رأوا شدة حفاظهم امروا بنقل الكتب
 الدينية الى العربية . وحاول ملوك الاسبان والبرتغال ان يصرفوهم فلم ينجحوا
 وقد حال دون مرامهم رمح الفارس لويس الماظنسي حامي الصبغة العربية
 فتركوا اعتساف الامر خوفاً من الثورة ولم يتيسر لهم الا بعد تراجع العرب
 وقد بقيت مدينة افراغة في البرتغال محافظة حتى هذا العصر على الصبغة
 العربية . ان في ذلك عبرة لنصارى العرب في الشام والعراق . فما احرامهم
 بان يتخلصوا من اللاتينية واليونانية بعد ما كابدهوا من الاستبداد . ومن
 انفع الامور عزل الدين عن الدولة وقد صار الشرع مدنياً والنظام ملياً . المرء
 يعرف بقومه ووطنه ولكل حرية الضمير والمعتقد . والممالك فيها من كل

الشيعة والمذاهب ، والفئات امة واحدة لا تسأل احداها عن دين الاخرى
ورجال الكهنوت مبعدون عن السياسة لان الدين لله وروساؤه للمعابد
والناس للدولة والوطن

٢٨

ليعمل للتوفيق اهل العصبية من المسلمين والنصارى فيكونوا
خير العاملين . وليجعلوا اواخيههم مستحكمة لئلا يروا زمرا متحكمة فهم
اخوان واعوان . ولولا ناريش الذين تواطأوا لما كانوا يوما متعادين
ومتباعدين . فمن آيات الفرقان الكريم « ولتجدن اقر بهم مودة للذين
آمنوا الذين قالوا انا نصارى » وليس المسلم بأشد حمية وغيره من المسيحي الطيب
الاصل والسريرة . فمن الكبائر ان يخجل العرب النصارى امام العرب
المسلمين . ولا مجال لسوء الظن اذا خرج البعض من قومهم ووطنهم وفي
كل امة جهالها ولثامها . فما اجل تعاون المسلمين والنصارى على الاجانب
والخوارج . ان الله مع الجماعة لاحقاق الحق وابطال الباطل . ولا بد من
جلاء المضالين واهتداء الضالين ان عاجلا وان آجلا . اخبر ابو الفرج الملقب
في مآثره قال « سمع اهل ماطية ما فعله التتر بقيسارية فجزعوا وهربوا الى
حلب . فامسك والذي عن الخروج واجتمع المطران وتشاورا في مرابطة
المدينة . ثم جمعا المسلمين والنصارى في البيعة الكبيرة فتحالفوا ان لا يخون
بعضهم بعضاً . فنظر الله الى حسن نياتهم ودفع الاعداء عنهم » ان كرام
العرب النصارى مخلصون لآمتهم متعاقبون بعروبتهم يفضلون حكم بدوي
على حكم اجني . ويرون المنقصة في ان ينوب عنهم كهان ويكون لهم

منهم زعماء . كان عرب الشام وعرب العراق على شيء من عقائد النصرانية
 فلما اقبل المسلمون استفزتهم تذكارات القربى فضموا القلوب الى القلوب
 والسيوف الى السيوف . ولم تقو النعرة الدينية على النخوة العصبية فاعتنقوا
 الاسلام لانه دين عربي منهم ولهم . وقد كانت في صدورهم حزازات من
 الروم والفرس فاستمدوا من الاسلام قوة لضعفهم في النصرانية . وانتقموا
 منهم وجزؤهم على ايامهم بايام قصر مداها وكثر رداها . فاصبحت اوطانهم
 طاهرة واعلامهم ظاهرة . لقدعاونوا اخوانهم وقتلوا معهم وساروا امامهم ادلاء
 فابو زيد الطائي وهو نصراني قاتل في وقعة الجسر حتى خر قتيلا . وكان بكر
 مستبسلا ويحرض قومه حمية للعرب . ويوم وقعة البويب قدم انس بن
 هلال النمري بجمع عظيم فقالوا : نحن نصارى انما نقاتل مع قومنا . وكذلك
 فعل بنو تغلب وغيرهم من نصارى الغرب . ولما خرج الوليد بن عقبة لغزو الروم
 جاء عربي نصراني فقال : انني والله ناصح لكم للنسب نخذوها نصيحة
 صادقة من ابن عمكم ، الاعداء مقاتلوكم الى نصف النهار ولا جلد لهم على
 الثبات ، فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا . وهكذا كان فما
 حان الظهر الا والروم قد ولوا ادبارهم ، وعرف عمر بن الخطاب فضل نصرتهم
 ففرض الصدقة عليهم كما فرضت على المسلمين . الشرف والكرم في حسن
 القدوة وصدق المودة وعرفان الجليل ، فهلا اعرض النصارى عن الابعاد
 عارضين على الاقارب ما في قلوبهم من المحبة وفي سواعدهم من المقدرة ، ليس
 لهم الا ابناء قومهم فضلوع العجم مخنية على بغض العرب ، فلا يأملوا خيرا
 من زرق العيون وصهب السبال ، ان العرب على كل حال ارفق بالعرب

واعطف عليهم وهم اكرم الناس اخلاقا واعراقا ، والنصراني الشرقي بعيد
عن النصراني الغربي بالصورة والفطرة . واين الشرقي السامي العربي من
الغربي الآري الرومي . يزعم البعض ان بينهم وبين الفرنسيين نسباً وقربى
وهم كجميع الشرقيين لا يزاوجون الغربيين والغرباء . وعلى كثرة المهاجرة
والمخالطة لم يصل الدين بينهم وبين الافرنج والامير كان . وما كان الشاذ
والنادر ليصح القياس عليهما . وفي هذا دليل على ان المزايا الجنسية اقوى
من الشعائر الدينية . لما رب يتعلق بعض الفرنسيين النصراني الذين اتخذوهم
صنائع . فهم عندهم في سورية فرنسيس الشرق وفي افرنسة عرب وسخون
ومن لم يفهم بالصوت سيفهم يوماً بالسوط . لا عزة ولا قوة لنصارى العرب
الا بحفظ عهد اخوانهم وجيرانهم . فاذا داموا مع ذوي الجناية على اهل القرابة
ضاعوا بين سيفين وصفين . لقد شاء الله ان يجمعهم في ارض واحدة فلا
يكن دينهم لخسارة دنياهم . وليرعوا الذمام ويجمعوا على امر كثر فيه الامار
فللا جانب ضراء السباع ومقت غير مكنون . ولا يدعوا مجالا لسوء الظن
فيجنوا على انفسهم وعلى الآتين بعدهم . وليحولوا عيونهم وقلوبهم عن
الغرباء وبوقفوا بين دينهم ودين المسلمين فيجعلوا منهما ديناً واحداً . انهم جميعاً
ابناء اعمام وعيسى ومحمد ابناء امة واحدة وارض واحدة . فليحترم النصراني
محمدًا كما يحترم المسلمون عيسى ويفتخروا به على العالمين . فما الذين يحملونهم من
انبياء اليهود بمشبهين للنبي العربي الا كبر . وليشترك المسلمون والنصارى في
الاعباد فالدنيا مجاملة ومكافأة . وليكونوا في البؤس والنعم رأساً واحداً
وقلباً واحداً وبدأ واحدة . وليتشاركوا في الجهاد ليتشاركونا في الغنيمة ولا

يتنافروا تجاه اكبر الاخطار . ولا تكن الفئة الصغرى حائلة دون امانى
 الفئة الكبرى . فالامة القوية المجتمعة لها امانها ومساعدتها فهما ترديكن ومهما
 نقل بفعل . ان هي الا آلة متينة والارادة قوتها الحركة . ولئن بقي النصارى
 على بعادهم وعنادهم حق عليهم امران : اما اسلام باكره واما اخراج باحسن
 ولو فعل المسلمون هذا في قوتهم لاراحوا واستراحوا وكانوا مجملين محمدين
 وقد امضاه في الاندلس عبد المؤمن احد ملوك الموحدين . لكنه لم يغن
 شيئاً لانه وقع بعد فوات الوقت في زمن الضعف . وقد كان هذا رأي
 الوزير الانكليزي غلادستن والامبراطور الالماني غليوم الثاني فانهما اجمعا على
 ما خفوا « نصارى الشرق يتعبون انفسهم وجيرانهم والاوربيين . فللراحة
 العامة والمصالحة الشاملة يجب ان يسلموا او ان يرحلوا . ان الاسلام دين
 صالح كالتصرانية وليست ديانة صالحة في الشرق » . وما يجري على النصارى
 يجري على سائر الشيع والفرق السوربة . ان الاجانب يقسمونهم طوائف
 فلا يعتاضوا اوطاناً صغيرة من وطن كبير

٢٩

لا اوطان في الوطن ولا طوائف في الامة . البلاد تلتحم التحاماً واهلها
يندغمون اندغاماً للدولة قديرة وامة كبيرة . وحدة الارض من وحدة سكانها
 واتحاد الامة بمصالحها ومناقبها . فالبلاد العربية ارض واحدة بالتقارب واصحابها
 امة واحدة بالتشابه . وان لم يكن دمهم عربياً صراحاً ف عربية ارواحهم . وكل
 مولود فيها عربي بصحة الانتساب وحكم الاستعراب . فلا تخوم تفصل بين
 العرب في ارض حرثها السلف فورثها الخلف . وان الارض للسلالة الباقية

عليها لا التي بادت او نزلت . فهي ملك للذين تتحاذى منازلهم ومدافنهم
فلم تقطع علاقة احيائهم بامواتهم . وهذا حكم الطبيعة والشريعة منذ اقدم
الازمان . من الافراد تتألف الجماعات ومن الجماعات تتألف الامم . ولكل
امة ارض اتخذتها مولدا وموطناً ومرتعاً . وما كانت كثرة الاسماء
للبلاذ لتحول دون وحدة الاهلين . فكل مملكة مقسومة الى ولايات متحدة
والدولة قائمة بانفاق اهلها في النجائز والمنازع . ومن الاوطان الصغيرة يتكون
الوطن الكبير كما يتألف الجسم من الاعضاء . فكل بقعة من الارض كالعضو
للجسم يعد قطعاً تشويهاً . جميع الممالك تألفت ابالاندغام والانضمام فاضحت
وثيقة العرى عزيزة بين الورى . وقد كانت قبل اتحادها اقطاعات يتنازعها
المتغلبون من الامراء . فالامة الافرنسية التحمت فيها سلائل شتى جاءت
مكتسجة من الغول والفرنك والسلط والجرمن والنرمنند . والمملكة الافرنسية
تألفت من امارات كانت امراؤها اعداء ملكها . وبالحيلة والشدة تمكن
ملوك افرنسة من بسط سلطانهم عليها . وقد نجح مسعاهم بدعوة الدين والجوار
واللسان لا بالدعوة العصبية . ومثل الامة الافرنسية تطورت جميع الامم الاوربية
حتى بلغت اشدها . فقس عليها الامة الرومية والالمانية والانكليزية والايطالية
وهلم جرا . لا امة دمها واحد غير مشوب انما الاوريون يرجعون الى اوطانهم
لا الى انسابهم . في عروق الاسباب والبرتغال دم عربي لا ريب فيه . فلو
استعربوا وبقي العرب في الاندلس لعدوا عرباً وعدت بلادهم عربية . لكن
دعوى العرب بطلت لجلائهم ولم يشفع لهم دمهم وآثارهم . والعرب انفسهم في
جزيرتهم كانوا يعدون عاربة ومستعربة . فالارض اذن للعشيرة المتغلبة التي

نندغم بها العشائر المتقلبة . الجمهوريات الاميركية موعظة من ولايات شاسعة
 واسعة . وقد انقرض فيها النسل الاصيل وحل محله الدخيل . فسكانها خليط
 من جميع الشعوب وانما المولود فيها معدود من بنيتها . وهكذا استعاض
 المتأخرون الوطنية من العصبية وقد رأوها اثبت وامتن . فلا تزال الارض
 ثابتة والبشر يتوالون عليها . مساحة اميركية الشمالية تربي على مساحة
 اوربة ومساحة البرازيل تناهزها . واصغر ولاية فيها اكبر من الشام والعراق
 فلم يمنعها ترامي الاطراف من الاتحاد والاتفاق لما بين الاهلين من جامعة الجوار
واللسان والاخلاق والارزاق . فكذلك يؤلف العرب دولة من الولايات العربية
 المتحدة . فيقال عربي حجازي وعربي شامي كما يقال افرنسي غسقوني وفرنسي نرمندي
 هناك ابن كل ولاية ينتسب اليها ويفاخر بمواطنه من ولاية اخرى . ولكنه
 ينتسب الى الوطن العام ويفاخر به امام الاجانب . فلناخذ عنهم مقتدين بهم
 لنصير شعباً اقدر في وطن اكبر . لقد اتحدوا بجامعة الوطنية فقط اما نحن
 فلنا جامعتان من العصبية والوطنية . رب معترض قل ليست جامعة الاقوام
 باللغة وحدها . فيجب انفصال السوريين عن العرب كما انفصل الاميركان
 عن الانكليز والاسبان والبرتغال . فاقول كان انفصال الجمهوريات الاميركيات
 عن اماتهن الاوريات امراً طبيعياً لا بد منه . اولاً للبون الشاسع بين القارتين
 والفرق الظاهر بين اسميهما ، ثانياً لاختلاف المناخات التي تختلف بها طبائع البشر
 وهياتهم وعاداتهم وثقافتهم . ثالثاً لكثرة المماجرة التي اختلطت بها كل الانواع
 والدماء . فخرج من ذلك الاختلاط جنس ودم جديدان لم يبقيا قوة ومزية
 للدم الاول ، والقوم يتضامنون ما داموا مرتبطين بالاحكام والمصالح . فبعد

المسافات واختلاف المناخات واختلاط الاجناس ونعاكس المصالح قطعت
الاسباب بين الاوربيين والاميركيين . فلو كانت الدول الانكليزية والاسبانية
والبرتغالية قريات لادغن مستعمراتهن الاميركيات . ان الدول الاوربية
ضمت ولا تزال ساعية الى ضم الاراضي المتجاورة لتؤلف منها ارضاً واحدة
فبالمناخ والمناسبة انضمت الولايات الاوربية والاميركية بارتباط ابنائها
واختلاط دمائها . وليس على وجه البسيطة امة دمها غير شائب او مشوب
اما البلاد العربية فانها كالاصابع في الكف والفروع من النبع ، فلوجوب
اتصالها يستحيل القول بجواز انفصالها . وذلك لانها في قارة واحدة وكلها متلاصقة
متلاصقة . ولان المناخ فيها واحد فالطبائع والهيئات والعادات والتقاليد واحدة
ولان المهاجرة اليها قليلة فالسلالة خالية من الشوائب المؤثرة . ولان مصالحها
مرتبطة كعواطفها ارتباطاً شديداً . فلا يصح ان تقوم فيها دولات منفردة
ولئن نعم لا تدم . ولقد تغلبت فيها العروبة حتى اصبح العربي والمتعرب سواء
وجميع سكانها من السلالة السامية فهم ذوو قرى على كل حال . انما العشيرة
العربية تغلبت وسهل التآلف القرابة التي بينها . العرب حكموا الفرس والترك
والهند والروم وحملوهم على اعتناق الاسلام . ولكنهم لم يقدرُوا على
تعريبهم وما كان الدين مساعداً . اما اهل الشام والعراق ومصر والمغرب
فاستعربوا بامرع ما يكون . فما فعلته الطبيعة عجزت عنه الشريعة ولن نفسده
الخدعة . الارض العربية لا تنمو فيها الاغراس الاجنبية ، وفيها يستعرب
الاعاجم ولا يستعجم الاعارب . فاهلها يريدون امة موحدة عظمى في دولة
مؤلفة كبرى . الاندغام في البشر كاللقاح في الشجر وقوة الامة باندغام

اقوامها واطنانها ، فلا لبنان ولا فلسطين في سورية ولا سورية في الدولة العربية
لبنان وفلسطين من سورية كالعضوين من الجسم وسورية من
العربية كالفص من الدوحة . فالحياة والقوة بالاتصال والضعف
والموت بالانفصال . وحظوظ الفلسطينيين واللبنانيين متعلقة بحظوظ
السوريين . فالبلاد العربية سلسلة يحاول الاجانب تقطيعها لبيعثروا حلقاتها
ولئن يكذبوا بالحكم يصدقوا بالعلم فجميع كتبهم تعترف بان فلسطين ناحية
من سورية ولبنان جبل فيها . وغايتهم من تجزئة الوطن الاكبر اضعافنا وافقارنا
ليهنو عليهم حكمنا . فيزينوا لكل طائفة منا وطنا صغيرا كي لا يجمل امرنا ويشدد
ازرنا ، وتكون النتيجة حرماننا الكبير والصغير والكثير والقليل
فباغرائهم نادى المتغفلون بانفصال لبنان عن سورية وانفصال سورية عن
شقيقاتها العربيات . وقد تأكدوا وهم صغار ان صفارتهم تظهر في الوطن الاصغر
وتغيب في الوطن الاكبر ، فاختاروا من الحلبات اضيقها لعجزهم عن السباق
والتبريز ، ولكن الشرفاء والعقلاء يريدون ان يؤلفوا امة عزيزة الجانب
ليأمنوا شر الاجانب . وبصبحوا اقوياء متجمعين بعدما كانوا ضعفاء
متفرقين

٣٠

لم يكثف بعض اللبنانيين بطلب الانفصال بل طلبوا ضم قسم من سورية
الى لبنان . وحدود لبنان الطبيعية حيث تنتهي منحدراته لانه جبل . ولم
يكن له حدود ملكية ثابتة فكان ينسبط وينكش مع الاحكام . فهو
جزء من سورية ضمت عليه جناحيها وطوقته بذراعيها . او هو فيها كالفرقة

من البيت لا سبيل الى عزلها الا بهدمها . فالاقلون بضادون الطبيعة بضم الكل
 الى البعض وصب البحر في النهر وبطعمهم في الكثير يحرمون القليل
 فان يشكوا ضيق ارزاقهم واملاهم لينتثروا في سورية الفسيحة حيث
 يجدون خيراً كثيراً . البلدان الصغيرة تضمها اماتها الكبيرة فتصبح اجزاء
 من دولة كبيرة . فالجبل الاسود تضمنه المملكة السورية بعد انفراده بدويلة
 حقيرة ، واهله يتنازلون عن ملك واستقلال ولم يكن لاهل لبنان شيء من
 هذين . وقد يكون بين السوريين والاسوديين بعض الفروق والميزات ، واما
 بين السوريين واللبنانيين فلا يوجد الا كل مشابهة وموافقة . ويزعم المتعنتون
ان اللبناني ارقى من السوري والسوري ارقى من الحجازي . وهذا عندهم
 حائل دون الاتحاد ولا يعلمون ان التفاوت موجود بين البلدان والفئات في
 كل الممالك . وان الناس في المدينة الواحدة طبقات والمدينة قائمة بهم اجمعين
 وما كان ذلك مانعاً من ان يكونوا امة واحدة يدير بعضهم امور البعض . هل
 اهل اوفرنية في افرنسة كاهل باريس ؟ وهل اهل كالبرية في ايطالية كاهل رومة ؟
 تلك حجة سخيفة يدلون بها على ادعاء وغرور وقد تساوى الجميع في سورية
 ومن مزاعمهم ان لبنان كان مستقلاً وكفى بالوقائع مكذبة لهم . لم يكن
 لبنان يوماً مستقلاً ولم تكن لاهله حالة مستقرة . ولم يرد اهله بالاسنة السنوية
 الغارات المشنونة . فقد كان في كل اطواره تابعاً لسورية خاضعاً للغزاة والفاطميين
 ولا يزال حظه معلقاً بحظها لان ارضه من ارضها واهله من اهلها ، توالت عليه
 الامم المجتاحة حتى استقر للعرب . فحكموه وسكنوه وهو حتى اليوم بلد
 عربي واهله عرب ومستعربون ، كان حكمه اقطاعياً كسائر البلاد السورية

وحكامه يستبد كل منهم بيقعة وطائفة ، ثم فصل بحكم الضرورة عن
 سورية وبقي مستظلاً بالراية التركية ، وظل نفوذ الاستانة قويا فيه حتى
 استولت عليه عنوة في الحرب الكبرى ، وقد كان امتيازها لا استقلاله صدقة
 من عصبة اجنبية لا غنيمة في ثورة قومية ، والاستقلال الشريف ما اخذ
 بالقوة وحفظ بالقوة ، في ذلك الزمن لم يعرف اهل لبنان القومية والوطنية
 ولم يكن لهم استقلال لاستقلال ، وما يسمونه استقلالاً لم يكن الا
استذلالاً ، ويقولون جاهلين او متجاهلين ان العرب لم يدخلوا لبنان ولم ينزلوا فيه
 ولم يحكموه ، اتعلموا لغتهم بالوحي والتنزيل ام نبئت ذريتهم من الارض ام
 هبط امرؤهم من السماء ، فكيف بغالطون اعينهم وانفسهم في حقيقة الاثر
 والمأثر ، ومن الحماسة انتسابهم الى الفينيقيين البائدين الذين استعمروا سواحل
 افريقية وفرنسة واسبانية وايطالية ، فلماذا لا ينتسب اليهم اهل تلك الاقطار
 كما ينتسب بعض اللبنانيين ضللاً وعناداً ، وفي انتسابهم الى الامة العربية
 الحية حفظ لبلادهم وتلادهم ، وانى تصح نسبتهم ونسبة الطليان الى الرومان
 غير صحيحة . الشعوب ثابعت والعصور تواتت فلا حجة بعد الفاني
 الا للباقي . فهب بعض السوريين متحدرين من الفينيقيين او ليس
 اولئك فصيلة من العشيرة العربية . فعلى رأي الأثرين كل الشعوب
 التي استوطنت سورية خارجة من جزيرة العرب . فما اجهل اللبناني
 الذي يقول لست سوريا ولبنان من سورية صغر او كبر فيها . طوائف
 الصقالبة واليونان تتجمع لتقوى ونكبر وطوائف العرب تتفرق لتضعف
 وتصغر . واوضح امة لا ترضي ان يولى عليها اخطر رجل من اخطر امة

وتلك غريزة ان يفقدها الانسان يصبح احط من البهيمة ، فمن غرائز البهائم
 الذود عن انفسها وصغارها وما وياها ، فما يكون اذا فقد العاطفة البشرية
 والغريزة الحيوانية ، لاهدوه حتى نصير سورية كتلة واهلها جبلة ولا قوة
 ما دام لبنان مفصولا عن سورية ، ان في انفصاله اكبر الاخطار وهو منها
 الثغرة والرتاج ، والاجانب والخارج لتفويض وتقويض وقد جعلوه وتدا
 غربا مدقوقا في قلب البلاد العربية ، لكثرة الطرايق ضل الناس الحقايق
 ومن الفتنة تعدد الزعماء والاحزاب . وما كان استشرء الداء الا من استكثار
 الاطباء ، فالمنابر لمن رام الخطابة والمحابر لمن شاء الكتابة ، وكل هذه الجلبة
 تهون للاجانب الغلبة ، فمثلنا مثل غنم تتناطح وحوها ذئاب لها اعتساص
 فنحن بين اخطار ثلاثة توذي الى الهلاك فلنتق الله في ارضنا وانفسنا
 الويل لنا من الخطر الانكليزي والخطر الافرنسي والخطر اليهودي . فلتضعف
 العرب وتفرقهم جعل فلسطين في سورية مشقا يهوديا ولبنان مفضحا نصرانيا

٣١

الانكليز يريدون ان يتموا خطتهم بيسط سلطانهم على الشرق العربي
 وفي اندحار الصليبيين عبرة ثقل من مطامعهم على كثرة بوارجهم . وان
 الشعائر في الصدور لا قوى من العماثر في البحور . كما طرخوا اهل مصر
 بطرقون اهل العراق وفلسطين والغاية عندهم تبرر الوسطة ، وقد اشتهروا
 بالانانية والخديعة والكبرياء وما اهتموا بالحماد عند المنافع ، فهم فاعلون ما
 يعود عليهم بالفوز والكسب ولو اغضبوا الله والبشر ، فالفضل في عرفهم
 لذات اليد ولم تجد ذات النفس اليهم سبيلا ، وقد زينت لهم نفوسهم ان

يسودوا الناس لا اعتقادهم انهم دونهم خلقا ومقاما . ولا يذكرون انه جاء
عليهم زمن كانوا فيه اخشن الشعوب واذلها وافقرها ، وان جزيرتهم كانت
وراء البحر بلداً قصيا ومأثرهم فيه دم ووحل كثيران ، يتبعجون بالعدل
وعدلم لانفسهم وما كانوا خارج بلادهم الا ظالمين ، فالامة التي يدوسون
ارضها فريسة دامية وقد كان خلاص الامير كان من العجائب ، فان نطلب
جلاءهم يعدوا طلبها تجروءاً وتمرداً لتيقنهم ان سلطتهم لازمة وغير ممكن
اقناعهم بعدم صلاحها هذا الشعب غلب الشعوب بتأنيه ورويته وللمتأنين
الظفر بالمثوانين ، وبما عنده من الصبر والمكر لم يخسر ولم يفشل فهو مقلها كما
تشاء المنافع ، وعلى قلة عدده اكثر عدته فحكم ثلث البشر واشرف على الثلثين
الانكليز يبطئون ولكنهم يصلون ويقنعون بالقليل لينالوا بعده الكثير ، فمن
ثقب بدخلون ارضا ومن جعر يحكمون شعبا ، ولهم وزراء بواقع يرسم احدهم
خطة لتنفيذ بعد مائة سنة ، وحيث يقطر دم انكليزي بحق الحكم لهم والملك
فلهم اغنى الارضين وهم اصحاب افقرها ، اولعوا العرب بقتال الترك ودخلوا
العراق وفلسطين حلفاء ونصراء ، حتى اذا بلغوا اربهم عادوا بيعينون الفرنسيين
من جهة ليعينوهم من اخرى ، وهكذا خذلوهم وما لأوا الفرنسيين واليهود
وضربوهم في قلب جزيرتهم من العراق وفلسطين ، وكلما استغنوا عن امير
خذلوه او خلعوه بعد ما اوقفوه عميلا او وسيطا الى حين ، فالمعاهدات عندهم
مخادعات وقد اتهموا الالمان بعدها خرقا بالية ، الانكليز الداعاء العرب
لانهم بنوا دولة عربية بالوهم ثم هدموها بالفعل ، فالتبعة واقعة عليهم لانهم
وعدوا ولم يفوا وقدروا ولم يعملوا ، وقد جاءوا ينزلون اليهود في ارض

العرب ليسلبوا اولئك ويشغلوا هؤلاء ، وسواء عندهم حكموا عربا او يهودا ليسوا من بلدتهم وجلدتهم فما بهم الراعي من القطيع ، ولأن يحكموا اليهود ايسر لهم لانهم الين مراسا وهم حرفاء لهم وعملاء ، فسلطوا المعدن على الشعور والسياسة لجلس الجيوب لا لجلس القلوب ، وحرموا فلسطين الاتصال على حبها وميلها وقد منعوا ارلندة من الانفصال على بغضها ونفورها ، فلو كان لهم شعائر وضمائر لما حملوا وزر هاتين الشهيدتين ، انهم في فلسطين يقترفون جريمة ويضادون الطبيعة التي شغلهم ، وقد انفقوا والفرنسيس على طرح اليهود والرهبان في ارضنا كأنما كانت لي طرح فيها ما يعاف ويكره ، وهي مزبلة ايضا ل طرح الارمن والشر كس والاكراد والكلدان وكل المغضوب عليهم ، فشد يدنا طراً علينا من طرقتنا بحجة الاحسان والاصلاح ، تلك دعواهم ودعوى جميع الاوربيين حتى البلغار واليونان ، وان خطة الانكليز مع العرب كلها خطأ وغلط وسيندمون على اغضاب امة شريفة ، لقد خسروا كثيرا ليربحوا قليلا واعظم ما خسروه صداقة العرب ، فما كان احراهم بان يحالفوا الامة العربية ويعاونوها بصدق واخلاص ، اذن لرأوا منها حليفة قوية وفية تفتخر بها البشرية ، ولقد كانت ولا تزال من خيارها ولها في المآثر اجمل الصفحات ، انهم غلطوا بحسبانها كسائر الامم التي يحكمونها وقد جهلوا خلقها وروحها ، وسيعلمون ان لا خير لهم من الفرنسيين واليهود والخير كله من العرب ، لم يعرفوا قيمة العرب ففعلوا كذلك وسيكون مصرعهم بذلك

والفرنسيين يدعون حقاً في امتلاك سورية كحق الذئب في الحظيرة
ونرايها وصخرها يتبرأ منكم ، ففي الحروب الصليبية جرت عليها دماؤهم
ودماء العرب فتوارثوا العداوة من جيل الى جيل ، وان اصحابها سيطردون
الاواخر كما طردوا الاوائل وقد علموها قذوفاً ، كانت غزوة افرنسة في
ايام الفتوح من الشام وغزوة الشام اليوم من افرنسة فلكل كفة رجحان
الدولة الافرنسية تبشر أنا وننذر حيناً بين الوعد والوعيد ، وللفطناء غنى
بالمشاهد عن الشواهد بين الاخذ والرد والجزر والمد ، وكفى ما حلت من
دماء العرب وحرمت من حقوقهم ، انها تتخادع السوريين قائلة من اجلكم
خاطرت برجلي ومالي ، وقلامة ظفر من جندي افرنسي اعز اليها من الشعب
السوري ، وتزعم انها دائبة على تعليمهم وتهذيبهم وان بينها وبينهم صداقة
وقرابة يراها اللبيب غرابة ، والمأثر ووقائع الحال وقلوب السوريين تشهد
لنها عدوة سورية القديمة ، فخروبها ومذابجها وفتنها ومصائبها كانت من
غارات الصليبيين التي فجرت الدماء واججت البغضاء . ولئن جاءت على
زعمها طلباً وحياً ورغباً فلترحل وقد رأت رفضاً وكرهاً وحرباً . استقلال
سورية وحقها ضدان لا يجتمعان وفي مصالحها مفاصد السوريين . لكنها تميل
عن القصد ونكتفي بالنطق دون المنطق لتعمر بلادها من تخريب بلادنا
وتعوض خسارتها منها . وما اجتاحت السوريون ارضها وقتلوا اهلها وهدموا
مبانيها ولم يكونوا دافعيها الى الحرب الضروس . نقول طورياً حي لسورية
منزهة عن الاغراض واود حمايتها ورعايتها لاسعاد الاهالي واصلاح المعاش

ثم تعود فتقول سورية حصتي من الاسلاب والغنائم ولي بها ولع قديم وقد
 حان وقت الاستيلاء . فلتعلم ان بغض السوريين لها يزداد بمقدار حبها
 لسورية . وان ارضها احوج الى التعمير وان حلولها في ارضهم ينقص العيش
 عليهم . وانهم في غنى عن مساعدتها وفي حاجة الى من يحميهم منها . وانها
 المحتاجة الى الحماية والمساعدة فالامان على الابواب . واذا كانت تريد الانعام
 عليهم استحل قتلهم لان احسانا منها معروضا كان منهم مرفوضا ، وكيف
 تصلحهم والفساد فيها عميم وتمولهم والفقر فيها مدقع ، فليس امدادها الا
 مد شرك يتلجلجون فيه . ولو ابقى لهم ما كان لديهم لكانوا اغنياء سعداء
 فهي تعطي عشرة لتطلب الفاء وتبقى لها تلك الحقوق والتقاليد ، وذلك لانها
 شنت غارات صليبية وبنّت مدرسة يسوعية ومدت سكة حديدية . هذه
 حقوقها وتقاليدها التي نمتها من اجلها ومن يمقت قوما يمقت كل شي . منهم
 وما كان التقتيل والاتجار جحيتين للحكم والملك في البلاد . نود ان ننزع
لغتها من ادمقنتا والسنتنا اذا كانت شاهدة علينا بالميل اليها . فقد
 يتعلم العدو لغة عدوه وله منها فوائد ، وتعلم اللغات لا كتساب العلوم لا لاستعباد
 النفوس ، فعليهم ان يشكروا لنا تعلمها وليس علينا ان نشكر لهم تعليمها
 ومدارسهم نطهر منها عقولنا وقلوبنا فالجهل الصحيح افضل من العلم العليل
 وخير لنا ان نركب خيلنا وجمالنا وان يلطم الموج جبالنا من ان يلطموا
 جباهنا ، اديارهم معاقل لهم في بلادنا وقد اوشكوا ان يجعلوا سورية ديراً
 كبيراً . ورهبانهم يأخذون ولا يعطون ويمشون على التصديق وايديهم جمعة
 مقبوضة ، وشركاتهم تستثمر اموالها وتبتز اموالنا وارباحها تفوق اعمالها

في كل الممالك شركات اجنبية لها حق التجارة لا حق السيادة ، والجمهوريات
الاميركيات ملائى من الشركات الاوربية واموالها ، وما كانت دولها
لتدعي حق الحكم بما لها من المال ، فلماذا ينتجع الاوريون في اميركية
بالآلات والادوات وفي آسية وافريقية بالحراب والمدافع ، اما كان الاوفق
لنا ولهم ان نتعامل ونتعاون بلا اجبار ولا ارهاب ، الدولة الافرنسية تدعي
ملك البيت لنزول رعاياها فيه ضيوفا وتقتل اهله لانهم اكرموا مشواهم ، فهي
المسببة لنكباتنا والمسؤولة عن مصائبنا وفي ذمتها دماؤنا ودموعنا ، ولها في
كتاب الله وكتاب الناس سطور حمروسود ، ما كانت لتعتبر بنكبة الالمان
لشعبها ونكبة الاتراك لشعبنا ، جاءت تضطهدنا بحبنا لوطننا ومحبة الوطن
في افرنسة فضيلة وفي سورية جريمة ، والعاقون منا في نظرها الاخيار
المقاومون والبارون مواليها الساعون بنا ، افرنسة جميلة وعزيزة عند ابنائها
وان سورية لكذلك عند بنينا ، وننكر عروبة سورية وهي عربية خالصة
وتثبت افرنسية الالزاس وهي المانية صريحة ، فالسوري الشهم يحب قومه
ووطنه ويود من الاجانب صداقة لا سيادة ، لا احد يصدق ما تدعيه الدولة
الافرنسية من نصرة الحرية ، فالحرية والمساواة والاخوة شعارها في ارضها
لا في ارض غيرها ، ومهما ترجمه منا ومن غيرنا لا يعادل خسارتها الحب
والاحترام . الفرنسيين منطوون على حب الاستبداد في بلادهم فما يكون
منهم في بلادنا ، وفي مآثرهم من الظلم والقهر والسفك والغصب ما هم اعلم
به منا . فالمظلومون ينظرون الى حراب جنودهم لا الى اقلام كتابهم ، انهم
بادعائهم لتحريرنا واسعافنا يسخرون من احيائنا وموتانا ، ولست اعني عند

التجريم الا الدول فقد تكون بريئة من اعمالها الامم ، فما الحكومات الاجماعات
 وشركات وعصابات فيها يصيب من له نصيب ، وقد كان بعض الملوك
 والحكام والزعماء والقواد من افكك اللصوص وامهر الدجالين ؛ ولا ينجح في
 الغالب الا الذين يزحفون والذين يقحمون

٣٣

واليهود يجرأون على طلب فلسطين بعد مئات من السنين ، وهي الارض
 السورية التي سقاها العرب دم قلوبهم وعرق جباههم واستهلكوا من اجلها
 في الحروب الصليبية ، انهم يضمنون بحفنة من ثراها وقد شهد اليهود من حميتهم
 وعصبيتهم ما ازال منهم طمعا وغرورا ، فلا يصدقوا الوعود ويتعللوا بالاوهام
 فلن تجمعهم بعد ما تفرقوا ، ولم تكن لهم من قبل وقد دخلوها غرباء
 واستحوذوا عليها مغتصبين ، وليس بممكن لم شعشهم وهم فئات مندغمة
 بكل الشعوب فمن الحق تأسيس دولة دينية فيها من كل شعب ولسن ، انهم
 اكره الخلق الى جميع الامم من كل جنس ودين ووطن ، وكفى باسمهم
 دليلا على الخساسة وهم تجار ارضوا الشرف وصرفوا قواهم الى الكسب
 الحرام ، فلا داب والعلوم كاسدة عندهم واعقم اللغات لغتهم المكفنة بالتملود
 وتوراتهم ما خلا اسفارا منها باطيل واكاذيب نقارن القسوة فيها الفحشاء
 فمن يطالعها يشمئز ويمتعض وهي مفسدة للعقل والضمير ، فعجيب على رأي
 فلتر ان تتبع ارقى الامم كتاب اسفلها ، هم قوم لا اخلاق لهم يعيشون
 طفيليين بين الشعوب ويظلمون غرباء في كل معشر وموطن ، فكأنهم علق
 يمتص دماءها بالخساسة واموالها بالتجارة ، تاهوا على البسيطة يتجافى الناس

عنهم وتنبؤ البلاد بهم ، وما كانت الشعوب التي خالطوها لتألفهم وبألقوها
 لشدة تعصبهم واحتقارها ، فسواء هم والنور دون جميع الملل الا بمظاهر المعيشة
 وعلى دنائتهم رسخ اعتقادهم انهم صفوة البشر ، فترى الشعب المختار يعد
 نفسه بلا خجل شعب الله المختار ، انهم بحسب كتابهم ويقينهم واعمالهم
 اعداء البشر اجمعين فليس بمأمون لهم لما اعتادوه من الغدر ، وقد كانت
 خطتهم افناء ما عند غيرهم لابقاء ما عندهم ، فيحملوا الناس على الهدم لينبوا
 من الردم . ولولا جبنهم وضعفهم لاعتدوا عداء فظيعة فشريعتهم توصيهم
 بان يفنوا الناس ويملكوا الارض ، وقد فتكوا فتكا ذريعا بالامم التي غلبوها
 وما كتبوه بأيديهم يشهد على غلظتهم وقسوتهم ، وفي صحفهم منكرات
 ترجف لها الابدان وتندى الجباه فكانوا محقورين ومكروهين ، لم تخمد
 نار الحرب منذ دخلوا فلسطين ونزلوها معتدين ، ولم يثبت لهم ملكها يوماً
 اذ كانوا في بقعة منها طوراً غازين وتارة مغزوين ، وما انفكت الطوائف
 العربية فيها لتناجزهم حتى آواخر ايامهم وبعودتهم تعود الحرب الاهلية ، لقد
 كان عدلا ما اوقعه بهم ملوك بابل وفارس الذين دوخوا الارض ولم يحكموا
 على شعب حكمهم على اليهود . فلحق وحكمة كان تذليلهم وتثريدهم وقد
 رأوهم مطبوعين على الشر والاذى ، ثم ضربهم تيطس الضربة القاضية ففرقوا
 في الارض وكان القضاء ابديا ، فلن يجمع الانكليز ما فرقه الله ولن يصلحوا
 ما افسد ، وفي اتفاق الكلدان والرومان على قصاص واحد لليهود اثبات لعدالة
 الحكم في عظم الجرم ، فان تيطس الذي بطش بهم كان مشهورا بالصلاح
 والتقوى ، فاذا مرَّ به يوم لم يحسن فيه قال ضيعت نهاري ، رام اهل

السلطان ابادتهم ليخلصوا العالم من مساوئهم، وانهم اعداء النصرانية والاسلام
بشدة ضييمهم اميسى ومحمد وطالما اضرمو اثار الفتنة فكانوا لها وقودا، وما
انسوا قوة من انفسهم الا ظلموا فاعتدي عليهم كما اعتدوا، اول من شقي
بهم اهل مصر الذين انزلوهم ضيوفا وقدموا لهم ميرا وارضا، ولكثرة شرهم
اجمع الملوكة على ذبح اطفالهم وقرض نسلهم، فمن فرعون الى هامان الى
هيرودس جرى ذلك عليهم ولم يجر على غيرهم، ولا يخلو مآثر امة من صفحة
دموية بلوح فيها اليهودي التائه . ففي عهدي السلطانين الرومانيين تراجان
وادريان كانت لهم ثورة هائلة . فقتلوا كثيرين من الرومان في مصر وقبرص
وارتموا عليهم بأكلون قلوبهم واكبادهم، وادت فتنهم في اليمن الى اذهاب
ملك التبابعة وتسليط الاحباش . فشقي العرب بعواقبها وكانوا ذوي سلطان
وعزة ونعيم . فباغرائهم قتل ذنوء اس بعد تهوده نصارى نجران واحرقهم
ففقدا الحياة والملك، وانهم على ضعفهم يتعدون ويتوعدون فكيف اذا اصبحوا
اصحاب قوة وسيادة . وقد رأى منهم اهل فلسطين كل مستقبح ومستهجن
وهم اشابة تحمل اليهم فسادها وفساد الملل . ومنهم ومن لغاتهم واخلاقهم ثوب
فيه كل رقعة . وبين الدخلاء والاصلاء تباعد ليس بعده تقارب . وما كانوا
قابلين الامتزاج لان طبيعتهم تخالف كل الطبائع . فكيف لا يخشاهم اهل
فلسطين على ضعف والاوريون يطردونهم خاشين كيدهم على قوة، ان مهاجرة
اليهود الى فلسطين جرح بليغ في كشح الامة العربية . فهل يحمل نصراء
اليهود تبعة جريمتهم بابقائه داميا مفتوحا . ان يحملوها فلا يتحمل العرب الابرار
ما يغضب له عيسى ومحمد . لقد كتبت عليهم مقاطعة اليهود ومقاتلتهم لسلامة

الدين والعرض والوطن ، والويل لغنم تُتجمع في مأسدة من غضبة عربية تطير لها صهيون بما فيها من الاحلام والاعلام . ان لعمر عمامة تُنقشع بها الغمامة ولصلاح الدين جواد تضيق عنه الميادين . ففي ذمة عيسى ومحمد دفاع العرب عن بيت المقدس ليحفظوا ودائع آبائهم ويسلموها الى ابنائهم . فشر فهم يفرض عليهم ان يطردوا المقيمين من اليهود ويحولوا دون مهاجرة القادمين ان للمهاجرين اليهود حالات وهيئات تبعث على السخط والنفور . وربما كان الله مبتلياً للعرب ليهي لهم نفعاً كثيراً . فيقضي يوماً بان يستولوا على اموالهم ويجنوا ثمراتهم من التحسين والتمويل . وقد كان تنازعهم واليهود داعياً الى تأليف القلوب وتدير الامور . فليصبروا واضعين نصب اعينهم وانفسهم فكرة التغلب عليهم والتمتع باموالهم . وليعلم اليهود ومسعدوهم ان للعروبة قدرة تغلب الدهر . فما استشرت في مكان الا ثبت لها لا يريد بديلاً . ولا سكتى لهم في فلسطين ولا سكتة فليكتفوا بالتمني . ولن يكون صوتهم الا خافتاً حيث تعلو اصوات الموءذنين

٣٤

اولئك الذين اقتسموا ارضنا جعلونا غرباء فيها وبعضنا اعداء لبعض وبيننا خليط من الاجانب الساعين الى خرابنا وهلاكنا لا يرعون حرمة ولا يعرفون فضلاً . كم امة تسرح وتمرح بامان ورخاء في ارض واسعة اكثرها مهمل . وعلى هذه الارض الصغيرة تُنقتل الجماعات ويحشر الشريدون والطريدون . ولو اصاب ا كبرامة ما اصاب الامة السورية لما بقي فيها رقيق وهي الضعيفة بين ثلاث من اعظم القوى . وربما كانت افعل منها خفية قوة

رابعة هي قوة الكهنوتية اللاتينية . يحاول المعتدون قتل العواطف
 والافكار والقرائح فيا ضيعة الدماء الزكية المراقبة للحرية . ويعدون الاحرار
 من اهل الفتنة فيحكموا عليهم اشد الاحكام . فالذين يقاومون سلطتهم
 بالسيف والقلم تحسب اعمالهم جرائم . والشعوب تمجد الابطال والاحرار
 وثفاخر بهم مخلدة لاذكارهم . فما يراه الجانفون شرفاً رفيعاً في بلادهم يروونه
 اثماً فظيلاً في بلادنا . وحسن عندهم ان يذودوا عن اوطانهم وقبيح ان يذب
 السوزبون عن سوربة . فمن لمظلومين غصبوا كل شيء في الحياة وحرّم بعضهم
 تراب ارضهم بعد الموت . لا نفع من الشكوى فالارض لا بشر فيها ولكن
 من يعيش منهم يثأر لمن يموت . ان في شدة الظلم تحبباً للموت وحب الموت
 هو البطولة العظمى . وايس الموت رعباً لمن يعلم انه نتيجة لسبب فمن لا يولد لا
 يموت . ان الفحم للرماد واللحم للتراب والنفس لما فوق النجوم . ولهذا الامة
 مزايا قوية زادت بها العروبة ثباتاً وظهوراً . لا استراحة لنا ولا استقواء مادام الاجانب
 يرقبوننا بخزر العيون . قلنقل لهم ان استقبال السيف خير من قبول الحيف
 الاخطار محدقة بنا والابصار محدقة الينا فلنتكاثر ولنتكاثف متعاونين . واذا
 تخالفنا او تهاونا ذهب آمالنا ومتنا بين حبوط الماضي وقنوط الآتي . واما
 نألفنا وتجلدنا تشددنا وتغلبننا فعقد الخناصر والقلوب حياة الامة وخلودها . وفي
 تعاون الجماعات العزل قوة تصادم قوة الجماعات المسلحة . ما غلب السوربين
 اعداؤهم بل الجبل والتردد والفرق فقد كانوا لانفسهم غالبين . فمتي ينهضوا
 ويشبوا بوفاء ووفاق يخرج الاجانب من تلقاء انفسهم . فلا يتعرضوا للقتل
 والقهر حيث لا سلاح لهم ولا حياء . وليقابلوا خصومهم بالفضائل والمكارم

ليخجلوهم فقد تكون المقاومة السلمية انفع من الحربية . ستتفض الارض العربية وتطرح الاجانب عن ظهرها ان عاجلا وان آجلا . فتبقى للسوريين اراضيهم وامانيهم لانهم يؤلفون امة ذات ميزة يستحيل الفصل بين ابنائها وقد كان عرب الشام اهل الحمية والنجدة وصفوة العرب منذ العهد الفسافي الجميل . ويعقدون حلفاً عربياً لوطن اكبر ودولة كبرى فيهما البأس والمجد ولها المنزلة الرفيعة . وانهم لاحرياء بتحقيق الامال فقد جعلوا الشام قلب الدنيا في الدولة الاموية . الوطن الصغير للبعض والوطن الكبير للجميع ومن سعته سعة الآمال . فلا لبنان في سورية ولا سورية في البلاد العربية ولا وطن اصغر ضمن الوطن الاكبر ، اليس خيراً للسوري ان يكون له ملك عربي من ان يحكمه قائد اعجمي ، في ملك العرب تكون له السيادة والقيادة وفي حكم العجم الحقارة والعبودية ، في ملك العرب تكون له دولة وراية وجيش وسفين ، وفي حكم العجم لا يكون له شيء ولا يكون بشراً فيرى نفسه في وطنه وغربته مقهوراً فلا الغربية باقية له ولا الوطن عاطف عليه فما تكون لوخته والعبد في اميركية عزيز وهو في سورية ذليل . وشرعية تلك البلاد السموح تسوي بينه وبين الانكليزي والافرنسي ، والشرعة الانكليزية او الافرنسية تضعه في موطنه دون احقر الاجانب ، تلك حال يستحب عليها الموت وقد ولد سوريا شقياً غربته احبى له وارأف به من وطنه ، فيتأسف على حكم الدولة العثمانية وقد كانت سورية في عهدها جزءاً من سلطنة وها هي اليوم مستعمرة ، فلنربط القضية السورية بالقضية العربية لنستمد منها عظمة وقوة ، اجل ان دولة العرب في هذا العصر واهنة لحدائث نشأتها وقلة

عدتها ، ولكنها اذا قويت حصلت مهابتها وسلطتها فالناس تابعون للقوة
والضعف مخذول ومملول ، بالدولة القديرة تنتظم الاقطار العربية وتكون
سورية واسطة العقد ، فتسلم ارضنا وسلالتنا ولقنتنا واخلاقنا واعراضنا وسلامة
الامة بقوتها وقوتها باتحادها ، ولا خوف من التفريق والتمييز في دولة عربية
جامعة لها اسان من التساوي والتساؤل

٣٥

التسوية التي يفتخر بها الاوربيون والامير كيون لم يعرفوها الا بعد
معارك حامية وثورات دامية . فاكسبوها من التجارب والحوادث وملوكهم
مكرهون عليها خوفاً على رؤوسهم ونتيجاتهم . وقد كانوا اظلم الملوك ورعاياهم
اذل الرعايا . اما العرب فكانوا مفطورين عليها لما في نفوسهم من الانفة
والقناعة . وما احبوا يوماً ان يستبدوا على عزتهم فتساوى اميرهم وصعلوكهم
في الجاهلية والاسلام . والرسول دعاهم الى التسوية بحسن القدوة في مواقف
كثيرة ، وجاء بعده الخلفاء الراشدون فكانت سيرتهم خير السير . وكان
ملوك العرب يعاملون رعاياهم بالرفق والعدل طاعة لله ومطوعة لنفوس شريفة
ويجلسون لهم في ايام معلومة فيسمعون مظالمهم ويباشرون امورهم . فاصبحت
لهم جرأة عجيبة في طلب الحق لما اعتادوه من الحرية والعدالة . ولم تكن
رعية في دول العجم قريبة بهذا المقدار من ملوكها . فما اعظم امة كان
اجلاؤها امام الشرع اسواء لاشرافها ، هي الامة العربية التي انجبت خير الرجال
والنساء . فلقد كان ملوكها متواضعين لله على ضخامة الدولة ونخامة السلطان
والدولة العربية هي اقدم دولة سوائية شوروية . فما تطلبه الشعوب بالثورات

كان سليقة في العرب يعمل به ملوكهم غير مجبرين من شعب غاضب . اي ملك من ملوك العجم قال كابي بكر الصديق « ايها الناس وليت عليكم ولست بخير كم فاطيعوني ما اطعت الحق فيكم . اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له واضعفكم القوي حتى آخذ الحق منه » او كما قال الفاروق « الحمد لله الذي اوجد في هذه الامة من يقوم بالسيف عوج عمر » او كما قال عمر بن عبد العزيز « لا احد منكم الا وددت ان تكون يده مع يدي حتى يستوي عيشنا وعيشكم » . هذه امثال للينة والذكرى وقد حفظ المأثر منها الوفا واخبار الخلفاء والملوك في العدل والتسوية تكاد تكون مبالغة وغلوا لتعاليمها عن طبائع البشر . وقد اجمع الآثرون من جميع الامم على ان المأثر لا يعرف فاتحين ارحم من العرب واحلم واعدل . وكل الشعوب التي حكموها اعجبت بسماحتهم ومساهلتهم وهم اهل بدواة لا عهد لهم بشرائع مدنية وقواعد سياسية . تلك فطرة شريفة خض الله بها العرب تفضيلاً وتمييزاً . وماداخل الغلو الديني نفوسهم الا بعد اجتياح الصليبيين فكان مفسدة للايمان والدين وقد اقر حكماء النصارى ان الحملات الصليبية كانت افظع الحروب وافدح الخطوب على البشرية . فالحمس عرض منافٍ لجوهر الدين وكل الاديان تأمر بالحب والمعروف الا دين موسى . والعالم اجمع يشهد للعرب بالرفق على البأس والعجيب ان سماحتهم كانت في صدر الاسلام . وقد بلغت منهم انهم تركوا للمجوس بيوت النار وكتب الزندقة . الروم والافرنج بدعوى الحماية ركبوا النصارى مطايا وقدموهم ضحايا . واما فشلوا صدوا عنهم وخلفوهم في مواقف حرجة دفعوهم اليها . وقد كانوا ولا يزالون محرضين على الشر ولولا

معايتهم لما ثفان المسلمون والنصارى . وطالما اوقعوا هوءاء في المهالك فما
 استطاعوا حمايتهم ولا حماية انفسهم . ابدأ يقولون للخديعة والوقية نخشى تعصب
 المسلمين فيفسدوا صلاح الغاية ويقبحوا حسن النية . فكل غصبة للشرف
 والحق في بلاد الاسلام يعدونها تعصباً ذمياً ومنهم قد سرت عدوى الداء الى
 المسلمين . فالمسيح الذي اوصى بالرحمة ومحبة الاعداء سار اتباعه يقتلون
 وينهبون في بلاد المسلمين . وقد اطلال الرهبان تحريشهم وتحريضهم حتى
 اعتقدوا انهم يثابون بذلك وكان شعارهم « الله يشاؤه » ثم بتهم المسلمين
 بالتعصب بظلمهم وقد كانوا اكثر الناس تسامحاً ونساهلاً . وبقاء شرادهم من
 النصارى بين جماهير من المسلمين اكبر دليل على الحلم والرفق . فالنصارى
 يعيشون في بلاد الاسلام ولهم بيع واديار وصوامع . والمسلمون لا يمكنهم
 ان يعيشوا في بلاد النصرانية وان يكون لهم جوامع . العرب حكموا اسبانية
 والبرتغال سبعمائة سنة ودام لاهلها دينهم ولسانهم ولما تغلبوا لم يبق فيهما بعد
 سنين قليلة مسلم ولا مسجد ولا مصحف . فلم يصبروا يوماً ولا سماعاً على الذين
 صبروا عليهم اجيالاً فكانوا يقتلونهم او ينصرونهم قسراً او ينفونهم الى بلاد
 العدو . واستولوا عنوة على ضياعهم واموالهم ومنازلهم وحولوا مساجدهم بيعاً
 ولجهلهم اقلوا مدارسهم واحرقوا كتبهم وهدموا معاهدهم فاصبحت الديار
 خالية من العرفان والعمران . فبعد فتح غرناطة امر الكردينال خيانس
 وهو طاغية مشهور باحراق السجلات والمجلدات زاعماً ان فيها سحراً وكفراً
 والترك الموصوفون بالقسوة ملكوا رقاب الروم والصقالبة عصوراً وابقوا لهم
 امور دينهم وديناهم . حتى اذا اشتدت سواعدهم واستردوا ممالكهم ضاقت

البلقان واليونان على بقايا من المسلمين . وليس في المآثر الاسلامي ما في
المآثر المسيحي من الفواحش والمذابح . فالمسلمون في البلاد التي فتحوها لم
يعترضوا لعقائد اهلها ولم يضطهدوهم ويقتلوهم ويخرجوهم منها . اما النصارى
فكانوا ينكرون حتى بالنصارى الذين ليسوا على مذهبهم . فالباباوات وسلاطين
الروم وملوك الافرنج كانوا يستحلون الذبح والاحراق والمثلة والافحاش في
سبيل الدين . فما رأى البشر اجتمع من مذابح افرنسة وانكلتره بين البروتستنت
والكاثوليك . ولا افظع من محارق اسبانية في عهد ملكها فيليب الثاني
فلاصلاية النصرانية كان النصارى معذبين ومقتلين من ابناء بلدتهم وجلدتهم
ولساحة المسلمين كان النصارى واليهود والمجوس والبراهمة آمنين ، وما اجبروا
احداً على اعتناق الاسلام عاملين بقول الكتاب الكريم لا اكره في الدين
تالله ما التعصب الاسلامي شيئاً مذكوراً لدى التعصب النصراني
الذي منع شرب الماء ونشق الهواء . فان انصارى الشرق ان يفيقوا ويعلموا
ان الافرنج يخادعونهم لامتلاك اوطانهم وقهر مواطنهم . وطالما هاجوهم
للخصام والقتال ثم رحلوا فعرضوهم للرزايا والبلايا . فحماية الافرنج الكاذبة
سببت نكايه النصارى والتباغض والتباغي . من كان يحميهم والسيل العربي يحرف
مملكة الروم وخيل الامويين والعباسيين تدوس حيطان القسطنطينية . من
كان يحميهم وجحافل العرب واساطيلهم تضيق بها الدنيا ولها سلطان البر
 والبحر . من كان يحميهم وطارق بطرق الاندلس وعبد الرحمان يحتاج افرنسة
لجد الاسلام والعرب . من كان يحميهم والمسلمون يوعدون رومة من صقلية
بجند يرد حياض الردي ليستشهد في قتال العدى . من كان يحميهم وصلاح

الذين يمزق جيش الصليبيين في حطين ويعلمهم مثلة في الرفق والحلم والصفح
من كان يحميمهم ولويس التاسع ملك افرنسة اسير الملك المعظم في المنصورة
من كان يحميمهم ايام لم يكن للروم والافرنج حام ولا عاصم من جيوش
الأتراك؟ فبفضل الساحة الاسلامية عاشوا لا بفضل الحماية الافرنجية
وفي كثرة الحوادث ما يغني عن كثرة الاحاديث . فعمائم عمر ومعاوية
والمأمون اخي عليهم من تيجان قسطنطين ولويس ولاوون . ولأن يكون
الشرق حرّاً في البوذية والمجوسية خير له من كونه عبداً في النصرانية . لقد
شقي النصراني كالمسلمين في حملات الروم والافرنج بما جرت من القتل
والنهب والدمار . فما يصيب البلاد واهلها لا تنجو منه فئة دون اخرى والعدو
المحارب لا يعرف ديناً . فاذا اجتاحت الجيش ارضاً او حصر بلاداً او ضرب مدينة
حلت الويلات بالجميع . فالسكان لا محالة شركاء في النكبات وما ينوبهم
من الجوع والموت والخسارة والظلامه . فليعلم النصراني ان الحسنى في
محاسنة مواطنيهم فلا يجهلوا اصلهم ويخونوا اهلهم . ولئن كانت العبودية في
النصرانية فيلتر كوها للذين استعبدهم والمسلمين بها . لا راحة لهم في
القطيعة ولو ملأ الافرنج البلاد جنوداً . فمن يعلم ما يأتي به الغد والارض
للمقيمين لا للنازليين . المسلمون لا يكرهونهم لدينهم بل لملهم فلو رأوا منهم
صدقا واخلاصاً لا آثروهم على نفوسهم . وما اسخط المسلمين على النصراني الا
خيانتهم بمواطاة الروم ثم الافرنج . وقد قال دي فالير ازعيم الاراند « ان كرهنا
لاهل الستر الاقارب الذين يمانعوننا لا للانكليز الاجانب الذين يحاربونا » لجهالة
او غباوة بعض النصراني يظهرون الافرنج على ابناء جنسهم ووطنهم

فيعارضونهم ويقاتلونهم واذا غلبوا قالو اعتدي علينا . وما كانوا الا معتدين على انفسهم واخوانهم اسوء ظنونهم ونياتهم وعدم شعورهم بالقومية والوطنية فليسألوا الا فرنج خادعهم وباعثيهم ماذا يصنعون بفريق منهم يوالي اعداء لهم لا شك بانهم يخبونهم نحكم عليهم بالخيانة ونعاقبهم بالقتل صبراً . فلماذا يكون قصاص الخيانة عندهم حقاً وعندنا جرماً . وان حوادث التعدي في بلاد النصارى اكثر منها في بلاد المسلمين . انما في تلك يقال قتل فلان فلانا وفي هذه يقال قتل مسلم نصرانياً او نصراني مسلماً . فيرجع القتال والقتل الى الدين الذي هو براء منهما . الاشرار من المسلمين والنصارى يتقاتلون لبذاءة في منطقهم ودناءة في طباعهم . ولا يؤخذ العلماء والكرام بما يجنيه السفهاء واللئام وفي كل امة خيارها وشرارها

٣٦

برى العرب من التعصب الا ما اقتضاه الحفاظ على دينهم ودولتهم وما اجبروا احداً على اعتناق الاسلام بل ضربوا الجزية على غير المسلمين . فكانت بسيرة جداً يأخذونها منهم اجرة حماية ودفاع . وهي ما يدعى في هذا العهد بدلا جنديا تفرضه الدولة على الذين لا يدفعون عنها وعن انفسهم . وذلك حق يجب اقتضاؤه من رعايا يتمتعون بطيبات السلم ولا يتجشمون مكاره الحرب . فبإداء جزية قليلة عاش النصارى آمنين غير مبتلين بنقص في الاموال والاولاد . الاسلام على حداثة عهده حل وفاق العقول واطلق اعنة الافكار . واتاح للجميع حرية الايمان والعلم والقول والعمل . فكان الخلفاء يأمرون بتعريب كتب اليونان وبناء المراصد والمدارس والمكاتب . ويقربون

العلماء ويكرمونهم على اختلاف اجناسهم واديانهم . فكان الصابئة والنصارى
 يناظرون في مجالسهم علماء المسلمين ويجادلونهم في الدين . وجاهر المعتزلة بخلق
 القرآن وبشوا مذهبهم في دار الخلافة وتحت سيف الخليفة . ودرس المسلمون
 الفلسفة وشرحوها في مدارس بغداد وقرطبة . ليس في المأثر الاسلامي ما في
 المأثر المسيحي من المذابح والفظائع . اين تقتيل كلفيس وكرلمان لقبائل
 السكسون والجرمن ليحملهم على التنصر ؟ واين محاربة الاليبيين بامر
 البابا وتخريب منازلهم والافخاش بعيالهم . بعد هذا يقول المرجفون المخادعون
 ان الاسلام قام بالسيف فهو دين بطش والنصرانية دين رحمة . اجل انهادين
 رحمة في الانجيل لا في كتب القسيسين . وانما ضعفها في بادىء الامر لم يدعها
 تستعمل البأس والعنف . ولكنها لما قويت بصيرورتها دين الملوك جردت للفتك
 سيوفاً لم يكن الحلم لها مغمداً . ولم تشتد وتمتد الا تحت ظلال سيوف من
 ملوك الروم والافرنج وهذا من طبع البشر لا من وضع الدين . كان بأس
 الاسلام جهادا وحربا شريفيين بين جيوش وشعوب . وبأس النصرانية
 عداً وعذاباً بين فئات مستضعفة . وقد تعلم الافرنج الرفق والحلم
 من عرب الشام والاندلس . وكان المعلم الاكبر صلاح الدين الذي قابل
 قسوتهم بالركة وعنفهم بالطف . وطالما حى العرب لاجئين اليهم ممن اعتدوا
 عليهم . فأوهم وقاتهم وكسوهم ثم سرحوهم باحسان ومعروف . اقول هذا
 اظهاراً للحق الذي يحاول اخفائه المبطلون . اجل ليس التعصب الاسلامي شيئاً
 مذكوراً بازاء التعصب النصراني . انه ملا بلاد النصرانية دماً وناراً في
 الاعصر الحالية . فكان الباباوات والملوك يأمرؤن باحراق الرعايا وقتيلهم وهم

نصارى لخلاف في العقيدة . وحبسوا الفكر وحظروا العلم وحرموا مطالعة الكتب والتبحر في علوم الدين والدنيا . وعم الجهل والظلم والفساد حتى بات الافرنج ينتظرون قيام الساعة ، وطالت تلك الايام السود حتى تساوى فيها السائد والمسود ، الرهايين كفروا جان هوس واحرقوه حيا . وسجنوا غليظة لانه قال بدوران الارض . ومثلوا بكثيرين من العلماء وقد رأوا صوابهم خطأ وهديهم ضلالا . جرء كل هذا في الغرب والنصرانية قد تقدم عهدا والاديان اشد ما تكون حميتها في اول ظهورها ، اما في الشرق فادعى ابو الطيب النبوة ، وصاح المعري صيحات ريب والحاد . وانكر ابن سينا البعث والجزاء . وكذبت فئة بالرسالة والكتاب ، فما وقع تعذيب واحراق وثقتيل على اصحاب البدع ولم يمسه احد بسوء . بل كانوا مقربين الى الملوك مكرمين من الشعوب ينظر اليهم باجلال واعظام النصرانية والاسلام سيان بالمبادئ والفضائل وقد نشأ في ارض واحدة وصاحبها من امة واحدة ، وهذا دليل على ان السلالة العربية النبيلة النزمية مازها الله بالمحمد والمكارم ، فكانت منها هداية البشر وثقافتهم وقد عملت بحسب دينين هما مظهر اخلاقها ، اما سائر السلالات التي اخذتها عنها فقد غلبت عليها طباع السوء ، ان ملوك العرب لم يضطهدوا رعاياهم من النصارى ولم يخرجوهم من اوطانهم ، وقد بقيت طوائف النصارى على ضعفها وقلتها في اعظم الامم والدول الاسلامية ، اليس عجيبا بقاء الاقباط في مصر والسريان والكلدان في الشام والعراق ، فماذا كان يمنع المسلمين من اقتناء النصارى او حملهم على الاسلام بالارهاب والاكره ، لقد دوخ المسلمون بلاد النصرانية

ولم يتعرضوا لشعائر اهلها . وكان الخلفاء والملوك يفرضون عليهم صدق
التدين ولا يقبلون منهم اسلاما مزورا ، وكانوا يفرقون الهدايا عليهم في
اعيادهم ويكرمون اساقفتهم ورهبانهم ، وقد آلفوا المسلمين في بلدان كثيرة
حتى اصبحوا احب اليهم من ابناء دينهم ، وكانوا يتشاركون في افراح
الاعياد والمواسم ويخرجون جميعا كأنهم امة واحدة ، ان سيد المرسلين اول
من اوصى خيراً بالنصارى ، وحفظ وصيته الخلفاء الراشدون فترفقوا بهم
ودعوهم اهل الذمة ، وابقوا لهم بيعهم وشعائرهم على شروط لا يتجاوزونها
وكانوا يطلبون في اول عهدهم شطرا من البيعة لاقامة الصلاة حتى يتم بناء
المسجد ، وقد جرى ذلك في دمشق وغيرها بتمام الرضى والوفاق . وكان
جندهم لا يتلف زرعاً ولا يغتصب مالا ولا ينتهك حرمة ، فيتلقاه الاهلون
ببشاشة ويقدمون له حاجاته بنفوس طيبة وقد عرفوا الجميل والفضل ، لا
ادل على الشهامة والمروءة من وصية ابي بكر للجند اذ قال : اذا لقيتم عدوكم
قاتلوه مستبسلين والموت اولى بكم من القهقرى ، واذا انتصرتكم لا تقهروا
الامرى ولا تقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال ، ولا تقطعوا النخيل ولا
تحرقوا الزروع ولا تذبجوا من الماشية الا ما احتجتم اليه لقوتكم ، وامنوا من
ذل لكم ورضي باداء الجزية ولا تخلفوا وعدكم حتى لا عداؤكم ، وسترون
رجالا ناسكين فاحتفظوا بهم ولا تمسوا ديارهم بضرر « فهلا كانت قدوة
من الخليفة الصديق للملك وقواد يدعون حب المدنية والانسانية ! ويضارع
هذه الوصية الشريفة كتاب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري
وهذا نص ذلك الكتاب وهو من اكبر ملك الى اكبر عامل » اما بعد

فان للناس نفرة من سلطانهم ، فاحذر ان تدر كني واياك عمياء مجهولة
وضغائن محمولة ، فاقم الحدود ولو ساعة من النهار وياشر امور الناس وافتح
بابك لهم ، فانما انت رجل منهم غير ان الله جعلك اثقل حملا ، فاياك ان
تكون كالبهيمة همها في السمن وهو حتفها ، واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت
رعيته ، واشقى الناس من يشقى به الناس والسلام ، ان امثال هذه
الاقوال كثيرة في المأثر العربي فمن يتصفحها يجد عظما وعجبا . الفرق بعيد
بين المسلمين في فتوحاتهم والنصارى في غاراتهم ، وقد اعترف كتاب
الافرنج بجفاء الصليبين وغلظتهم على لسان المسلمين ولطافتهم . فترى
حتى عند المتعصبين منهم ادعانا للحق وقرارا بالفضل . وان بينهم نزهاء
منصفين يتعصبون للمسلمين على اقوامهم غضبا للحق واطهاراً له على الباطل
وقد كان المسلمون يعاملون بالحلم والكرم الصليبيين الذي نكلوا بهم
وقتلوهم خنقا وذبحا ، وكان الائمة يدعون الاساقفة الى كف الحرب وحقن
الدم عملا بجرمة الدين وذمة الانسانية . وقد اعتنق كثيرون من الصليبيين
الاسلام لما رأوه من فضله وشهامة اتباعه . دخل عمر بن الخطاب مع الاسقف
صفرون بيعة القيامة ، ولما حانت ساعة الصلاة هم بالخروج فقال له صفرون
انت في بيت الله فيمكنك ان تصلي فيه ، فقال عمر : اخاف ان يقول
المسلمون هنا صلى عمر فياخذوا بيعتكم ان في كلمة سيد العرب عبرة تجري
لها عبرة من جفن الشريف الكريم ، فحق لصاحب الرحمة والعدالة ان يملك
الارض ويسوس الشعوب ، وقد اقام احراسا من المسلمين على احرام
النصارى خشية الاعتداء عليها ، وبني معاوية بيعة الرها . وامتنع عبد الملك من

تحويل بيعة دمشق جامعاً حفظاً لعهد التسليم . وطلب الوليد بن عبد الملك الرصاص
 ليسقف به الجامع الأموي ، وبقيت قطعة لم يوجد لها رصاص الا عند امرأة
 نصرانية فابت ان تبيعه الا بوزنه ذهباً ، فقال الوليد يشتري منها كما تشاء ولا
 تقهر ، فلما قبضت الثمن ردت به نورعاً فأمر ان يكتب على صفائحها « لله » ولم
 يدخله فيما كتب اسمه عليه ، وأمر هارون الرشيد بترميم البيع التي هدمها
 عامل لآبيه المهدي ، وفي الأندلس ابقى العرب للنصارى شطراً من بيعة
 قرطبة الكبرى ، وظلوا يصلون وإياهم فيها حتى ملك عبد الرحمن
 الداخل ، فلما أراد بناء الجامع الكبير رأى القدارون ان لا بد من
 هدمها ، فبنى للنصارى بيعة اجمل منها قبل الشروع في هدمها وهي
 المعروفة ببيعة مريم ، وكان لهم سواها في قرطبة ثلاث بيع وثلاثة
 اديار ، فهل رضي ملك مسيحي بان يصلي النصارى مع المسلمين في
 معبد واحد ، وهل أمر ببناء مسجد او بالحفاظ على آخر ؟ والاسقف
 الاسباني اوليارس سامه عبد الرحمن وبغته بمظاهر التبجيل والتعظيم
 وكان صديقاً للعرب فسعى الى التوفيق بين المدينتين العربية والاسبانية . وكان
 المعتضد بن عباد يحترم العقائد المسيحية ويحل الرهبان والراهبات . فلما طلبوا
 جثمان القديس ايزيدور اخرجهم باحتفال وقد اقي عليه ملاءة ثمينة ، وكان
 المسلمون يتفانون في المشاحنات السياسية والنصارى آمنون بينهم لا يلحق بهم
 اذى . وطالما حاربوا تحت رايات المسلمين وكانوا لهم اعداء مخلصين . وقد كان
 في الأندلس حصنان دعاها العرب الاخوين . فبعد ان حاصرهما موسى بن
 نصير سالم حماتهما على الامان وظلا مستقلين . ثم فتحهما ابو القاسم بن عباد

واخذ من اهلها ثلاثمائة وجعلهم حرساً . فقاتلوا في جيش عبدالله بن الاطس
فانعم على رئيسهم واتخذوه وزيراً . وكان عبد الرحمن رفيقاً بالنصارى فرتب
لهم محضر الحماية واقام لهم قاضياً لقبه حامي النصارى . وكذلك فعل خلفاؤه
وملوك الطوائف وكان ابرهم بنى مزين . وكان نصارى الاندلس يدعون
المستعربين وقد تم استعراهم ديناً ودنيا . وكان المسلمون يزورون الكنائس
والاديار وينزلون ضيوفاً على الرهبان . فابن عبدالمطلب دخل كنيسة دمشق
وشفع للاخطل عند قسيسها . وابن شهيد زار كنيسة قرطبة فاحتفى به
الرهبان وقدموا له اطيب ما عندهم . واشتهرت كنيسة الغراب في البرغال
بتعاليدھا القديمة في ضيافة المسلمين . وكان المسلمون يتزوجون المسيحيات
فبقيين على دينهم حتى في قصور الخلفاء والملوك . فام عمر بن ابي ربيعة كانت
نصرانية ماتت والصليب في عنقها . وكانت ام خالد القسري والي العراقيين
رومية فاکرم النصارى من اجلها حتى ولاهم امور المسلمين . وبنى لها بيعة
في الكوفة فكان يضرب لها بالناقوس عند التأذين . وكانت هيلانة الرومية
عند الرشيد احب نسائه اليه فلما ماتت بكها ورثاها . ونساء الصليبيين كن
يتركن رجالهن ويدخلن بيوت المسلمين راغبات . وكانت زوج السموأل
بن حنصون في الاندلس نصرانية واهل ثقتها من قومها . فنشأت بتها على دينها
وبعد موتها ترهبت وبنيت ديراً في ملك ابيها . وولج شعراء النصارى وكتابهم
وعلماءهم دور الخلافة والملك . فلم يمنعهم ذلك من الثبات على نصرانيتهم
والمجاهرة بها والدفاع عن عقائدها . وكانوا يعتدون احياناً على المسلمين ويتجراؤن
على الطعن في الاسلام . فيؤخذنا الدمشقي كان والده يروح ويغدو الى قصر

عبد الملك بن مروان . وكتب دفاعا عن النصرانية رد فيه على فقهاء المسلمين
وكان الاخطل يدخل الى عبد الملك بن مروان بغير اذن وفي عنقه سلسلة من
ذهب فيها صليب . ومدح عبدالله بن الخرق المعروف بنابغة بني شيبان عبد
الملك وابنه الوليد فاجزلا له العطاء . وكان متعصباً لنصرانيته نفوراً بها
يحلف في شعره بالانجيل وكل حلفاء النصارى ، ونال علماء النصارى حظوة
عند الخلفاء وبلغوا اسمى المراتب . كان جرجس بن بختيشوع طبيب المنصور
وابنه جبريل طبيب الرشيد ومدير المستشفى في بغداد . وكان سلمو به طبيب
المعتصم فلما مرض عاده وبكى عنده حزناً . ولما بلغه خبر موته امتنع من
الاكل وامر باحضار جنازته الى دار الخلافة . فصلى عليها في حضرته بالشمع
والبخور على رأي النصارى وشيعها الى الباب . وكان اسحق بن حنين صديقاً
حميماً للوزير القاسم بن عبد الله . وكان ملك بن الوليد صاحب مكتب الجيش
عند المعتضد . وابو العلاء صاعد بن ثابت وزير المتقي . واستوزر العزيز بالله الفاطمي
عيسى بن نسطور . وابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي . كان رئيس الكتاب
عند عز الدولة . وابن العميد دخل بعد ابيه وزارة الحرب في ملك علاء الدين
وكانت المدارس والمستشفيات مفتوحة للمسلمين والنصارى لا اثار فيها
فكانوا يردون العلم من مشرع واحد ويأخذ بعضهم عن بعض . فابو نصر
الفارابي فيلسوف الاسلام الاكبر علمه المنطق ابو بشر متي بن يونس . والشيخ
الرئيس ابن سينا تعلم الطب من ابي منهل عيسى بن يحيى الجرجاني . وتصادق
العلماء من المسلمين والنصارى فكانوا متحابين متعاونين . كان ثابت بن قرة
صديق محمد بن موسى بن شاكر فادخله في خاصة المعتضد . وثابت بن هارون الرقي

رثى ابا الطيب المتنبى والشريف محمد الرضي الموسوي رثى ابن هلال الصابي
 فعوتب لكونه شريفاً يرثي صائباً فقال : انما رثيت الفضل والادب . وكان من
 جملة متعلميه مهيار الديلمي المجوسي . فلم يأنف من تعليمه وهو سليل النبي بل
 تطف به حتى هداه الى الاسلام . هذا قليل من كثير وهو كاف للاشارة
 والاقناع . ايبكون هذا التساهل في تلك العصور ونرى في عصرنا اشد
 التعصب ؟ اننا اذن لقوم جهال خاسرون نفقد ديانا من جراء غرورنا في ديننا
 ولا فرق بين النصرانية والاسلام وهما دينان توأمان جوهرهما واحد وكلاهما منا
 وفينا . فاذا شئت لا تكن مسلماً ولا نصرانياً انما كن عربياً

٣٧

بين السوريين من لا يشعرون بالعصبية والوطنية ولا يفهمون لها معنى
 وقد فقدوا مروءتهم لما نشأوا عليه من الجهل والذل والظلم . فلم تحفظ اخلاقهم
 وعواطفهم وحدة التربية والتعليم الصحيحين . فهم فئات متخالفة متعاددة فيها
 شيع واحزاب تذهب كل مذهب . وكل فريق منهم شب على حب الدولة التي
 دان بدينها او تعلم لسانها . فتراه متشبهاً بـ معلميه يتخلق باخلاقهم ويتزيا بازياهم
 ويحتقر ما ابقاه الآباء والاجداد . ولو كان ذا شيمة طيبة لحصلت له قدوة
 من مآثر الاجانب وانتفع بعلومهم وازداد حبا للاهل والوطن . لكنه ينقل
 ما ينافي الازواق العربية وينافر الاخلاق الشرقية . ان المدارس الاجنبية
 افقدتنا قوتنا الادبية ولئن ربحنا فيها قليلا فقد خسروا منها كثيراً . تلك المدارس
 مغارس الفتنة والفساد والخطر منها علينا اشد من خطر الدواع والمدافع . فهي
 بوثر الجرائم الغربية التي تذرهما رياح المطاعم . وفيها نفشي الامراض النفسية

فما نظنه فيها نافعاً يصير سماً ناقعاً ، ذلك سم بسري في الاخلاق والعواطف
فلنجعله محظوراً لا محذوراً ، السم الذي يدخل من الفم يهلك رجلاً او نفراً
اما الداخل من القلب فيقتل امماً وشعوباً ، التعليم الاخني هو القاصم لظهر
قوميتنا والهادم لبناء وطنيتنا ، نخير لنا ان نكون اميين معافين من ان نكون
متعلمين مرضى ، والجهل على صحة اخلاق واعراض افضل من العلم على دناءة
وسقوط ، فلنكسر كوؤساً شرابها سراب يمزج لنا فيها السم بالعسل ، ان
فريقاً يجهل لسانه ومأثره في مدارس الاجانب تأنف ارضه من مشيه عليها
وتعاف ضمه في حشاها ، رجاله يخرجون من بطون الى سجون ومن سجون
الى قبور ، فهو مكروه من الطبيعة والناس وقد اضحى لنفسه كارها ، في
هاتيك الاديوار والمدارس تدفن اجمل المناقب واشرف العواطف ، ونفقد
الحمية والمروءة بصحف وكتب ثلثي او تدرس فيها ، من اوربة واسر كية
تجيء من القسيسين افواج كأنها امواج ، وكل فوج يريد ان يكون له
النصيب الاوفر من الفريسة الممزقة ، فكنا بصدقتنا لهم اعداء انفسنا من
حيث لا ندري وقد اتونا رواداً ومتتبعين ، نحن اقرب الى المسيح من الذين
جعلوا دينه شر كما قد كان سوريا لا افرنجياً ولا امير كيا ، فالنصارى السوربون
في غنى عنهم والدين وصاحبه براء منهم ، الاجانب بفتحون في بلادهم مدارس ملية
وفي بلادنا مدارس دينية . فعلينا ان نقاطعها ونقاومها بمدارسنا على قدر الامكان
حتى يصير كل بيت مدرسة ، وان تحصل لنا قوة فلنضع لها طريقة تكون
شكيمة او تقفل ابوابها ونطرد اصحابها ، الفرنسيين دكوا باستيلاً واحداً
وعلينا ان ندك الف باستيل من الاديوار والمدارس ، يجب ان يكون التعليم

ملياً عربياً تُحصى فيه الاخلاق والعقول ، ولا يجوز تعلم اللغات الاجنبية قبل
 البراعة في العربية ، وذلك ليصير التعليم القومي راسخاً فلا يكون التعليم
 الاجنبي له ناسخاً ، النفس مطبوعة على هواها الاول وعليه كل المعول ، فمتى
 يتساو ابناء الامة في التعليم والتربية ينشأوا نشأة واحدة ويجاروا البيئة
 التي يعيشون فيها ، فلا ينفر النصارى من المسلمين وقد تأصلت فيهم ملكات
 العصبية والوطنية ، وتعمقهم في اللغة والمأثر كفيل بتجيب الاسلام اليهم
 لانه روح العروبة ، فمن المستحيل ان يحب المرء العرب ولا يحب الاسلام
 الذي كان به نصرهم وملكهم ومجدهم ، فلنعمل لنخلص من عراقل الاجانب
 وقد غدونا لا نستطيع مسيراً ولا يدعوننا نختار مصيراً ، حكموا علينا باننا
 قاصرون وما نحن الا راشدون يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من
 الواجبات ، فكيف نأمل اسعافاً او نلتمس انصافاً من الالى وصايتهم وحمايتهم
 وانتدابهم انواع من العبودية ، هي اعراض لمرض واحد يتدى بالشلل وينتهي
 بالموت ، وتلك كلمات يزوقونها فهي اشبه شيء بطلاء الذهب على حديد
 القفص ، فليتهم لم يرمونا بالداء ولم يأتونا بالدواء وقد جاءونا بمرضين لا
 ممرضين ، فليدعونا نموت على غير مرأى من حرايمهم وغير مسمع من تجديفهم
 حياتنا وقوتنا باستقلالنا فلنمت لنؤيده تأييداً قبل ان يقيدونا نقيداً ، الوطن
 للشعب كالبيت للرجل فمن يطبق ان يكون في مسكنه مأموراً ومنهياً ، فقل
 لكل امة تتحمل حكم الاجانب لا خير فيك فموتي ، وقل للانكليز والفرنسيين
 نريد استقلالاً مجرداً مطلقاً ، ابدأ يكررون وحجتهم في استعبادنا اننا ضعفاء
 وفقراء ينبغي لنا نجدة ومال ، واذا سألناهم لماذا تغصبون ميراثنا اجابوا نود

تأهيلكم للاستقلال ، فليقل لنا ساداتنا من اهلهم للاستقلال لنكون بهم
 مقتدين ، هل اهل الانكليز غزوة الفرنسيين لهم بقيادة غليوم الغازي ، او
 اهل الفرنسيين فتح الانكليز لبلادهم وحرب المائة سنة ، ولو كان صدقا ما
 يقولون لجاءونا بالكتب والاقلام لا بالكتائب والاعلام ، فالساعي الى
 الصلاح لا يحتاج الى السلاح . فما بالهم يحسبوننا اصدقاء ويدخلون الينا
 مسلحين ، الا يجوز ان يكون التعليم سلما فيرشدونا لاجر او باجرة ويتركوا
 لنا الحرية والسيادة ، لكنهم يريدون ان يملكوا الارض ويعفوا النسل ليصير
 العالم انكليزيا وفرنسيا ، واذا قلنا لهم نشاء ان تتجمع لنؤلف امة يقولون
 لستم صالحين ، فانتم فئات متفرقة لا حكماء فيها ولا زعماء ، والله يشهد ان
تفرقنا كان باغرائهم واغوائهم ، ولو تركونا وشأننا لاصلحنا ذات البين او
 تعالجتا حتى يفوز خيارنا وبقر قرارنا ، الامم جميعها اخذت نظامها من الفتنة
 وراحتها من الثورة ولولا غليان المقدر لما نضج الطعام ، وكل امة فيها احزاب
 مختلفة واوغاد عاثون انما القول الفصل للاكثرية المتغلبة ، لكن المعتدين لا
 يدعوننا نتصرف بامور بلادنا كما يتصرفون بامور بلادهم ، ما رؤي ولا
 سمع شعبا يستلذ حكم الغرباء انما بين الشعوب مخالفة ومعاملة ، فاذا مس
 احدها كرامة الاخر ثار غاضبا مهما يكن صغيرا ، الزنجي الاميركي يرى نفسه
 في وطنه سيدا لا كبر الاوربيين ، اما السوري فهو في وطنه عبد لا صفرهم
 هكذا يهدم المحتلون ما بنيناه بالرووس والضلوع . ويتلفون ما سقيناه من
 الدماء والدموع ، فلم يبق للشهم الابي بقعة عربية حرة يقيم فيها او يلجأ
 اليها ، ان له صبرا في الغربة وانى يتصبر وهو غريب في البلاد العربية ، فيرى

العيش تحت اية راية في غربته خيراً من عيشه في وطنه تحت راياتهم ، ولا يطبق ان يكون في ارضه خادماً للاجانب وهو الذي يستنكف ان يرى لهم فيها امتيازات ومحاكم ، وربما يتبرأ من ارض ليست لابنائها ومن قوم ليسوا لفتاهم » وعندما ينظر الى نزاع امته يود ان يموت او تستقل

٣٨

الاستقلال غاية كل حي وبدونه لا لذة في الحياة ولا نشاط في العمل حبه غريزة في البهائم والحشرات والاسماك والطيور . فجميعها تنصبو اليه وتموت حسرة عليه . والانسان بظلمه يسيء الى المخلوقات والخالق الذي اطلقها حرة تعمل وتسعى . الشريعة ترفع عن الولد وصاية الوالد عند بلوغه سن الرشد . والابن يحب اباه ولكنه يأبى سلطته الدائمة وقد ايقن ان الموت مورث الولد لا الوالد . فهل يرضى السوري سيطرة اجني فلا يتحرك او يتكلم الا باذنه وامره . حب الاستقلال قد يدفع النفس القوية الى الكفر بالخالق فكيف لا يدفعها الى عصيان المخلوق . فالذين ليسوا في ارضهم سائدين انذرهم بانهم من البائدين . الشعوب المحكومة من الغرباء لا تقوم بعبء ولا تقوم اود لانهم يدأبون على اضعافها واعثارها لئلا تنهض وتقوى ويستحيل ان يصنعوا المصلحتها ما يخالف مصلحتهم . خيانة الشعب بان يكون مستقلاً ولا فلاح له بغير ذلك . فلولا حرية العمل لم يكن للمرء فضل ولا عليه حرج . والصانع لا يميز في صناعته ما لم يكن مطلق اليدين فيها . فلا ترق ولا تقدم تحت حجر وحجز . الامة لا تعد من الامم الا اذا استقلت بداخليتها وخارجيتها . والمدة التي نقضيها في حكم الاجانب ليست من عمرها

لأنها في حكم الميتة . حتام يقول المتغلبون استم اهل الان تستقلوا ولو ننظرونا قليلا لرأوا ما يدهش ويعجب . فما نحن دون الامم الاوربية والاميركية التي استقلت على جهلها وضعفها وفقرها . واننا اليوم لاصالح منها واعلم ابان فوزها باستقلالها . لم نستقل لكونها غنية وقوية بل لانهم تركوها تستقل لزهد او عجز وقد كانت الحظوظ والظروف مساعدة لها . وشواهد الحال وصفحات المآثر حجج دامغة لنا عليهم ، ما كانت تلك الشعوب بالامس اثقف منا اليوم انما تهذبت تدريجاً فالضعيف الحر يتقوى ويتطلب القوة . ليس الاستقلال من علم المنطق لتلقنه منهم فالعصفور طليق ما لم يقنص ولكل حريته في المعيشة خشنة كانت او ناعمة . ولجميع الكائنات حكمة في تدبير شؤونها وتحسين احوالها . وما البشر في وطنهم دون النحل في خليتها والنمل في قريشها . لم التسرع في الحكم علينا وربما نبلغ في عشرات من الاعوام ما لم يبلغه سوانا في مئاة . ولنا من طبائعنا ومناقبنا ما فيه ضمان النجاح والفلاح . نحن اهل للاستقلال ولنا الحرية في ارضنا فزويد المتغلبين حتى يروا ما يكون منا . وبعد مهلة تعادل مهلتهم يسألوننا فنجيب وقد ساروا الهويناء في سبيل الهداية . ليدعونا نعمل فان فينا رجالا اكفاء ولنا شؤونا عظيمة . اما الرجال فالحوادث تظهرهم واما الامور فمرهونة لاوقاتها . وكما ظهر العظام فيهم في وقائعهم يظهر العظام منا في وقائعنا . وقد كان منا خير من اظلت الزرقاء واقلت الغبراء . الحوادث تكذب الاحاديث والتقدير يغلب التدبير . والاعتماد في امرنا على حسن مقاصدنا فلا يسيئوا الظنون والاعمال . انهم لمضيقون على شعورنا وفكرنا راقبون لحر كائنا فلا تنتفس الا باذن ومقدار . الاميركان واليونان والطلليان

والبلقان اعلنوا استقلالهم تحت السلاح . ثم ثبتوا في الجهاد حتى صار القول فعلا والامل حقا . وما من امة في العالم انتظرت جلاء ظلمها لتشهد استقلالها صيحة الاستقلال تقع في النفوس الابية موقع البذرة الطيبة في التربة الجيدة واما نبتت ونمت لا تقدر قوة على اقتلاعها . وربما سنحت فرصة فذهبت وما عادت فالنجاح في اغتنام الفرص . كم امر في ميقاته انقضى وفي غير اوانه مضى . وما يقدر عليه اليوم بمشقة يعجز عنه غداً بمشقات . الطامعون في ارضان يرضوا باستقلالنا ولو صرنا ملائكة اطهاراً . فلنعمل ونعمل لنحوزه متوكلين على الله وانفسنا . يزعم الذين يحكمون بلا محاسبة ان لا استقلال الا في ثروة ومنعة . وهاتان لا يحصلان قبل هذا . وما كانت الشعوب لتأخذ من حريتها على قدر جنديتها ومالياتها . فاصغر الجمهوريات والممالك واطعها واقعة في اميركية واورية بين اكبرها واقواها . والاقوياء على عظم ثروتهم وقدرتهم لا يمنعون الضعفاء من حريتهم . وما من تشابه وتقارب بمساحة الارضين وكثرة السكان والجند والمال . ولكن حرية المستضعفين قد كفها القديرون فدفع بعضهم بعضاً . وما اعتدت هناك امة كبيرة على امة صغيرة هي منها كالبعوضة من الفيل . بلادنا في حالة خراب وارتباك بعد الحرب فكيف نطلب الجيش قبل الدولة والمال قبل الخزينة . فالذي يهتم بان يبنى بيتاً لا يهتم بالاثاث قبل الاساس . ولا يكون نظام الجندية والمالية الا بعد الاستقلال والحرية . واستقرار الدولة مصدر لكل الامور . فالدولة الافرنسية قبل الثورة وبعدها كان شعبها جائعاً وخزيرتها فارغة وجندها خليطاً من الغرباء المأجورين . وابطالية في اثناء تحررها كان شعبها جاهلاً ذليلاً وبلادها مقسمة

وجندها سرايا من المتطوعين . والدولة الالمانية قبل اتحادها كانت امارات متقاطعة لا يجمعها ملك ولا جند . والجمهورية الاميركية الشمالية في حرب استقلالها كان شعبها لفيها وارضاها مستعمرة وجندها تجريدات وعصابات والجمهوريات الاميركية والممالك البلقانية كانت مستعمرات اسبانية وولايات تركية ليست على شيء من الثروة والقوة والنظام . انما الدول الكبيرة المستقرة تركت لها حرية التصرف والمصير ثم عرفت لها استقلالها بعد مساعدتها . بوصاية من ظهرت دولة اليابان ؟ وبرعاية من صارت الدولة الروسية اضخم الدول ؟ وبإشراف من بسطت الدولة التركية سلطانها ؟ وبانتداب من بنى العرب اعظم دولة ومدنية . ومن علم الالمان والانكليز والفرنسيين حتى بلغوا هذه الدرجة من القوة والكمال . جميع الامم سودتها نفوسها وعلمتها التجارب وصلحتها القدوة . ونحن من اشرف الشعوب القديمة والحديثة فهل اقل من ان نسوي اوضاعها . ليست افضل منا شعوب حرة مستقلة لا انساب لها ولا آداب . ولنا مدنية هي اجمل المدنيات نرجع اليها ونجدد معالمها ونرفع منائرنا . ونضيف الى مدينتنا القديمة حسنات المدنية الحديثة ونأخذ منها ما يوافقنا . ان ما يكرهنا عليه المستبدون يثقل اعناقنا ويفسد اخلاقنا . فليتقوا الله ولا يجرموا بحيلولتهم دون استقلال امة مجيدة قديرة . انهم يرجعونها القهقري مراحل ويمزمون البشرية منافعها ومواهبها . ففي ذمة الله كل قطرة من دمها وفلس من مالها وعاطفة من قلبها وفكر من رأسها . يجوز لهم ان يحكموا امة فيها من اشرف المناقب وانضج العقول . ومنها في جميع الاقطار شعراء واطباء وعلماء وفقهاء وكتاب . فلا يحسبوا السوريين زنجياً او

هنوداً ولهم مزايا من الطبقة الاولى . البشر اخوان متعاونون في عرف الاديان
والشرائع ففي اهانة انسان اهانة لجميع الناس . وفي الاساءة الى شعب اساءة الى
جميع الشعوب . ومن اعتدى على رجل او امة فكأنه اعتدى على الامم جمعا
وبالشرا اجمعين . فليشعروا اذا كان لهم قلوب وليرتدعوا اذا كان لهم ضمائر
ان الدم والمال يصرخان ابد الابدين

٣٩

سورية وسائر البلاد العربية لا تحكم فيها ولا تقسيم . الامة العربية
قد شئت عن الطوق فلا سلطة عليها الا من فوق . ولن ترضى بحماية او وصاية
او انتداب من الاجانب ايهم كانوا . ما هم الا عاملون لما فيه منفعتهم من
مضرة الآخرين . وغايتهم توسيع الاستعمار لترويج البضائع وتكثير المكاسب
فلا احد يصدق انهم يستولون على ارض حبا لاهلها واحسانا اليهم . الشعوب
المقهورة ترفض جميلهم وقد صاروا الد اعدائها بكثرة ادعائهم . وما افلحت
امة الا باجتهادها واعتمادها على نفسها . الصديق يرضى مساعدة صديقه ويأبى
ان يتحكم في بيته . وله الضيافة والكرامة وليس له التسلط والتصرف
والدائن يقتضي دينه ولا ينتضي سيفا على المديون . فلا حكم للاجنبي على
العربي ان دائنا وان صديقا . رب امة والت امة ثم عادت لمس كرامتها وانفتحت
في موطنها كائفة الرجل في منزله . الاجانب كلهم سواء في امتناننا وما كان
الامير كان اطهر ذيلا واخف ويلا . اولئك القوم يدعون النزاهة ويلبسون
على الناس وهمهم من الدنيا تكويم الذهب . وقد انفقوا والانكليز على انزال
اليهود في فلسطين جزاء لنا على احسان واكرام . فاين ما يبشرون به وهم

ذابحوا السود ومطاردوهم . وحاقروا الصفر ومضطهدوهم . وقاهرو جيرانهم في
 الجزائر الفيلية وغيرها . والمكسيك دامية الاطراف وقد قطعوا اجمل
 ولاياتها واخصبها . يصيحون امير كية للامير كيين وهذه كندة جارتهم
 للانكليز وللفرنسيين بلدان وجزر امير كية تلقاءهم . فلو كانوا اصحاب نجدة
 لاستأصلوا شاة الاوريين من ربوع الامير كيين . والارلند اعطوهم من دمهم
 وقوتهم فلم يسمعوا صريخهم ولم يكشفوا غمائمهم والذين يظلمون الارلند كانوا
 ظالمهم . وما اكثر ثوا الاستشهاد مكسويني ورفاقه وهو الشهيد القائل « ان
 موتي انفع لامتي من حياتي » اما غمار الحرب فخاضوها لخوفهم على اموالهم لا
 لنصرة الحق وتحرير الامم . وكل امة ضعيفة طلبت معونتهم اعرضوا عنها
 وكان جوابهم لاهل مصر اطيعوا الانكليز اولى امركم . فلا يأمل السوريون
 والمصريون عوناً من الذين خذلوا الارلند وهم اقربون . ان في سقطة المانية
 ونكبة ارلندة عزاء لكل امة حزينة اطعموها ثم حرموها . ما كان مأمولا
 ليس به معمولاً فختام العمل بالمحال . ومن العجائب ان يهتم الامير كان
 للارمن ويهملوا الارلند . ليسوا باعوان ولا نصراء وما كانوا ليغضبوا الانكليز
 والفرنسيين ليرضوا الله والحق . فلا يأمل اهل الشرق اسعافاً وامداداً من
 اهل الغرب واثن اعطوا مثقالا اخذوا قنطاراً . ولامراء العرب عبرة بسيف
 بن ذي يزن وامرئ القيس في استنجاد الروم . كلاهما عاد خائباً انما سيف كان
 اسعد من امرئ القيس بنجدة كسرى . وقد نصره الفرسان لجوارهم وعدائهم
 للروم وشفاعة النعمان بن المنذر . فكان النصر من الحمية الشرقية والعصبية
 العربية . وهذان مثلان من امثلة كثيرة فليعول العرب على انفسهم وغير

الذين يعرفونهم . خير الناس من نفع وانتفع فليت الاوربيين والاميركان
يفيدون ويستفيدون . انهم يحملون الناس ما لا يطيقون ويبتغون ان يتمولوا
من فاقتهم . وجميعهم غرباء الوجه والقلب واللسان فلا افرنج ولا اميركان

٤٠

قيل من والى عدوك فقد عاداك ومن عاداه فقد والاك . فلنوجه ابصارنا
وآمالنا الى الالمان والروس فهم موالونا موالاة طبيعية . ان اعداءهم اعداؤنا
وفي اشتراك النفوس في العداوة ما يدعو الى اشتباك الايدي . فالعقلاء
يتفألون بالالمان وما كانت لهم سيئة عند العرب بل حسنات عند البشرية
جميعا . ولكنهم غلطوا بارضاء الترك آملين ان يمشي العرب وراءهم ولو
فطنوا لاكدوا الصلح بين الامتين . فبايثارهم للترك ساعدوا الانكليز
والفرنسيين على استمالة العرب . وقد كان سداد الرأي اقناع الترك بان
يتنازلوا عن حكم العرب ويعاهدوهم جيئانا واعوانا . او الانحياز عن الترك
الى العرب ودعوتهم في المشرق والمغرب الى استرجاع ملكهم وخلافتهم
اذن لقاموا بنصرهم وجاءوهم يعطون رجالا ويأخذون سلاحا فتيسر لهم جميعا
كسر اعدائهم في الشرق . الفرصة افلتت لتعس الالمان والعرب وكانت
الخسارة كبرى . فهلا يصاحون الخطأ فلا تذهب سدى وقفة الامبراطور
غليوم على قبر السلطان صلاح الدين . عسى ان تكون منهم نجدة فيعرف
العرب فضلهم ويحافظوا على الولاء . ويفتحون اسواقهم لبضائعهم وصنائعهم
ويأخذون منهم ما يحتاجون اليه . جميل ان يتعاون الناس بنفوس طيبة والدنيا
مكافأة لا مكافأة وسلطة الاحسان ابقى من سلطة الارهاب . فمن مصلحة

العرب ان يقبلوا على الالمان وبأخذوا عنهم كل علم وفن . انهم ارسخ الناس في العلوم والفنون ولهم فضل على الجميع بالاختراع والارخاص والتسهيل واينما يحملوا يحملوا والتبريز والتفوق لهم في المزارع والمصانع والمتاجر . وقد جادت الطبيعة عليهم بكل ما فيها من الحكمة والقوة فاكلوا المعارف وان هم الاصفوة الاوربيين . فقال فلتر الحكيم الافرنسي وهو عدو السلالة الجرمنية « الالمان شيوخ اوربة والانكليز كهولها والفرنسيس صبيانها » فما اعدل هذا الحكم الكبير في الكلام القليل . انصح لقومي ان يستعينوا الالمان ويستجدوهم جهراً وسراً . فتفد بعثات من العرب اليهم وبعثات منهم الى العرب والنجاح مضمون اذا تفاوضوا وتبادلوا المصالح والمنافع ، فعلى كل عربي ان يحب كل الماني ويعلم ان الدعداوة بين السلالة العربية والسلالة اللاتينية وقد شاءت الطبيعة ان يكون الفرنسيين اعدى الناس للعرب فكل ما هو افرنسي عدو لكل ما هو عربي . فينبغي ان يسري بغضهم في دم الآباء وحليب الامهات وقد وتروهم بما لا تدرك فيه الثارات . فكل النكبات التي حلت بالمالك العربية كانت منهم وهم الذين اوقفوا فتوح العرب في اوربة وكانوا اشد الافرنج تعصبا واكثرهم تعديا وافتكهم واقسامهم . فمن الحروب الصليبية الى اجتياح مصر والجزائر وتونس ومراكش وموزية فظائع نقشعروها الابدان . لقد اثخنوا واخشوا بالعرب في كل زمان ومكان وقضوا على ملكهم وحريتهم ودينهم ولغتهم . وربما يكون انقراض السلالة العربية تحت الراية الافرنسية . هذه سوربة التي يدعون حبها تبغضهم اشد البغض وقد شقيت بهم في حروب الصليب ولا تزال تشقى . انهم جعلوها عرضة

اظلمهم وعدوانهم وقتلهم ونهبهم وهدمهم فكادوا يفتنون سكانها . وكانت
 بلية نصاراها كبلية مسلميها اذ جمعهم على حد سوى . هؤلاء القوم اعدى
 الناس لنا فلنبغضهم بكل جوارحنا وبكل حاسة وشعور فينا . ولنبغضهم
بعيوننا وقلوبنا والستنا ولنبغضهم عظامنا في قبورنا . ولنبغضهم في اسواقنا
وبيوتنا ومعابدنا فقد هدموا ملكنا وحالوا دون استقلالنا واستقوانا . وان
 البغض اقوى سلاحنا في ضعفنا فليحلف الوالدون اولادهم ان يثأروا وينتقموا
 وليكن كل والد عربي كوالد حنبل البطل القرطاجي . فان اباه حامي القار
 حمله وهو صبي الى المعبد وحلفه ان يبغض الرومان . فبقي ذلك القسم مطبوعاً
 في ذهنه وقلبه حتى المات . وكان يذكّر في كل حين حلفته ووقفته امام
 الشعب . فلما شبّ حارب الرومان حتى بلغ ابواب رومة . فما اجدر الاب
 العربي بان يحلف ابنه في المحراب ان يحارب الفرنسيين . فيكون حظهم في
 البلاد العربية كحظهم في جزيرة صقلية . انهم لما استولوا عليها ضايقوا
 اهلها كما ضايق الممالك اهل بغداد . فاثمروا بهم وذبحوهم في ميقات صلاة
 العصر ولم ينج منهم الا واحد فرّ يحمل النعي ، فبارتحالمهم واستقرار حكومة
 ملية تنتهي الخصومات والمنازعات وتستريح الامة العربية

٤١

يا اخا العرب انت ابن اشرف امة فكن فخورا ايها . وقل الحمد لله
 الذي خلقني عربيا وبعث من امتي نبيا . ان امتك قلبت حظوظ الامم وكان
 لها التأثير الباقي بالتهذيب الاعلى . فكيف تطيق ان تكون محكوماً من الذين
 كانوا عند ذكرها نسيا منسيا . ان لها من المواطن اجملها ومن اللغات اكملها

ومن المدنيات اقدمها ومن الممالك اضخمها . وقد جمعت عز الملك وفضل
الرسالة فبستت ارضها بالدين على الدنيا . وايام كانت في الدرج الاعلى كانت
الامم في الدرك الاسفل . وملوكها وملكتها لبسوا الا كاليل وعمائم خلفائها
استحققت التيجان . حميد ان يتعصب المرء لقومه وبفاخر الاقوام ففي ذلك
دليل على عزة النفس وكرم الطبع . فانه يعلو بقومه ويحفظ كرامته وهيئته
بمحفظ كرامتهم وهيئتهم ويعرفان قدرهم يكون قدره معروفا . فليقتد العربي
بالنعمان حين افتخر بالعرب عند كسرى وفضلهم على جميع الامم لا يستثني
فارس . وما قال رجل انا عربي الا هزته الحمية واستفزته الاريحية . فيرى
نفسه في القصر ملكا وجبسه في الاسر فلكا . ان في العروبة شرفا ومجدا
للعربي منها عزة ونخار . والعروبة اشرف جنسية لتقدم عهدا وتعاضم مجدها
ولم يكن للجنسية الرومانية ما كان لها من السوءدد والعظمة . وقد ضمن بها
العرب على الشعوب و كان لهم في الجاهلية مغالة ومفاخرة بانسابهم . فكيف
وقد فتحوا العالم واعطوه دينا وشرعا ولسانا ولا يزالون اصحاب عظمة
من تذكارة العظام . فكأنهم في نعيم من جمال الذكور وما كان البؤس الا
ليزيدهم بأسا . وان في اعمال حاضرم ما يحقق آمال آتيم . لقد زالت سلطتهم
على الاعناق ولكنها باقية في النفوس . فلا زوال لديانتهم ومدنيتهم واغتهم
وشرائعهم وصنائعهم . ولا بد لهم من العودة الى الملك بقاء العصبية كفيل
بارجاع الدولة . دامت العروبة راسخة الارومة قوية الجرثومة فبستت فروعها
ونبتت زروعها . ولم تكن هذه المزية الالهالما فيها من اسباب الصلاح
اليونان والرومان كانوا ذوي بسطة وسلطان فلما دالت دوائهم اصبحت شرائعهم

اخباراً وصنائعهم آثاراً . اما العرب فخلعوا عروبتهم على الشعوب وطبعوا دينهم
ولغتهم على اللسان والقلوب . ودمغوا الزمان بسنة لهم مفروزة هي السنة
العربية الهجرية . فسلامة العروبة اعجوبة على شدة ما لاقته من الكوارث
والنوائب . وان لها اثرأ دائماً عجز الدهر عن محوه في التغيرات والتقلبات
فالاندلس استعرب اهلها ولولا تهامل العرب لثبتت دولتهم فيها فانتقلت منها
العروبة الى امير كية فكان لها شأن عظيم . ولا تزال عربية بغنائها وبنائها
وازيائها ومحاسنها واخلاقها وشيء من لسانها . منذ اجيال تملصت وظل العرب
لم يتقلص عنها فعالها منهم ختم غير مفضوض . فهي اسبانية ديناً وبياناً عربية خلقاً
وبنياناً وقد ورثت عنهم اجمل واشرف ما فيها . ان الطبيعة محافظة على سلامة
العروبة فهي كالساحل تجاه الامواج . ولا خوف عليها ما دامت الجزيرة
مصدرأ لها ومورداً . انها ينبوع الحياة والقوة للعالم العربي من المشرق الادنى
الى المغرب الاقصى . ولا صلاح الا بفتح ثاني وجرفة عربية تطهر البلاد
والعباد . وهذا امر واقع لا محالة بحكم الطبيعة المحتوم ، والدولة العربية العتيدة
كانت عدي حقيقة اذ كانت عند سواي رسماً

٤٣

كان العرب اصحاب عصبية يحفظون انسابهم ويتفاخرون بها وما كان
نفرهم بالامهات دون نفرهم بالآباء . فبات شرف ارحامهم كسرف اصلاهم
وللكريمات عندهم منزلة رفيعة واحترام عظيم . وكانوا لا يزوجون العجم
بناتهم لما فيهم من النخوة والانفة . فالنعمان بن المنذر امتنع من مصاهرة
كسرى ابرويز . ولم يكن للملوك العجم نصيب من الاميرات العربيات . وكان

اصغر عربي ينتسب حتى يصل نسبة باقدم الحدود . ولا شرف عندهم لغير ذي نسب حتى من الخيل والابل . وقد فضل الله امة الرسول في القرآن وفضلها الرسول في الحديث . فلما صارت الخلافة الى الامويين جعلوا دولتهم عربية بحتة . فكانت العروبة عندهم فوق الدين ودمشق فوق العالم . وفي ايامهم ترفع العرب عن جميع الشعوب لا اعتقادهم انهم ولدوا اساءداً وقواداً . وكانت تعترف بفضلهم وترى احترامهم حرمة وطاعتهم شرعة . وقد تغلبوا عليها بالحسام والكتاب وحببهم اليها اليأس والندى وما حملوها عليه من الهدى . ولم يرتب احد بافضلية العرب حتى ظهرت الشيعة الشيعية واصلها من الفرس كجميع الشيعة . فكان لها شأن كبير في السياسة كما كان للمعتزلة في الدين . وقد عرف اصحابها بالشعوبيين نسبة الى الشعوب التي دانت للعرب . فتجردت لتتقص العرب ومفاخرتهم وتفضيل الشعوب عليهم . وكانت تذمر في السر تحت حكم الامويين فكشفت القناع في الدولة العباسية التي علت بسقوط العرب . ونظمت القصائد والفت الكتب في مثالب العرب وطعنت عليهم بلسانهم وتحت سلطانهم . فكانوا يتغاضون عنها حلماً وكرماً او ترفعاً واحتقاراً . وانى ثبت حجتها وقد بانث افضلية العرب في الحكم والدين والشرع والالسان . فمارفعت رؤوسها الا نكسها الحق وفي اعناقها اطواق من المحارم والمكارم . ظهرت الدعوة الشيعية في قوة العرب وانقطعت - في ضعفهم واختلاط الاقوام على توالي الايام . فاصبح العارب والمستعرب سواء وكلاهما فخور بانتمائه الى العرب . فازدادت قوة العرب الادبية بعد القوة السياسية . وغدت اقطارهم يدخلها ابناء الشعوب مستغربين ويستوطنونها

مستعربين . وكأنها مصابغ تكسب الاعجمي ايا كان صبغة عربية . ولم يكن لاحكام الغرباء تأثير في اخلاقها وآدابها . فاجتمع ابناء الشعوب بالعروبة فامست بينهم رباطاً واورثتهم نشاطاً . فلا عصبية اقوى منها وقد جعلتها الطبيعة محولة غير قابلة للتحول . والفضل لبني امية في تقويتها يجعل الدولة عصبية وحسبان الاسلام ديناً عربياً . وما حفظوا العصبية الا بحفاظهم على اللغة والخلق والتربية . فلهم جميل مذكور بنقل السجلات الى العربية وضرب النقود بها والاجبار على تعلمها . وكانوا يعتقدون انه لا يصلح للحرب والحكم والقضاء الا عربي . فلو تبع العباسيون خطتهم واتموها لكان العالم الاسلامي كله عربياً . وعلى هذا النهج القويم تسير الدول في هذا العصر فتمنع الاجنبي من السيادة والقيادة . ففي ذلك صيانة الدولة وحقوق اصحابها اذ لا تقوى القومية والوطنية الا بتنحية الاجانب وحرمانهم . ليس للشجرة الا لحاؤها وليس للامة الا ابناؤها . فعلى الدولة العربية العتيدة ان تعمل لما فيه سلامتها وكرامتها . ولتكن لها اسوة بالدولة الاموية التي هي افضل الدول

٤٣

تعصب للعرب كثير من اشراف العجم وعلمائهم وعدوا منازعتهم كفرا وعصيانا . ومن افاضلهم جاز الله الزمخشري وابن فارس الرازي معلم بديع الزمان الهمداني . وكافي الكفاة صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ونخر الدولة . وقد فاخر شاعر فارسي في مجلسه بديع الزمان فقال له « جائزتك جوازك . ان رايتك بعدها ضربت عنقك » وقال عبد الله بن المقفع وهو من

اشراف الفرس « اعقل الامم وافضلها العرب ، فاذا فائني حظي من النسبة اليهم لا يفوتني من معرفتهم ، انهم حكموا على غير مثال وآثار ، يوجد احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في معسوره وميسوره . ويصف الشيء فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ، ويمحسن ما يشاء فيحسن ويقبح ما يشاء فيقبح ، هم اناس ادبتهم نفوسهم ورفعتهم هممهم واعلتهم قلوبهم والسنتهم فلم يزل حياء الله فيهم وحبائهم في الناس حتى بلغ بهم اشرف الذكر وختم لهم بملك الدنيا على الخير فيهم ولهم وللناس » ، ملوكهم لبسوا التيجان منذ اقدم العصور في اليمن ومصر والشام والعراق ، وكفى بالتبابعة ملوكاً اصحاب عظموت رفعوا العروش وعبأوا الجيوش . فخير بن سبا اول من نتوج بالذهب فتشبهت به الملوك . واني لارى قربى اسم ونسب بين حمير اليمني وحمور العراقي . ولا فسحة في هذه اللمعة حتى لاسماء الملوك الذين اعدوا اسيرة للخلفاء . ومن ملكات العرب الشهيرات بلقيس بنت الهدد التي ذكرها التوراة والانجيل والقرآن . عاصرت سليمان الحكيم وزارته حاملمة اليه الهدايا و كانت مدة ملكها عشرين سنة . وان في زيارة ملكة الملك في ذلك الزمن دليلاً على مدنية راسخة قديمة . وقد كان الدافع اليها حب العلم وحسن السياسة والمعاملة . وزينب صاحبة تدمر عرفت بملكة الشام وجزيرة العرب . وهي بنت امير غساني تزوجت اذينة ملك تدمر العربي . وكانت رائعة الجمال فصيحة اللسان ذات عفة وهمة . فعدها معاصروها فريدة الدهر لكمال حسنها وعقلها وادبها ، تعلمت الفروسية فبرزت على الفرسان واولعت باخبار الحروب والفتوح ، فسمت نفسها الى انتزاع دولة الرومان وسمت

ولديها قيصر المشرق وقيصر المغرب . وارسلت جيشاً فاستحوذ على الاسكندرية
وبعض مصر . فخافها الرومان ونازلوها حتى حصروها في تدمر ، وكتب اليها
قائدهم اورليان بالتسليم فجاوبته جواب ملكة عربية : « ان الحرب قاضية بيني
وبينك » ثم وقعت اسيرة وحملت الى رومة لبوءة مقيدة . فبكى الشرق اجمع
على ربة تدمر مليكة العرب . وقد بلغت تدمر في عهد ما لم تبلغه مدينة
من عظمة السلطان وثخامة البنيان . وضرب المثل في العز والمنعة بحفيدة
فارعة المنعوتة بالزباء اطول شعرها ، قتل جذية الوضاح اباه فلحقت بالروم
منطوية له على الثأر ، وما زالت حتى عادت الى ملك ابها وقتلت جذية ، وبنت
على الفرات مدينتين متقابلتين وجعلت بينهما انفاقاً وتحصنت . واشتهرت في
الحرب والسياسة ماوية او ماء السماء بنت عوف ام ملوك الحيرة . كانت
ذات حسن باهر وبأس قاهر تناجز الروم وتظفر بهم . فغزت سواحل الشام
حتى انتهت الى تخوم مصر . فطلب الروم اليها هدنة فانكرتها عليهم وضيق
مسالكهم . فسار بذكرها الركب ان وتغنى بمجدها ونصرها شعراء الجاهلية
كان ملوك العرب في الجاهلية والاسلام اسياد الملوك وملكاتهم سيدات
الملكات . وقد وصفت العرب بان العمائم تيجانها والسيوف سيجانها . فكان
الخلفاء يستنكفون من مدحهم بلبس التاج ، مدح ابن قيس الرقيات عبد
الملك بن مروان وذكر في مدحه التاج فسخط عليه وقال . يا ابن قيس
تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم . والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء
وهكذا ملك الملوك لم يرد ان يكون الا عربياً حراً معماً . اظهر العرب بعد
فتوحهم قبولا شديداً للحضارة والعمارة . والفاثون المستعمرون قبلهم قلما

بنوا مدائن جديدة ، اما هم فقد اختطوا مدناً كثيرة اصبحت عواصم كبيرة هي للفخر والمجد ، والمدائن العربية التي زهرت في الارض مثل الكواكب منها الرصافة والرقه والرمله والمعرة في الشام ، وفي العراق البصرة والكوفة وواسط وبغداد ، وفي مصر القاهرة وفي تونس القيروان وفي مرا كش فاس والاندلس فيها مدن كثيرة معروفة حتى اليوم باسمائها العربية واشهرها مرسية والجزيرة . وكفى باسم جبل طارق ختما عربيا ابدى على الارض الاسبانية . ما خلا تشييد الحواضر كان لهم في عهد الفخار المباني والمصانع العظيمة . واكثرها في الدولة الاموية التي بذت الدولة الرومية فالوليد بن عبد الملك كتب الى صاحب الروم يستعينه في اصلاح مسجد الرسول فبعث اليه بمائة عامل ومائة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الآلات وارسل صاحب القسطنطينية الى عبد الرحمن الناصر مائة وخمسين عموداً من الرخام لقصر الزهراء . وكان جامع قرطبة قائماً على الف عمود منقولة من نيمة ونربونة في افرنسة ، وبني موسى بن نصير دار الصناعة في تونس وجرى اليها البحر مسيرة اثني عشر ميلاً . واحتقر عبد الله بن عبد العزيز نهر ابن عمر في البصرة ان المصانع العربية لا تحصىها هذه النبذة وقد ضاق عنها المأثر الكبير وكان للمرأة عندهم منزلة رفيعة فمدح الرجل بنسبته الى ام منجبة . وقد انتسب الفساسنة في الشام الى امهم مارية ، وانتمى المناذرة في العراق الى امهم ماء السماء ، ومن الملوك المنسوبين الى امهاتهم عمرو بن هند وكنيته ايضاً ابو هند . وكان حاتم الطائي يكنى بابي سفانة وهو اسم بنته ، وكان النبي يقول انا ابن الفواطم والعواتك . ودعي معاوية الاكبر ابن هند اجلالاً

وتعظيماً ، ونسب سلم الخاسر الامين الى امه زيدة فلات فاه درا ، وكتب محمد بن الحسين بن علي الى ابي جعفر المنصور « لم نعرف في العجم ولم ننازع في امهات الاولاد » ومما اثر جدود العرب ان كان اكثر خلفتهم اولاد جوارى . فما اكرم واعز النسب العريق الذي ليس فيه شائبة . وعرف العرب بالحفيظة والغيرة والانفة والحمية . فالنعمان بن المنذر طلب ثار رجل من غسان اسمه الضيزن واخذ ديتة من ملوك الروم مائة الف دينار . والنعمان ابو قابوس ابى مصاهرة كسرى غيرة على اخته العروب المخفار ، ولجأت عشائر من العرب الى بلاد الروم فكتب عمر بن الخطاب الى قيصر « لتخرجن عربنا الينا او لتخرجن رومك اليك » وللخلفاء والملوك اخبار مشهورة في رشد العدالة وحسن السياسة . ومن اليسير منها تعرف نبالة هذه الامة النجيبة ، شكاه يهودي عليا بن ابي طالب الى عمر بن الخطاب فقال : يا ابا الحسن قف وخصمك ، فقال علي : اخطأت بتكنيتي ونفضيلي على خصمي ونحن امام الحق سواء . وكان عمرو بن العاص عاملاً على مصر فرفع خراجها . فكتب اهلهم يتظلمون منه الى عمر بن الخطاب فوقع في قصتهم « ان الله ارسل نبيه هادياً لا جابياً » فلما قرأ عمرو توقيع الخليفة امر بخفض الخراج . وخاصم مسلمة بن عبد الملك اهل دير اسحق عند عمر بن عبد العزيز فقال له : لا تجلس على الوسائد وخصومك بين يدي . فوكل بخصومتك من تشاء والا فحاث القوم ، ورفعت اليه مظلمة نصراني ادعى ان العباس بن الوليد بن عبد الملك غصبه ارضاً . فقال العباس اقطعنيها امير المؤمنين الوليد وكتب لي بها كتاباً ، فقال النصراني : يا امير المؤمنين اسألك كتاب الله ، فقال عمر

كتاب الله احق بان يتبع من كتاب الوليد . وجاء عبد الرحمن بن الانعم الى ابي جعفر المنصور يشكو اليه جوراً فقال : ظهر الجور في افرقية فجت مستجيراً بعدلك فاذا الجور يخرج من دارك ، فاطرق المنصور ثم رفع رأسه فقال : كيف لي بالرجال يا عبد الرحمن ؟ فقال اوليس عمر بن عبد العزيز يقول السلطان بمنزلة السوق يجلب اليها ما ينفق من بر او فجور . وكان عبد الرحمن الداخل يعود المرضى ويصلي على الجنائز ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم فتصدى له رجل عامي وقاح ومد يده الى عنانه وقال : ايها الامير لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بانصافي . والح الثلج على الرشيد في بعض غزواته فقال احد اصحابه : اما ترى يا امير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعية وادعة ، فقال اسكت ، على الرعية المنام وعلينا القيام . ولا بد للراعي من حراسة رعيته . وجلس المأمون يوماً للمظالم فادعت امرأة ان ابنه العباس اغتصب ضيعتها . وعلا كلامها كلام العباس فقال لها احمد بن ابي خالد : يا امة الله اخفضي من صوتك . فقال المأمون دعها يا احمد فان الحق اخرسه وانطقها . وخرج المعتصم بموكبه يوم عيد فناداه رجل يا ابا اسحق . افاراد الجند ضربه فمنعهم وقال : يا شيخ مالك ، فقل لا جزاك الله خيراً عن الجوار جئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك واسكنتهم بيتنا فنقصت عيشنا فلوى المعتصم عنان جواده وعاد الى قصره حزناً ، ثم امر ببناء سامرا وانتقل اليها مع جنده الاتراك ، فلولا ثقة الناس في اذعان الحكم للحق لما اجتروا عليهم في طلبه . ولما ظلم احمد بن طولون وقفت في طريقه السيدة نفيسة وقدمت اليه رقعة ، فلما عرفها ترجل وقرأ الرقعة فاذا فيها : جوروا فانا بالله

مستجبرون ، واطلموا فانا منكم متظلمون ، فاعتذر اليها وقد ملأت نفسه خشية وصار من اعدل الملوك . وكان العلماء والوزراء يعظون الملوك من غير ما هيبة ولا وجل ، وهذه فقرة من خطبة لفخر الدين بن لقمان لما تقلد الملك الظاهر السلطان « هذه البلاد المنوطة بك تحتاج الى ذوي رأي من اصحاب السيف والقلم ، فاذا استعنت باحدهم نقب عليه ثقباً واجعل عليه في تصرفاته رقيباً ، ومرهم بالاناة والرفق ومخالفة الهوى عند ظهور الحق ، وان يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالشعر الباسم والوجه الطلق ، والا يعاملوا احداً بالاساءة على الاحسان ، وان يكونوا اخواناً لمن تحت ايديهم من الرعايا » وقد كان حتى للصبيان جرأة في الخطاب والطلاب تحار فيها الاذهان ، اصاب البادية قحط في ايام هشام بن عبد الملك فوفد عليه رؤساء القبائل ، فجلس لهم وفيهم صبي له اربع عشرة سنة فقال : يا امير المؤمنين ان هؤلاء قدموا لامر فهابوك ، والسكوت طي والكلام نشر ، وان في يديكم فضول اموال فان كانت لله ففرقوها على عباده ، وان كانت لهم فلا تجبسوها عنهم ، وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، ان الله يجزي المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين ، والوالي من الرعية كالروح من الجسد . فقال هشام ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً ، وامر بمائة الف الف دينار تفرق في اهل البادية وله بمائة الف درهم ، فقال يا امير المؤمنين ارددها في جائزة العرب ، فما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة الناس ، ان عفة الغلام ونزاهته لا فضل من فطنته وفصاحته . والعرب في كل زمان ومكان مشهود لهم بسرعة الخاطر وحسن الجواب . ويحق لاجوبتهم ان نكتب بماء الذهب في محاضر من العاج

سئل العباس بن عبد المطلب ايما اكبر هو ام الرسول ، فقال رسول الله اكبر
مني وانا ولدت قبله ، هذه يا اخا العرب جرعة من نهر وموجة من بحر . وقد
اناف قومنا بالمحاسن والمكارم على جميع الاقوام ، فعسى ان ارغبك في مراجعة
اخبارهم ومطالعة آثارهم فتزيدك ادباً على ادب وشرفاً على شرف .



النهضة العربية نهبت في هذه الايام روح الشعوبية . فقام حتى الكلدان
بطالبوت بارث الاشوريين البائدين . وبرز فريق من السوريين يتبرأ من
العروبة باستغواء الاجانب . فاصبح يبكره ما احبه وكان مضنوناً به على الملوك
ومن قبل فضل قوم موسى البصل في العبودية على المن في الحرية . فما
اكفره بالنعمة وانقره من الحسنى وقد علم ان الشرف والمجد تحت العباءة
العربية . وان حضارة العرب جعلت بغداد عاصمة آسية وقرطبة عاصمة اوربة
والقاهرة عاصمة افريقية . لا يبكره العرب الا من يجهل لسانهم ومآثرهم وفيه
عرق من الرومية يرجع اليه . ولا عتب ولا لوم والشعوبيون عقولهم كعيون
الحسيرين . في قول المسلمين والنصارى نحن اولاد عرب البلى البيانات
واصدق البيئات . وقد كانت سورية مأهولة من نصارى العرب قبل الاسلام
وعليها ملوكهم . وبعض الامراء تنصروا في لبنان وهم من صميم العرب ومنهم
اخوة وابناء اعمام بعضهم نصارى وبعضهم مسلمون . وما كان الدين ليقطع
صلات القرى فالسوري مسلماً كان او مسيحياً عربياً بالولادة والفترة والنشأة
فلا يعرف نفسه الا ابن عرب ولا مواطنيه الا ابناء عرب . وعربي عنده
حتى الخبز والطبخ والحلو والتبغ والبناء واللباس والفرش والادوات . وكل

ما هو بلدي في الافطار العربية يدعو الشعب عربياً . وفي بداهة العامة ما هو اقوى من محاجة الخاصة فاذا لقي سوري مواطناً له دعاه ابن عرب . وبقي الامر كذلك حتى اصطلحت الصحافة على سوري ولبناني . وهذا الغرور اكثره بين اهل لبنان الذين لا يعلمون ان الذلة في القلة . وبعض الشعوب الضعيفة تشبه باحتدائها للشعوب القوية صبيانا ير كبون قصبا تشبها بالفرسان فليتردع المتجاهلون ويقتنع الجاهلون وهم انفسهم يقولون نحن اولاد العرب فابن عرب كل سوري وبنت عرب كل سورية . والسوريون يفتخرون بعروبتهم ويرونها شرفا رفيعا وقد ولدوا عربا في اثواب عرب وعربي ما فيهم وما حولهم . والحياة المدنية تجمع المسلمين والنصارى كأنهم جبلوا جبلة واحدة وانهم ليطربون لذكر العرب واخبارهم واشعارهم . والروح العربية تملأ كتب السياسة والادب . وفي وجوه الاكثرين الملامح العربية . والادلة كثيرة على عروبتهم واستعراهم عند التحقيق والتدقيق . فلما شرف بنسب اطهر من ماء السماء واظهر من ضوء الشهاب . فلتعرف به الى الملاء والا اصبحنا على خير مديبر وشر مقبل . ان سورية عربية بدمها ودينها واسانها . عربية باخلاقها وآدابها وعاداتها . عربية بمآثرها واخبارها وآثارها . عربية بقبورها وبيوتها واذكار ماضيها وآمال آتيا . عربية بترابها وصخرها ونباتها . وفيها يرقدملوك العرب وامراؤهم وابطالهم وشعراؤهم وعلماءهم وعليها يرقب اعقابهم نجوما تطلع من ظلم الاجداث فليس للاجانب الا الحرمان والخذلان . هذه الامة لها اعتصام بالعروبة لانها تأبى ان تكون امة . فالامم يخاتلون وهم انفسهم يدعون السوريين عربا والحقيقة يعرفها الاشعيون والشعويون . وفي

اللغة التي يتكلمها الخوارج ويكتبونها اثبات لفضل العرب وافضليتهم . فهي
وسمة لا تمحوها الاقوال وحقيقة لا تسترها الاوهام . فكل ما يقولونه ويعملونه
سيطرح في بالوعة لذهر اذ لا يصح الا الصحيح

٤٥

العرب مهددون من جميع الاجانب ومن كل الجوانب . ولا نجاه لهم
الا بان يتشدوا ويتحدوا في تدبير الامور . ان الذين طباعهم مختلفة يجتمعون
بالحالة المتفقة لدفع البلاء ، فكيف وهم اخوان وجيران وامة حالتها
واحدة . فلينتصحو ليسيروا ارشداً ويثقفوا ليصيروا اقوياء . لا قوة بلا
اتحاد ولا اتحاد بلا اتفاق وذلك ميسور بالتساهل والتفاهم . والذين رجحت
احلامهم وكرمت اخلاقهم بتلافون التي هي اقبح بالتي هي احسن . والا
اعتلت عربيتهم فعادوا لا يعرفون اوطاناً ولا يرفعون اعلاماً . فقدرتهم على
الاجانب باعتصابهم وتوحيد احكامهم وبلادهم . ان للافرنج كرة بعد كرة
صار فيها العربي حربياً وفي قصيف المدافع مواضع لهم لو يتعضون . ولئن يكونوا
ضعفاء في الحكم فلكن لهم قوة من حب الاقربين وبغض الاعداء . ان للبغض
قوة تضاهي قوة الحب عند اصطدام المنازع فليجمعوا آمالهم وعواطفهم كلما
جمع اعداؤهم جحافل وقذائف . فبعد الحفاظ يرون صبح الحرية منبججا على
ليل العبودية . واذا توسلوا بالقوة الادبية توصلوا الى القوة الحربية . قال
عبدالله بن حنظلة حين خطب في اهل المدينة عند المنبر « تباعوني على الموت
والا فلا حاجة الى بيعتكم » ولما ذكر مروان بن الحكم تصايحوا وجعلوا
يسبونهم وينزلون منه فقال لهم « ان الشتم ليس بشيء ولكن نصدق القوم

اللقاء . والله ما صدق قوم قط الا نصرخوا « لقد صدق فالصياح فاشل وكل كثير
 القول قليل العمل : كذلك الاناء الذي يتنفس لا يعود يصلح . واكثر
 الرجال اطفال كبار . لم تكن بلاياهم الا من التقاطع والتنازع ولن يكون
 لهم مقام ما داموا متباعدين متعائدين . فعلى قاتهم في بدء عهدهم
 كانت لهم قوة باتحادهم . واليوم على كثرتهم لا تبني لهم دولة ولا تخشى صولة
 وقد كانت قوتهم بشدة اتحادهم وصحة اعتقادهم لا بالعدة والعديد . فكسرت
 تجريداتهم جيوشا وفتحوا في ثمانين سنة ما لم يفتح بعضه الرومان في ثمانمائة
 وكانوا يتغلبون بصبرهم واقدامهم على القواد المجريين والاجناد المدربين . فلو
 فطنوا لتعاهدوا وتعاونوا معتبرين بما تراه ابصارهم وبصائرهم . حياة الامة
 بقوتها العصبية والخلقية والادبية ، فلتتوغل العروبة نفوسهم كلما توغل الافرنج
 بلادهم . السبل الاوربي يطغي عليهم ويفرقهم كما فرق سبل العرم ايدي سبا
 وانه لا جرف واهول فليبنوا له سداً اميناً من سد مأرب . وكفى بنسكة
 عرب المغرب عبرة وانذاراً . ومن وقائع الصليبيين في الماضي يعلمون مقدار
 جفائهم في المستقبل وما اقرب الغد من الالمس ، فالويل لهم اذا علق العرق
 الافرنجي بارضهم فاشتد وامتد . اني لهم نذير كزرقاء اليمامة فعسى ان
 لا يحل بهم ما حل بقومها . وقد علموا ان بين زرق العيون وسودها عداوة
 جراثيمها في العروق . وبين العربي والافرنجي من المباشنة ما لا يزول
 بالملاينة ، وقد كان اللين على ضعف تجربتها واطماعا . ان الافرنج يصانعونهم
 لينالوا اربا ثم يقولون لا نعرف عربا . واي شعب لم يجربهم ويتأكد ان اعمالهم
 تخالف اقوالهم . ومن يسمع ويقرأ اكاذيبهم لا يدري ايستخط ام يستخر

وبيكي ام يضحك . فلا يغتر العرب بالمواعيد والافاعي مالمسة جلودها حادة
نيوبها . انهم يظهرون هوادة حتى اذا استوثقوا قبضوا بايدي من حديد
وبعد ما ثبت اقدامهم وتركز اعلامهم يستبدلون العنف من الرفق والقوة من
الخدعة . فكلما دخلوا ارضا مزقوها وكلما حكموا امة فرقوها . ويصنعون
السلاح وبيعونه كالسلم احقر الجمهوريات الاميركية والممالك الاوربية
لكنه محرم على الشعوب الآسية والافريقية التي حجروا عليها وحجزوا سلاحها
فاصبحت عزلا لا تصنع ولا تشتري وقد احاطت بها الجيوش والقلاع . نام
العرب والافرنج ينصبون اشراكا ويطرحون شباكا . ولما استيقظوا ابصروا
الدوارع تدمر ثغورهم والمدافع تحصد جموعهم . فايقنوا ان لا طاقة لهم عليها
برماح دقيقة وسيوف رقيقة . وقد جنى الترك عليهم وعلى انفسهم اذ ضعفوا
واضعفهم . فهلا علموا ان لا حق الا بالقوة وللقوة فوجدوا كلمتهم توحيدهم
لله لتسلم اوطانهم واعراضهم . وقاوموا البوارج والقواذف بالاداب والاخلاق
ان يحفظوها تحفظهم فالافرنج تعلموا قبل ان تسلموا . قال بسمرق داهية
الالمان (غلبنا الفرنسيين بالمدارس) وقال المثل العربي (الدارس غلب الفارس)
فليدرسوا ويمرسوا ولهم ايمان وبقين

٤٦

لقد ذل العرب حتى للاذلاء وكانوا اعز الاعزاء . فبالتنازع فقدوا الملك
والخلافة وهدموا بايديهم اعظم مملكة . انها انبسطت في آسية وافريقية
واوربة حتى كاد الناس يصيرون امة واحدة . فبلغت مساحتها تسعة اعشار
العالم المعروف واظلت رايتها ثلاثة ارباع البشر . فاعظم بدولة كانت هذه

حصتها من الارض وكان هذا نصيبها من المجد . كل الدول لم تكن امامها الانحوما
امام الشمس ، واكبرها تبدو صغيرة لدى الدولة الاموية . فابن فتوحات الفرس
واليونان والرومان من فتوحات العرب . وقد علا خلفاؤهم حتى اوشكت
مفارقهم ان تزدان باكاليل من الكواكب . فكانت اوامرهم تصدر عن
دمشق وبغداد وتنفذ في الصين والهند والاندلس . وما كان بعد المسافة لينقص
مهابة الخلافة والعربي يسير في الشرق والغرب تحت راية عربية . تلك كانت
الدولة العربية في ايام الخلافة الاموية . وقد كان بنو امية اعظم الملوك وهشام
بن عبد الملك اعظم ملوكهم . انه ملك جميع البلاد والعباد واديت اليه
الجزية من الروم والفرس والترك والافرنج والبربر والزنج والهند والصين . ولم
تحدث قصة في مشرق الارض ومغربها الا نظر فيها هشام وتحدث بها اهل
الشام . فلما غدا العرب احزابا بانت مملكتهم اقساماً فعاونوا اعداءهم على انفسهم
وان نعاسة الامة العربية من امرائها الكثيرين الجائزين عليها المسوءولين عن
نكباتها . فلم تفقد ملكهم الا لانهم ارادوا ان يكونوا جميعهم ملوكا . وتلك
عزة عربية لا تزال حائلة دون اجتماعهم واتفاقهم . هكذا كانت حال الامثين
الافرنسية والالمانية قبل ريشليو وبسمرك . فالاول نزع سلطة الاشراف
بالفتك والالين لاعزاز الملكية . والثاني الف بين الامراء الالمان وجمعهم حول
ملك بروسية . ولم يتم لها ذلك الا بما وراءها من الشدة والقوة والمنعة
اما العرب فلا يخضع امير منهم لامير اذ ليس فيهم ملك عزيز قدير
عنده الاهبة والمهابة . فايام كانت لهم دولة راسخة مستقرة كان امراؤهم
عمالا لخلفائهم . وانكدهم لا يخضع بعضهم لبعض فيخضعوا جميعا للاجانب

وطالما كانوا اعوانا لهم فسلبوا ملكهم واحداً واحداً . فقد كان ملوك
الطوائف في الاندلس يحارب احدهم الآخر وبوالي عليه الاسبان . فانتزعوا
الاندلس منهم بقعة بقعة ومدينة مدينة وحصنا حصنا . واليوم هم كما تراه في
الحجاز ونجد واليمن وسواها . ولم يكن فشلهم الا من فقدانهم صاحب رئاسة
وسياسة وقيادة يشاور ويشار اليه . ولكن في بقاء العصبية املا كبيرا
بتأسيس الدولة العربية الكبرى . فبالقوة الكامنة في الاعصاب والنفوس تبنى
القصور على القبور

٤٧

ليت للعرب في هذا العصر ما كان لهم في جاهليتهم وصدر الاسلام
ففي بداوتهم لم يحسر الغزاة على وطء ارضهم . وقف الروم والفرس على
حدود البادية متأهبين متهيئين . ولبثت الامة العربية سيدة حرة في جبالها
ورمالها . وفي الدولتين الراشدية والاموية كان لهم حسن الايالة وعز الولاية
وما ضاعت الخلافة والمملكة الا بتحكيم الغرباء وتسليم الامور الى الدخلاء
لقد مهدوا الملك بصدورهم وهامهم وسيوفهم واقلامهم . فامسوا محرومين ما بني
على افلاذ اكبادهم وصار الى الفرس والترك والروم والافرنج . والبلية من
سياسة العباسيين بتقديم العجم على العرب والاعتماد على الموالي والمماليك . وقد
قال ابراهيم بن محمد العباسي في وصيته لابي مسلم الخراساني « ان استطعت ان
لا تدع بخراسان ارضا فيها عربي فافعل » ظنوا دولتهم اسلامية تقوم بالمسلمين
وان هي الاعربية لا تقوم الا بالعرب . فما كان الاسلام شافعا لهم ودافعاعنهم
عند نزوة الشعوية ونعرة العصبية . اسقطوا العرب فسقطوا اذ لا حمة

للدولة الا بناتها . ولو كان حولهم حاشية وجند من احرارهم لصانوا الدولة والخلافة وما نطاوت اليهم ابدي الممالك . فكان انحلال الدولة العربية واضمحلالها لبعث العرب عنها وقرب العجم منها . وقد عرف المنصور والرشد خرق تلك السياسة وحاولا العدول عنها بقتل ابي سليم والبرامكة . فعوج المأمون والمعتصم ما قوماه كما افسد عمر بن عبد العزيز امر بني امية . الملك بالعصبية وبغيرها لا تقوم دعوة . ويستحيل ان تترك امة عصبيتها وقد خلق المرء نخوراً . ومهما يكن ميله الى شريك الدين يبطل عند ميله الى شريك النسب . فالحكم بالدين فاسد . دون العصبية واللغة والوطن . العروبة كانت قبل الاسلام فهي جوهر وهو عرض . فليعمل العرب لديانهم كالترك والفرس وسائر الشعوب . لم يدع الترك الدولة للعرب من اجل الدين وهم بها احق واولى . ولئن صح حكم الترك للعرب بوسيلة الدين صح حكم الفرنسيين للاسبان والانكليز للامير كان . كل امة لها غيرة على عصبيتها وبدونها لا قيام لدولتها . ولا بن خلدون في مقدمته اقوال كثيرة في العصبية هذا مقتطف منها . « لا يصدق دفاع البشر الا اذا كانوا اهل عصبية ونسب واحد . بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعمة كل في عصبيته . وبها يكون التعاضد والتناصر فالنزعة الى ذوي القربى طبيعية في البشر . والقريب يجد في نفسه غضاظة من ظلم قريبه والعداء عليه . وبود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والممالك . والغلب انما يكون بالعصبية فلا يزال الملك ملجأ في الامة حتى تنكسر سورة عصبيتها او تنفى عشائرها . والدعوة الدينية من غير عصبية لا اثم اذ كل امر تحمل عليه العامة لا بد له من العصبية » كانت قوة العرب

في الدولة الراشدية والاموية من قوة العصبية . وما كان الاسلام وقتئذٍ الا
دينا عربيا او مبدأ عليه اجتمعت عصبية العرب . ولما استظهر بنو العباس
بالفرس زالت السطوة والهبة فانتصار العباسيين على الامويين انما هو انتصار
الفرس على العرب . وقد تلبس السياسة بالدين وتظهر بمظهره لأغراض وما رُب
فالفرس قاموا بدعوة العباسيين لانهم رأوا عصبية العرب حول الامويين
ولست سوى دعوة فارسية ثار بها المغلوبون الى الغالين واتخذوا الدين لها
سببا . واذ حاول العباسيون اصلاح الخطأ كانوا قد اصبخوا عاجزين
فشتان ما بينهم وبين الامويين وحول هؤلاء عرب وحو لهم عجم . الامويون
ماتوا اعزاء في سياسة ملك او قيادة جيش . والعباسيون مات اكثرهم
مقتولين او مخلوعين من الممالك

٤٨

يسأل كثيرون كيف سقط العرب و كيف ينهضون؟ وهذا سؤال ينبغي
للجواب عنه تبصر وتبصر . فانا كاتب مجيباً وعسى ان اكون مصيباً . جمع
الاسلام العرب فالف منهم امة قوية بخلقها وايمانها . والشعب لا يسود في
الحرب والسلم الا بهذين القوامين . وجد ذلك الدين للعبادة والسياسة فوصل
الدنيا بالآخرة وصلا جميلا . وقد علم الرسول العرب حتى كيف يأكلون ويشربون
فكتاب الحديث جامع لوازم الدارين ، كان الاسلام ديانة ثم تحول كهانة كما تحولت
قبله النصرانية . وقد مال به المتكلمون عن الوضوح والبساطة الى الغموض
والسخافة . فكان فساد الدنيا من فساد الدين وما كان اجمله ديناً زمن كان
ايماننا وبقينا . ان الاسلام سنة لاشيعة هي بنت الغلو . وما الازياء والطرائق

والسلاوس الاغربية فيه مأخوذة عن الفرس والهند والروم . وفي الشريعة العربية
المبنية عليه خير ما اخرج للحكم والقضاء . فان فيها من صحة التعليل وصدق
النظر ما يملأ النفوس ارتياحا وبقينا . ومن العجائب ظهور هذا الدين العظيم
في عصر اخرج معه اعظم الرجال . فكان الله اوجد لهم للقيام به والحفاظ
عليه ونشره في العالم . من ينكر الفضل والشرف على دين رسوله يقول :
«امش ميلا وعدمريضا . وامش ميلين وزر صديقا . وامش ثلاثة اميال
واصلح بين اثنين» . وثيقه وهو فضيل بن عياض يقول «قراءة آية من القرآن
والعمل بها احب الي من ختمه الف مرة بلا عمل . وادخال السرور على
الانسان قضاء حاجته احب الي من صلاة العمر كله . ورفض الدنيا احب
الي من التعبد بعبادة اهل الارض والسماء . وترك دائق من حرام احب الي
من مائة حجة بمال حلال» . كان للعرب قوة خلقية فسندوها بالتهذيب وقوة
حرية فدعمها بالتنظيم . ولما تلاقت الفطرة الطيبة والعقيدة الصحيحة ابرزتا
للورى جميع العظام والمكرمات . وفي مدة قصيرة اضحت القبائل المتباينة
امة متلاحمة . قال قائد الفرس عندما رأى الجيش العربي يصلي صفوفنا «ان
عمر علم الاجلاف الآداب» ولم يكن عمر بن الخطاب الا حافظ النظام
الذي وضعه الاسلام . فكانت غزوة العرب انسية وغزوات اكثر الشعوب
وحشية . ظهرت الدولة الاموية وهي الدولة العربية الخالصة . فوطدت للعرب
دينهم ولسانهم فبلغوا بها معظم القدرة ومنتهى الفخار . وكانت قوتهم
باتحادهم واجتماعهم حول سلطان واحد . وبعد ايام الفتوح جاءت ايام الفتوق
الفتنة التي احدثها مقتل عثمان فرقت العرب واضعفتهم حيناً . لكن قوتهم

عادت اليهم بغلبة معاوية الاكبر . فتم له بالبأس والحلم تجميع الشمل وثبيت
 الملك . وقد كانت الدولة الاموية اما للعرب وكانت العباسية خالة . فكانوا
 كلما ضيقوا ذكروا الامويين واسفوا عليهم . من قبل لم يضعف دولة الروم
 الا انقسامها الى مملكتين شرقية وغربية . والفضل للتوحيد في قوة الدول
 الكبرى . وقد كن ممالك وامارات دائم يسهن القتال والنزاع . ظلت الدولة
 العربية ذات سطوة وهيبة حتى اشتدت الشيعة وليدة الخلاف . فسقطت في
 وقعة الزاب التي انتجتها وقعة صفين . حارب عرب هناك عرباً فقتلوا انفسهم
 بالجحاجة والعناد . وما برح ذاك دأبهم فكل مملكة شادوها بايديهم خربوها
 حفظت الدولة العباسية بعض السيادة والمهابة للعرب . ولكن منذ ملك
 المعتصم داخلها الاعاجم واستبدوا بمناصبها . فامرضوا القلوب واصبح الخلفاء
 يخافون نقمة العرب . وتجاهى هؤلاء عن الدولة انفاً وحقداً فتفاقم الامر
 عاد الخلفاء معزولين عن قومهم فتحكم الترك والديلم . وكابدوا انواع
 الذل والعذاب بعدما جل الخطب بقتل المتوكل . فالدولة لا حماة لها الا
 الذين بنوها من اهل عصبيتها . ولا يقوم ملك الا بالعصبية التي تحرك الغيرة
 والحمية . قاتل معن بن زائدة مع بني امية فهدر دمه ابو جعفر المنصور
 فلبث مستخفياً ردحاً حتى ظهر في يوم الهاشمية . رأى الخليفة العربي في خطر
 من ثورة الفرس فضرب دونه بالسيف حتى ظفر بهم . وقد دفعته الحفيظة
 الى نصر عدوه ليصون وقار العروبة والخلافة . فابدى شهامة ونزاهة دللتا
 على انه عدو لمن عادى العرب . وانه لم يقاوم العباسيين الا لانهم حلفاء الفرس
 لا عزة ولا منعة الا يقوم اشداء ووطن حصين . ولا سلامة للدولة الا

بخلوصها من الشوائب الاجنبية . فكل دولة خالطها الاجانب كان مصيرها الى
 الدمار . وقد ظلت الدولة العربية عزيزة قديرة ما دام العرب فيها اصحاب
 الامر والنهي . سقوط الدولة العربية كانت علته تفرق العرب بالشيعة ودخول
 الاعاجم بواسطتها في الدولة . فبالتضاغن تخف احلام الناس وتطوح بهم اهواؤهم
 فينصرفوا عن المصالح والمحامد الى المكائد والوقائع . ويضعف بعضهم بعضاً
 حتى بذلوا جميعاً للاجانب . ان الاجانب في مراتب الدولة كجراثيم الامراض
 في مجاري الدم . وان حكمهم فيه سقوط المهمل وضعف العزائم وفساد الاخلاق
 والضمائر . فكيف يفلح شعب غدا فئات متشاحنة وقد حلت به كل الولايات
 فائقاء لهذا البلاء تجتهد الدول الحديثة في قطع المشاغب ومنع الاجانب . على
 اثر الدولة العربية ولت حضارتها . فان الدولة والمدنية رفيقتان تسيران جنباً
 الى جنب . وما يؤول في الاولى يؤول في الثانية وقد وجدنا لتعيشا معاً وتموتا
 معاً . ولا بقاء للحضارة بعد الدولة لانها مبدعتها ومقويتها وحافظتها . لا ينهض
 العرب ولا ينهون حتى يكون لهم نضوج سياسي ومسدي . والاحساس
 والادراك فيهم يقويهما التعليم والتهديب فتصبح لهم عبدة وقودة من الماضي
 والحاضر . ولا تتم الوحدة السياسية الا بتمام الوحدة الادبية . وهي التي تتلاءم
 فيها الاخلاق والعواطف والمنازع . فباتحاد هذه القوى فتحوا العالم وقد تركوا
 عصبية القبيلة لعصبية الامة والدولة . ولا يرجي لهم صلاح وفلاح ما دامت
 طبائع البداوة متأصلة فيهم . فانما الملك والسلطان ينالان بالحضارة التي فيها
 التألف والتعاون والتناصر . كانت البداوة ولا تزال شثرة في سبيل
 تجمع العرب وتمدينهم . وقد خافها الرسول العربي ومفتها وقاومها بكل ماؤتبه

من سحر بيان وبأس حديد . لا يتيسر اخضاع العرب وتجميعهم وثقيفهم
 الا بدولة عربية حرة راشدة قديرة تكون لهم كالخير للعجيين . فليتألب
 النبهاء وليتداعوا لاجلاء الاجانب وتأسيس هذه الدولة . وعليهم ان يقاطعوهم
 قبل ان يواقعوهم فالرفض والأعراض افعل من الحرب والاثخان . هكذا
 فعلت الشعوب التي تخلصت من السلطة الغربية . الكلام والجدال لا يجعلان
 التفاهم ميسوراً بين ملوك العرب وامرائهم . ولن يتزلوا عن الامرة لاحد
 حتى يظهر عليهم جميعاً . خلق المرء حربصاً فخوراً فلا يتخلى عما يملكه الا
 مكرهاً . فالاخضاع يكون بالقدرة والغلبة لا بالارشاد والاقناع . ان
 الامويين لم يثبت دولتهم الا الفتك بمنائهم فاستحلوا في سبيل سلامتها حريق
 الكعبة وقتل الحسين . وكل دولة راسخة تبطش ولا رحمة منها عند الجراءة
 عليها . الكردينال دي ريشليو بطش بامراء الفرنسيين لتوحيد الملكية . ثم
 وحدت الجمهورية بالقهر الامة الفرنسية . وكذلك الجامعات الجرمانية
 والايطالية تتما بالتغلب والتفوق . فسبق البيت البروسي والبيت السافوي على
 سائر البيوت الحاكمة . وباتتلاف البلاد في الوطن الاحد ظهرت العظمة
 والقوة في الممالك والجمهوريات . السيف يقضي في ايام مالا يقضيه القلم واللسان
 في اجيال . فليس لتوحيد الملك في العرب الا تغلب ملك عربي على جميع
 ملوكهم وامرائهم . فتجعله مناقبه محبوباً مرهوباً وتلتف حوله امة ذات
 اقتدار وامتناع . الحكم للسيف في تكوين الامم وتدير الدول . فمصطفى
 كمال وموسوليني وهتلر اعتمدوا عليه في الحفاظ والدفاع والاصلاح . ولا بد
 من تحكيمه لجمع العرب في وطن واحد ودولة واحدة . والاعتماد في هذه

المهمة على جيش ارعن لاتلصق به معرة . فيؤلف من شعب ذي مراس صعب
والسلطان عرفاص يحوق ويسوق ليجعله شديراً ظفيراً

٤٩

فشل العرب لا سيما السوربين اسبابه التخاذل والتعاس وحدائث العهد
في الحرب والسياسة . فلو حذقوا لعلموا ان من قدامه سورية وخلفه البادية
يصنع في القتال عجائب . ان المراس يسدد البشر ويشدهم ولا فراصة بلا
مراسة . فاهل بغداد من قبل بزعوا اهل باريس في حرب الحواجز اي حرب
الاسواق . اباح حاتم بن الصقر النهب للدهاء في فتنة الامين والمأمون . فخرج
رجل من اجناد طاهر بن الحسين فنظر الى قوم بغداديين لا سلاح معهم . فقال
لاصحابه مستهيناً بامرهم : ما يقابلنا الا من ارى . ولما اوتر قوسه وتقدم قصده
طارار في يده جنة مقيرة وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة . فكان كلما رماه
الخراساني بسهم استتر منه ثم اخذه فجعله في موضع من الجنة كالجمعة . وبعدما
انفذ الخراساني نشابه حمل على البغدادي ليضربه بالسيف . فاخرج حجرا من
مخلاته فوضعه في مقلاع ورماه فما اخطأ عينه . ثم ثناه بآخر فكاد يصصره
عن فرسه فكرر راجعاً وهو يقول : ليس هو لاء بانس ! فنظم شاعر بغدادي
في ذلك ابياتا هذه فخواها : خرجت الحرب رجالا يغدون الى القتال كالا سود
في دروع الصوف ومغافر الخوص . وليسوا يعلمون ما الفرار والواحد منهم
يحمل على الجند عريان . ويقول اذا ضرب ضربة او طعن طعنة خذها من الفتى
العيار « هكذا الشعب الناهض يتمرد فيتمرس . وعندما تعلو هممة
المرء يصبح مستصغراً للعضائم . فالعرب لا ينجحون لانهم لا يعرفون

التدريب والتنظيم . فاهل البرازيل شعارهم (نظام ونجاح) لعلمهم ان لا نجاح
بلا نظام . الاجانب يحكموننا لعلمهم في جهلنا وارتفاعهم في انخفاضنا . لقد
 مروا باطوار مثل اطوارنا ثم برثوا من عيوب كعيوبنا . فلنسكت ونعمل
 لننال فلن يكون لنا منيلون . وان المفاوضات والمعاهدات تنفعهم وتضرنا لان
 المكاشفة تدلهم على اما كن الضعف منا . فلنعود ان نتزع لا ان نلتمس
 لنعود قادرين بعدما كنا عاجزين . وخير لنا ان نبید ونفنى من ان نعد من
 السلالات المنحطة . قوة الامة بالحزبية الراسخة والزعامة الصادقة . ولا
 نصح الا الزعامة الحرة لان العبقريّة بنت الحرية . فلا مقدرة لزعماء في امة
 تسيرها الحراب وتوقفها القيود . فما تكون حالتها وزعماءها من رجال التجارة
 والديانة . وليس هؤلاء بصالحين للزعامة فلا يفلح شعب حيث يسود الناجر
 ويقود الكاهن . ان الزعامة الحقّة ينبغي لها التجرد والتزّه والزهد في المال
 لحسن المال . البلاد العربية مجني عليها وما اجنأؤها الا ابناؤها . انها خطيرة في
 المآثر وحقيرة في المظهر . وكل المآثر كبيرة اجمالا وصغيرة تفصيلا
 واكثرها زخارف واكاذيب تستر دناءات وقبائح كثيرة . وكل ما في
 هذه الارض شاذ واشذ ما يكون حكومة عربية اسماء اصحابها افرنجية . ورب
 حكومة كالشجرة السامة التي تقتل كل من يستظل بها . ولا تصلح حكومة
 بلا هيبة محقورة حتى من السفّل . كل ما عندنا تأباه العقول ونعافه الطباع
 خذلك مثلاً قضية حائط المبكى او الحائط الغربي . ولو عرف الحق والعدل
 لبقيت عينه غير معجّمة او محيت نقطتها . فقل معي وانت على يقين ان هو الا
 الحائط العربي . لقد زعج الانكليز العالم بهذا الحائط العتيق البالي ووضعوا له

شروحا وشروطا . وتحملوا خزعبلات اليهود على جنح الطريق وضوء النهار
 اهذه الحكومة من الحجر تستحق هذا الاهتمام من الذين يكومون الذهب
 لا لعمرى فالانكليز شعب رفيع قدير ذو جد ووقار . لكنهم يحبون ان يلعبوا
 في هذه البلاد التي تصير الرجال غلمانا . لا يخلص العرب ولا يسلمون حتى
 يصيروا هذه الاوطان وطنا واحدا . وما تم امر كهذا الا بالسيف والقلم الذين
 منهما قوة الحكم وكثرة العلم . فتصبح المدارس ملية يلحق فيها العلم والادب
 معا . ولا فائدة من تعليم بلا تأديب لان هذا قوام ذاك . وان الفضائل
 والمكارم لا تستجمع الا في الوطن الوحيد العزيز . وعلى ذكر الوطن والمدارس
 الملية اقول : اجاز بعض الشعراء والكتاب وضع الاوطان في موضع الوطن
 وهذا الاستعمال يدل على ضعف في العقيدة ونقص في الادراك . فالوطن احد
 كالله في العرف السياسي الحديث . والشعوب الحرة النابهة لا تعرفه الا بصيغة
 المفرد . ويقال بضاعة وطنية ومدرسة اهلية . والصحيح القول بضاعة بلدية
 ومدرسة ملية . ان الاحكام علامة الادراك والاكثرات للالفاظ دليل على
 الاكثرات للمعاني . فلنهتم بالصغير لتوصل الى الاهتمام بالكبير



عسى ان تكون عبرة للعرب فيبنوا دولة عربية خالصة تخلو من
 الشوائب وتخلو كل النوائب . وبحكم الشرع يكون عربيا كل مولود
 ومكتوب ومصكوك ويصير العربي سيدا له الامر والنهي . وتصدر
 الاحكام وتصدر الاحكام من العرب للعرب . واجتماعهم تحت راية هي المشرع
 واليه المهرع . وقد اتفق الامراء فوحدوا وطنا وابعوا ملكا ولهم قدوة ببايعه

عمر لابي بكر والعباس بن المأمون لعمه المعتصم . فيبعث العرب اعيانهم ونوابهم
 الى دار الندوة ومجلس الشورى . والمناصب للجديرين القديرين بدون تمييز
 في المذاهب والمواطن . فتصبح الامة واحدة والوطن واحداً وتصح ولاية
 الشامي في الحجاز والعراقي في اليمن . ولا فضل لعربي على عربي الا بما أوتيه
 من المناقب وما يأتيه من الاعمال . باتفاق العرب تتألف الدولة العربية
 الكبرى . وتنتظم البلاد العربية انتظام البلاد الالمانية بسياسة بسمرق
 والابطالية بسياسة كافور . وامام العرب طريقتان يختارون منها الفضلى
 الاولى الالمانية وهي ان تبقى لكل امير امارته وللملك سلطان على الجميع
 والثانية الايطالية وهي ان تتلاشى الامارات في الملكية وهذه الطريقة الاموية
 فينبسط سلطان العرب وله جناح في المشرق وجناح في المغرب . وتكون
 لهم دولتان عظيمتان ترعة السويس همزة الوصل بينهما . احداها الدولة العربية
 الشرقية وعاصمتها دمشق . والاخرى الدولة العربية الغربية وعاصمتها القاهرة
 ان في ذلك تسهيلاً لتصرف الامور وضبط الثغور . فعلى ثنائي البلاد وترامي
 اطرافها يتصعب حصر سياستها في عاصمة واحدة . والقوة مهما تكن كبيرة
 تصغر بتوزعها وبعدها عن عاصمة الملك . واذا تعذرت هاتان الخطتان وهذه
 القسمة يحسن تأليف مملكة في كل قطر . فتكون ممالك عربية متجاورة
 متضامنة كالممالك اللاتينية والجمهوريات الاميركية . واذا اجتمع عرب المشرق
 والمغرب في آسية وافريقية يشيدون دولة من اعظم الدول . ومساحتها تعادل
 مساحة اوربة او اميركية الشمالية . ناهيك عن خطورة موقعها وهي نقطة الدائرة
 من الدنيا ومحجة الشعوب . وفيها كان منشأ البشر والدول والاديان والمدنيات

منذ اقدم الازمان كان لبلاد العرب المنزلة المهمة ولا تزال كذلك حتى اليوم
فلاسكندر ملك المعمور ولم يجد احسن من اليمن . وكان يريد ان يجعلها
قاعدة لمملكته ومستودعا لتجارة العالم . فهلا عرف العرب قدر ما ملكوه
من الامصار فغالبا الناس والذهر لتأسيس دولتهم . للانكليز اعظم دولة في
الغرب واليابان اعظم دولة في الشرق وهم اصحاب جزر صغيرة قاصية . فالارض
باهلها والفضل للسكان لا للمكان . ذلك رسم ستعمل به اذ لا بد من نهوض
العرب كسائر الامم . فليست السلالة السمراء دون السلالة الصفراء ولها
نصف العالم والمآثر . ليسع العرب الى تحقيق امانهم ولو كانت دونها المنيا
وليعملوا لها اصطلاحا ونجوى حتى تصير قاعدة وعصبية وسيفا . مأثرهم مكتوب
بدم اجدادهم فليكتبوا بدمهم وصية لاولادهم . فاذا عجزوا عن اتمام الخطة
اقمها الآتون بعدهم . ان للشعوب آجالا تقصر عندها الاجيال . وانهم اصحاب
شدة ونجدة فلو تعاونوا لسدوا كل ثغرة ولكن قوتهم ضيعها التفريق . طالما
حاربت قبائلهم دولا وذوات جحافل واماطيل . فشرعوا الاسنة واطلقوا الاعنة
نجاه قذافة الحديد والنار . وكانت سواعدهم اصلب منها وافتك فعلمو الاعداء
البسالة والبطولة . اجل ان الاعاجم يخافونهم على افتراقهم وافتقارهم . فكيف
اذا وحدوا اوطانا واتحدوا اعوانا . حينئذ تكون لهم ايام كايام اليرموك
والقادسية وشريش . لقد كثر المتشائمون فقالوا لا اتحاد على اختلاف الاراء
والامراء . وان العرب لم يكونوا لدولة وملاك . وهذا القول مردود فترقب العرب
انما كان لذهاب اهل العصبية القوية . وكان تخاصم امرائهم لانهم لم يروا بينهم
اميرا يصلح لان يكون حاكما عاما وحكما اعلى . وقد كان مثلهم امراء الروم

والالمان والفرنسيس والاطليان . حتى اذا قويت سلطة ملوكهم خضعوا لها
 والتفوا حولها . وليس العرب متمردين بهذا المقدار خارجين من كل الفة
 وسلطة . لكن يعوزهم رجل متفوق يجتهد في تأخيرهم وشد اواخيرهم . فقد كانوا
 في جاهليتهم يذعنون لسيد معروف بينهم . ومن اسياهم قيس بن عاصم وعامر
 بن الظرب وعبد مناف . و كان موسم الحج يجمعهم حول الكعبة وفي
 سوق عكاظ . و كانت لقرش سداة البيت ودار الندوة . وفي هذا دلالة
 على استعدادهم للالفة وقبولهم للسلطة . ولما ظهر الاسلام جمعهم وصيرهم امة
 واحدة . فكانوا اكثر الامم طاعة لخلفائهم وقوادهم واشدها حفاظاً على الدولة
 وقد استحل عمال الامويين وقوادهم امورا تعد من الكبائر لسلامة
 المملكة وحفيظة الجماعة والخلافة . ايها العرب لا تدعوا التشاؤم يصح فيكم
 استخلفكم بمجد حمير ومضر وبكل مشرف ومقدس ان تأخذوا من ماضيكم
 عبرة واسوة لا تسيكم . ان كثرة الملوك في الامة تحرمها ملكا واحداً وتجعلهم
 عمالاً للجانب . اتريدون ان تعودوا الى شغب الجاهلية فيظل امراءكم عمالاً
 للافرنج كما كان الفساسنة والمناذرة عمالاً للفرس والروم ؟ امم اوربة وامير كية
 تولي امورها فلاحين ومحترفين لصلاح دنياها . وانتم تستنكفون ان تولوا
 امركم اشرف امير فيكم . واكثر الممالك في اوربة ملوكها ليسوا من شعوبها
 افلا تعرضون ان يكون لكم ملك منكم وفيكم

من الحيف والغبن ان تلم احدث الامم شعنتها ولا ترمي اقدامها بعثها
 ولا صغر الشعوب دول وجيوش وسفراء في القارتين الاوربية والامير كية

والامة العربية تائهة في بواديها ومقسمة بين اعدائها . وبعض الزنج صاروا
احراراً والعرب البيض الوجوه الشم الانوف عبيد . اما كفاهم شقاؤهم بحكم
الترك حتى يعودوا اشقى بحكم الافرنج . الا يشفع لهم فضلهم بالمدينة والعلوم
والآداب . الا يعرفون لهم جيلاً بدماء اهرقوها في سبيل نصرتهم . كلا
فالحق يعرفه المرء ضعيفاً وينكره قوياً . الاتحاد العربي يريد به كل العرب
لكن الانكليز والفرنسيين لا يريدون . فقد كاد يتم على يد عبد القادر ومحمد
علي لولا مقاومتهم ومعارضة الاوربيين اجمعين . انهم كانوا ولا يزالون
محبطين لمساعي العرب خشية بطشهم ومسطوتهم . ولولا مساعدتهم للترك لما
ظلموا متحكمين بالعرب . وكانت سياستهم ان يتركوا البلاد العربية ودائع
عند الاتراك حتى يتسنى لهم اخذها . فكانوا يضعفونهم ويقوونهم على العرب
وهم عليهم في اوروبا ومعهم في آسية . حتى اذا مدوا ايديهم لا يجدون مدافعين
ممانعين . باحتلالهم لسورية والعراق عاقوا العرب دهرآ عن تحقيق آمالهم
وكان في وسع دولة مستقرة منتظمة في دمشق ان تخضع البلاد العربية باسرها
ولو ظل السوريون والعراقيون مندفعين لساووا اشواطآ . ان اجتهادهم كان
عظيماً وقد ابدوا من الحمية والمقدرة ما ادهش الغرباء واعجبهم . لم يتحرك
الافرنج والامير كان لفجائع سورية ولو جرت عندهم لقامت القيامة . وذلك
من سوء الحظ لان السوريين شرقيون وعرب . تلك مكائد الافرنج الذين
يرون العباد عبيدهم والبلاد تليدهم . فينبشون قبوراً ويقولون نمدن همجآ
ونعمر بورآ . وينتهبون وينتهكون متغزلين بالحرية والمدينة . لا ريب في
تعمدهم تفريق العرب لئلا تكون دولة عربية . فهم مجرمون والمنقادون اليهم

اعظم جرماً . قبضوا على خناق هذه الامة ونقاسموا مواطنها اسلاباً . واكسبوا
تدمل جرحها وترأب ثأبها اقاموا بينها حواجز وسدوداً . فشققها الانكليز بفأس
اليهودية في فلسطين . وطعنوا الفرنسيين بحربة النصرانية في لبنان . قضي
الامر واقترف الظالمون جريمة كبرى . فالامة العربية ضحيتهم لازدياد
مطامعهم باستزادة املاكهم . خوف الانكليز على مصر والهند جعلهم يستحلون
كل المحرمات . وهم الفرنسيون جعل بحر الشام بحيرة لانيينية وان هو الا بحيرة
عربية . فلذ كر دولة عربية ترمق فرائصهم وترنش ايديهم . ولا خطر عليهم
منها انما مخاوفهم من سوء ظنونهم ونياتهم . انهم ليخشون انفراط عقد المستعمرات
والعود الى معاناة الشدائد من العرب . وليسوا بملومين فانهم لمصالحهم عاملون
وعليها ساهرون . وكل اللوم على العرب لتفريطهم وتهاملهم وانخداعهم . ليعلم
الافرنج ان العرب يريدون ان تكون لهم بلادهم لا يعتدى عليهم ولا
يعتدون ويريدون دولة جامعة حرة قوية تحفظهم ويحفظونها . ويريدون ان
يتضافروا ليصيروا اقوياء وينتصفوا من اهل القوة بالقوة وقد علموا ان فوهات
المدافع منها الحصول على الحقوق والمنافع . وان لا خلافة في خلاف ولا
دولة في خصام . فهم لا يرضون السلطة الا من السماء

٥٢

ستكون الدولة العربية عظيمة بين الدول . ولا بد لها من جيش بري
وجيش بحري يحشدان من جميع الطوائف والقبائل . في الجندية يتعارف ابناء
الامة وبتألفون ومنها الترويض والتهذيب . فيرسمو اصل الدولة العربية وتسمو
فروعها بجيش مرصوص واسطول مرصوف . ان الجيش مياج الامة والوطن

ومنه كل مقدرة ومفخرة . فعلى قدر جنديّة الدولة يكون قدرها . وقد اتخذ الله جنوداً له من الملائكة فبالجند صلاح الارض والسما . وهو الكفيل بتأمين العباد وتحويط البلاد . وها من امة عظمت الا بجيش مدرب منظم فمن عظم الجيوش كانت عظمة الشعوب القديمة والحديثة . والبأس والعز في الوطن الحافل بالحافل . الفضل للجيش بالانتصارات والفتوحات وحفظ الدول والمدنيات . وقد كان سقوط دول الاقدمين من اساءة تعبئتها واختلال جنديتها . فالتعبئة كانت على غير اجبار وتقرين والجيش يحشد عند الحاجة استنفاراً . تلك طريقة بانث عيوبها واضرارها للمتأخرين فاجتهدوا في التحسين والتصليح . وجعلوا الخدمة اجبارية واقتراعية والجيش المتأهب دائماً . فصار التجار والزراع والصناع متمرسين في السلم يجيبون الدعاء في الحرب . واكمل دولة جيش ملازم متهيء للحوادث والطوارئ . وسلطتها وقوتها وهيبتها بالجيش الدائب الدائم . بهذا النظام قويت دول اوربة ومرس رعاياها على استعمال السلاح . واقتدت بها دول الامير كان فبرزت اليها وبرزت عليها . وقد كانت الجيوش الاوربية اقل الجيوش عندما كانت آسية وافريقية تقذفان الجحافل الجرارة . رب دولة كبرى كالافرنسية او النمسية لم يكن جيشها يبلغ ثلاثين الفا . وكان الجيش الافرنسي في عهد الملوك بريماً مختلاً معتلاً . وكان الشعب الافرنسي اذل الشعوب وانفرها من الجنديّة والحرب فاضطر الملوك الى حشر الغوغاء والمجرمين والمشردين . وكان عمالهم بسوقونهم قسراً او يغفونهم بالمال والطعام والشراب . ونخبة الجيش الملكي من الالمان والسويس المأجورين والمصطنعين . فوجه الشبه قريب بينه وبين الجيش

العباسي في عهد الانحطاط . وما صار جيشا بلديا مليا الا في ايام الثورة الكبرى
والامبراطورية الاولى . وظلت نظمه تتحور وتتحسن حتى بلغت هذه الغاية
وللناس من دهرهم ما يتعودون . فعظمة الدول الاوربية وقدرتها من الجيوش
المحشودة والمدافع المحشوة . ولولاها لم تأمن دولة شر اخرى ولا طوعت اعصى
الاقوام في اقصى البلدان . فمن الحكمة مقابلة القوة بالقوة وايقاف الجيش قبالة
الجيش . ولا ادعى الى السلام من خوف الحرب . ولا ابقى للامن من تعادل السلاح
اما الدعوة الى تقليل الجند والعتاد فخدعة يجاهر بها في المجالس بينما يستعد
في المحاشد والمصانع . هذه الحرب نهت كل دولة غافلة فقامت تجمر جيشا
واسطولا . فراجت سوق الجندية اياما رواج وارندى بزتها حتى الغلما
فالتمرينات والتجهيزات قائمة في طول الممالك وعرضها . تلك همم الامم الحديثة
التي ليس لها ما اثر مجيدة . فما تكون هممة الامة العربية وقد كانت لها اضخم
الجيوش . عليها ان تربي ابناءها تربية جنندية حتى يصيروا كلهم جنودا . فيقبضوا
على الاسلحة قبضهم على المحارث والمعاول . ويكونوا في السلم اخوان الصفاء
وفي الحرب اخوان الفداء . ان في التربية الجندية علو الهمم وكبر النفوس
فهي التي تكسب حزما وعزما وبسالة وكياسة . وما نهضت امة الا بهذه
التربية والامة العربية كانت خير مثال . تلك كانت تربيتها في عهد الدولتين
الراشدية والاموية . والعرب اقبل الشعوب لها واكثرهم اقبالا عليها لانهم
امة محاربة احبت الحروب وتروضت فيها . فرجالها بولدون على صهوات
الخيول وينشأون بين السيوف . ولقد كانوا فرسانا وابطالا منذ اقدم الازمان
فكيف اذا تمرسوا وتمرنوا فالتحمت صفوفهم في الكتائب وكتائبهم في

الفيالق . واذا تجمعت هذه القوى في الجندية النظامية اخذت من السماء صواعقها ومن الارض زلازلها . فتلاشى امامها جميع القوى كما تلاشت في ايام الفتوح . اخذ العرب فنون الحرب عن الروم والفرس فغلبوهم بها وسياخذونها عن الافرنج فيغلبونهم . أي سلاح حملوه انتصروا به واي فن تعلموه برزوا فيه وقد عرفوا بسرعة المأخذ والمنفذ في كل الشؤون فادهشوا العالم باعمال هي معجزات . ففي خمسين سنة من العهد الاموي كملت لهم دولة ولغة وشريعة حولوا العالم بها عربياً مسلماً . على الدولة العربية المقبلة ان تحمل جميع العرب على الجندية يجعل الخدمة اجبارية فتؤلف جيشاً على احسن ترتيب . وتورسل بعثات جندية وتستدعي صناعات ومعلمين . وتنتقي من السلاح امتته وامضاءه ومن التعاليم افضلها واكملها والافوق ما كان المانياً . وتجعل الجزيرة لفتح ثان مستودع سلاح وذخيرة فهناك لا مانع ولا رقيب . وتضع مآثر الجندية العربية وتنقل كتب الحرب والانظمة الحديثة . فتكون عاملة بقول الكتاب الكريم « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ولها من القرآن والحديث كتابان حريبان فيهما الهدى الى قهر العدى . ولا بطالها وقوادها اقوال وخطب في الحرب تصح ان تكون قواعد . ولا بدع فقد كانوا اخبر الناس بها لطول المراس . اوليست قواعد الحرب في قول سيد العرب والعجم « الحرب خدعة » وفي قول رب الفرسان عترة بن شداد « ما دخلت مدخلا قبل ان رأيت لي منه مخرجاً . و كنت اضرب الجبان ضربة يطير لها قلب الشجاع » ومن يطلع على اخبار الفرسان في الجاهلية والقواد في الاسلام يعجب

لا آرائهم وخططهم في الحرب . كان الجيش العربي اعظم جيش رآه البشر وعرفه المأثور . فتضاءلت امامه جيوش الغزاة والفاحين وتم له فتح الممالك واثبات السلطان قرونا . ومحا بزحفه حدودها وصيرها مملكة عربية اولها في الصين وآخرها في الفرنجة . ولم ين في وقائعه كلها بانكسار او هزيمة . وبشدة يقينه جعل الشعوب تستيقن ان الله خلقه غير مغلوب . وهذا اليقين ضره في سهل بواتية وتحت اسوار القسطنطينية بحمله اياه على التهور فالتورط . وتبعة اندحاره واقعة على القيادة السيئة بزيادة الحماسة في الساحة الغربية ونقصها في الشرقية لقد فل على قلته اكثر الجيوش واتى في انتصاراته بالعجائب . وحمل الى الشعوب الحق والعدل على الاسنة والشفار . وجرت خيله من مكة والمدينة حتى وطئت اسوار القسطنطينية ودامت قلب الفرنجة . فجيوش اكبر الغزاة لم تكن ميادينها الا ضيقة عند ميدانه الافسح الاوسع . ولولا نفاذ المدد في سعة الفتوح لصار العالم اجمع عربياً . والعجيب من امره انه كان مؤلفاً من اهل كروفر لا دربة لهم ولا نظام . فما عثم ان صار جيشاً زحوقاً قاتل الاعداء مثل قتالهم وغلبهم بما اخذه عنهم ومنهم . وكان ظفروه بسلاح من الحديد وبآخر من الخلق والايمان . وقد بلغ معظم القوة والكثرة في عهد عبد الملك بن مروان . ان في وصف وقائعه تشديدا للعزائم . فخبذا لو يوضع تاريخ للجندية العربية على نسق الافرنج فيكون امجد التواريخ

٥٣

اما الاسطول فهو الركن الامتن لدولة ثغورها كثيرة معرضة للاعداء ومن يملك البحر يملك البر ومن يملك الاطراف يملك القواعد . وميدان

البحر ارحب لان اليابس ثلث والمائج ثلثان . وثروة الدولة ومنعتها بمقدار ما عندها من بوارج التجارة والحرب . وما كانت عظمة امة الا يبسط سلطانها على البحار . والتي لا سفين لها او قل سفينها قل حظها من العز والمال . فبالسفين وقاية الثغور وحماية الرعايا وتبادل المتاجر . فهو اسهل للحمل والسفر واقرب لتعارف الشعوب . وقد علم ذلك الاقدمون فلم يألوا جهداً في استكثار السفن واحكامها . فكان للفينيقيين فضل التقدم والتفوق اذ ركبوا البحر الى القاصية يحملون البضائع والصنائع . وعادت سفائنهم بحمولة الطيوب والمعادن الكريمة . نزلوا الجزر والسواحل فنشروا الحضارة واسسوا فيها المصانع والممالك . واينما حلوا حل الثراء معهم والعلم والعمران . فوطدوا بسفينهم دعائم المدنية الثلاث وهي الزراعة والصناعة والتجارة . فنالت ايطالية وفرنسة واسبانية نصيباً وافراً منها . وشادوا قرطاجة فاضحت نظيرة رومة وخصيمتها وكانت صور في العهد القديم كلندن ونيويورك في العهد الحديث . وربما ورث الانكليز صنع السفن ورغبتهم فيه من اهل فينيقية نزلائهم ومعلميهم قيل ان اسفارهم بلغت العالم الجديد فاستعمروا المكسيك . وقد استدل على ذلك باثار لهم باقية هنالك . ثم كان للروم سلطان البحر حتى جاء العرب فغلبوهم عليه . واول من صنع السفين واغزاهم في البحر معاوية الاكبر فانتصروا على الروم في معارك عديدة . قاد ابوقبس الاسطول العربي وفتح قبرص ودك عاصمتها سلاميس . وابو سرح دحر الاسطول البيزنطي على مقربة من الاسكندرية وفتح مالطة . وحصرت القسطنطينية مرتين في البحر لعهد معاوية واوعز عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان باتخاذ دار صناعة في

تونس لانشاء الآلات البحرية . ومنها كان فتح صقلية وقوصرة على يد اسد
بن الفرات . و كان معاوية بن حديج قد غزاها في عهد معاوية . واجاز موسى بن
نصير بالاسطول الى الاندلس في خلافة الوليد بن عبد الملك . ومسلمة بن عبد
الملك غزا اسية الصغرى في ملك اخيه سليمان وساعده الاسطول في حصار
القسطنطينية وحيد بن معيوب غزا قبرس في ملك هارون الرشيد واخذ ستة عشر
الف اسير . وقد كثرت اساطيل العرب حتى غطت البحار وشدت على الروم
والافرنج من كل الجهات . و كان الاسطول العربي في الاندلس اعظم
الاساطيل . فانهى في ايام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب وكذلك
اسطول افرقية . و كان قائده ابن دماحس ومرفاه للحط والاقلاع بجاية
والمرية . ولقي الامير محمد مراكب المجوس فاخذ قسماً منها . وهزمهم العرب
في البلاطة لهدد الحكم الثاني وقد ساروا اليهم في نهر شلب . والحاجب
المنصور بن ابي عامر غزا مدينة برتو في البحر واستولى على مملكة لثون . وقد
جهز اسطولا قوياً وشحنه بالجنود والسلاح فاقلع من قصر ابي دانس مفتاح
القصور . وعبر وجنده نهر شتوار على جسر من القوارب ونزلوا في البرغال
وهي لملك جليقية . ثم عبروا وادي مينوح ودخلوا شنت يعقوب وعادوا بالغنائم
والاجراس فعلقوها قناديل في جامع قرطبة . وفي وصف الرحالة ابن جبير
لشفلودي في صقلية دليل على ما كان الاسطول العربي من السطوة والمهابة
قال : مدينة شفلودي على قنة جبل واسعة مستديرة فيها قلعة لم ير امنع منها
وقد اتخذها اهلها عدة لاسطول يفاجئهم في البحر من جهة العرب » و كان
العرب قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم فيه . فلم

يكن للافرنج قبل باسطولهم ففتحوا وغنموا وملكوا كل الجزائر . وعت لهم ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واكرت وقبرص . وسردانية افتتحها مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف وكان ابو القاسم الشيعي واولاده يغزون سفينهم من المهديّة جزيرة جنوة فينقلب بالغنائم . والاجناد العربية خلال ذلك تجيز البحر الى البر الكبير وثخن في ممالك الافرنج في ايام بني الحسين ملوك صقلية . وقد ضربت عليها ضراء الاسود على الفرائس . وملأت بسيط البحر عدة وغددا فلم تظهر فيه للافرنج الواح . وبلغ اسطول الدولة الموحدية منتهى القوة والكمال في ذلك العهد . وظلت سفائن الافرنج حتى زمن قريب عرضة لاعتداء القرصان المغاربة . فكان ملوكهم يأخذون الامان لها من سلاطين مراکش وامراء الجزائر وتونس هكذا لم تكن قوة العرب في البحر دون قوتهم في البر . فللبحرية العربية مآثر مجيد اذ كانت العرب اصحاب الملاحة والتجارة . فخلالهم بحر الشام وفارس واليمن والهند والصين . وكانت البصرة مرسى سفن العالم وملقى التجار من جميع الاقطار . وفي حكايات السندباد البحري شواهد على عظم شأنها . وقد علم الانكليز ما لموقعها من الخطورة فاستولوا عليها وهم ابصر الناس بما فيه در الارباح . وفي حكم سليمان البربري في الاندلس اقلع بعض البحارة العرب من لشبونة ودخلوا بحر الظلمات . وبعد غياب طويل عادوا فاخبروا انهم وصلوا ارضا مجهولة اهاها حمر الجلود . وهذه رواية آثرين من البرغال فرما كان العرب اول من اكتشف اميركية . وبقي ذلك الخبر متواترا حتى كان باعثا لكونون . وعت اولئك الملاحون بالمغاورين وبهم سمي سوق

من اسواق لشبونة . تلك كانت قوة العرب البحرية ثم ادر كها الوهن حتى لم يبق لهم
لوحة على موجة . هذه سنة الطبيعة فبذهاب الدولة تذهب كل عظمة وقوة وجمال
ولما استأخر العرب استقدم الافرنج وغلبوهم على ما في ايديهم . فاكشفوا
امير كية واسترالية واهتدوا الى طريق الهند . وفلوا البحار تفتية حتى لم يبق
جزيرة مهجورة وساعدتهم على ملك البحار قوة البخار . فشرعوا يصفون
الاساطيل ويتنافسون حتى احكموها . فاصبحت هاتيك الجواري اسرع من
الطير واغوص من السمك . وفيها المدرعات والطرادات والغواصات والنسافات
وفي اجوافها حجم تقذف الصواعق . وكان الانكليز اكثر الاوربيين اهتماماً
بها واقتناء لها فاناف اسطولهم على كل الاساطيل وهو امتنها واقدرها . وما حملهم
على ذلك الا طبيعة بلادهم وموقعها من البحر . فبحكم الضرورة مروا على
ركوبه وصنع السفن فصانوا ارضهم ومستعمراتهم وامنوا غارات
الاعداء . فقوة الانكليز وغلبتهم باسطولهم وقد اعتمدوا عليه في ملك الهند
وسواها . بريطانيا العظمى سلطنة البحر وسيدة الدول لان اسطولها سيد
الاساطيل . فلا قوة لدولة الا باسطول ينقل بضائعها وكتائبها . هذه المانية
على بأمسها وبطشها فشلت في هذه الحرب لحصر اسطولها . ولو اتيح له الخروج
لسادت الدنيا غير منازعة . انه كان مضارعاً للاسطول الانكليزي بل متفوقاً
عليه لكن الهبة اجبته عن البراز . فالاسطول الانكليزي له المحل الاول ولولاه
لكان الانكليز اضعف الشعوب واققرها . ويليه الاسطول الاميركي
فالياباني فالإيطالي فالفرنسي . ولجميع الامم الاوربية والاميركية اساطيل
تتفاوت بالعدة والعدد . العربي حسير عندما يري من تلك البوارج

اشكالا والوانا ولا يرى لامته اعلاما على بوارج السفر والظفر . ونفسه وماله
 واهله ووطنه تحت رحمة الاجانب . فهلا يكون للعرب عود على بدء في صنع
 الاساطيل وملك البحار . نعم ان ذلك صعب عليهم جدا لما ينبغي له من التكاليف
 والنفقات . لكن لا عسير على امة بقوة الارادة وطول الثبات . فاذا غدت
 ذات دولة كثرت جبايتها وغزرت مصادرها ومواردها . فتستقوي تدريجاً
 وتصنع اسطولها لوحاً لوحاً . حينئذ تصبح تشارك في الحرب وتشاور في
 السلم تلك الامنية القصوى وقد يكون التحقيق بعد التأمل

٥٦

ان في هذا العصر قوة ثالثة من الطيران وليس ملك الجو دون ملك
 البحر والبر . وقد اضحى له شأن عظيم في الحرب وسيكون شأنه اعظم في اعمال
 النقل والبريد . كل دولة تكثر طياراتها وربما تكفي بسروها في حروبها
 فيصير القتال في الجو اكثر منه على الارض بعد عجائب من تلك المعارك
 وكان للطيارات فوائد جمة من نقل الزاد والذخيرة والرمي والاطلاع
 فالطيارات الالمانية ادهشت وارعبت بما لها من الضخامة والمتانة والجرأة في
 المطار والمغار . والاروبيون والامير كيون حذقوا في هذا الفن حتى كاد يبلغ
 الكمال . وطالما استهلك في سبيله مغاويرهم فغلبهم آخرون لا يتأخرون . فزاحموا
 الطير بعد مزاحمة السباع والاسماك وطاروا الى حيث لا تستطيع النور مطاراً
 وكلما اصعدوا اصبنا ونحن نبكي باننا واراكا ولا نبدي حراكاً . لقد سبقناهم
 في كل علم وفان فانتقموا منا بما اخذوه عنا . فلنا فضل الافتكار والاختراع
 ولهم افضلية الاتمام والاستعمال . قبل ان يتوهموا الطيران اقدم عليه عباس

بن فرناس حكيم الاندلس . فطار ثم سقط لضعف الصنعة وقلة الخبرة في
 بادئ الامر . اجل لم يكن العرب اصحاب الفن ولكنهم كانوا
 اصحاب الفكر . وفي حكايات بساط سليمان والفرس الطيار ولوايس الريش
 الطائرات من النساء دليل على شغفهم بالطيران ونشوقهم اليه . فبذا التدويم
 والتحليق من الطيارين العرب فوق البلاد العربية . ذلك هو المشهد الجميل
 الذي يأخذ بالابصار والالباب ! وليس الذين يعلون طائرين باطلب منهم للعلياء
 وما هم باجراً على المخاطر . سماءنا للطيران اصفى وريحنا اطيب وهمتنا اعلى
 فنعم الفعال السباق في الجو الفسيح والسبق للعربي الفصيح . فيصبح العرب
 املاكاً في الجو والبحر والبر وقد كان لهم ملك العالمين



تلك دعائم ثلاث للدولة ولا قيام لها ولا مقام الا بها . ان منها صيانة
 السلالة واللغة والمدينة ولا بقاء للقوى المتوالدة الا بالقوى المحافظة . السلالة
 العربية تكاد تنقرض بالقهر والتشتيت والادغام . وربما يصيبها ما اصاب
 السلالة الهندية في القارة الاميركية . ستقل من جانب وتندغم من جانب
 فتفني والذهر يبلي الحديد . فاكرم بالسلالة التي استجمعت فيها كل المزايا
 الحسنة والخلال الحميدة . وقد خصها الله بصفاء الالوان والاذهان
 وقوة الجسوم والعقول وحسن الملامح والهيئات . فاشتهرت بالظرف
 والكياسة وحدة الذكاء وحلاوة الشائيل ودقة الفهم ورقة الشعور
 وسلامة الذوق وسرعة الخاطر وحسن البيان وطلاقة اللسان . ناهيك
 عن البسالة والسماحة والشهامة والانفة والنجدة والحلم والوفاء . وقد عرف

الاعاجم فضلها فلم تكن الاحمودة منهم وممدوحة ونعتها كتابهم باجل النعوت
 معجبين باثارها واخبارها فقالوا في العربي انه اهيف القد مندمج الخلق جميل
 الصورة قوي البنية بهي الطلعة . وانه جواد شجاع شريف كريم طروب
 نفور احب الاشياء اليه الشعر والفروسة والجمال . وقالوا في العربية انها
 جميلة ذكية عفيفة فصيحة فهي بين النساء المرأة المثلى . تلك سلالة انشاها
 الله شاعرة فارسة . وقد كان لها في جاهليتها ما لم يكن لسلالة في مدنيها
 فليست فيها غلظة الشعوب وقسوتها في حال البداوة والهمجية . لقد خرجت
 من البادية بعظائم الامور ومكارم الاخلاق ولها دين ولسان صحيحان . فقصي
 الله لها ملك العالم ودرس فساده لبناء صلاحها . فدان بدبنها ونطق بنطقها وتأدب
 بآدابها وتخلق باخلاقها . وبما فيها من المحاسن والمناقب كان لها قوة عجيبة في
 تعريب الملل . فلم يمض ربح من الزمن على فتحها وحكمها حتى صار نصف
 المعمور عربياً . ولها صبغة في النفوس لا تحول ودولة في القلوب لا تدول . وقد
 حملت ديانتها ولغتها وازياءها وعاداتها الى اقصى البلدان . وخالطت جميع
 السلاسل واعطتها من خالص دمها . ففي الصين والهند والفرس والروم من ذلك
 الدم الشريف . حرصاً على بقية منه في البلاد العربية هي وريح البادية عرضة
 للفساد . وصوناً لسلالة منها الانبياء والشعراء والملوك والابطال والغزاة
 والفاتحون . انها ضائعة في شتاتها وبدوتها فلا انتفاع من قواها ومواهبها . فهي
 كنهز كبير يجري في الغابات والقفار ذاهبا سدى . وانها قليلة النسل
 بتوحش بدوتها وخشونة معيشتها . فالبداوة علة تقاطعها وناقصها ولا اقبل
 منها للامة للعربية . لقد كانت ولا تزال يفني بعضها بعضاً في الغارات والغزوات

والقتلى في تلك السورات الوحشية من خيرة رجالها وفتيانها . لا يكثر النسل
 الا بالحضارة التي هي مصدر الالفه والوئام والدعة والرشاء . وفي قلة الضواري
 وكثرة الدواجن مصداق لهذا القول . الفتنة الدائمة نتيجة الروح البدوية
 المتأصلة . فبذا تحضير هذه السلالة النجباء وتهذيبها لتصير ذات نظام ونعيم
 خلق الانسان الوفا انوساً وهو بالتربية لا بالنشأة . فجميع الامم كانت في
 اطوارها الاولى ذات بداءة وجفاء وخشونة . فقضت الحضارة على البداءة
 ولم تدم هذه الحالة الوحشية في غير الامة العربية . وهذا عار على العرب المتمدنين
 في القرن العشرين . فليقاتلوها حتى يقتلوا جرائيمها والابل التي هي رمزها
 انها لعثرة في سبيل تقدمهم فلا تأخذهم في محمها رحمة ولا شفقة . يجب
 اتلاف البداءة واستئصالها لخير هذه الامة التي تشقى بها . فلا يحجم عن
 تسهيل صعوبتها وتلين صلابتها بكل الذرائع . فتخضع وثنقاد طوعاً وكرهاً
 بسطوة حكومة قديرة يجندها ودر كها . فتدخل اولاد الاعراب المدارس
 والمحاشد والمخافر والمتاجر والمزارع والمصانع . فيحملوا الاقلام والسلاح
 والادوات والمحاريث بالتشديد والتشويق . هكذا تستريح الامة وتستفيد وقد
 صارت لها القوة التي كانت عليها . ولا نتم هذه الخطة الا بمحكومة قوية
 في الشام او في العراق لانهما المراكزان الوحيدان للحضارة والسيادة . وقد
 كانت خطة المناذرة ملوك العراق في تطويع الاعراب وتحضيرهم . فكانوا
 طوراً يستميلونهم ويستهوونهم وتارة يغزونهم ويأخذون منهم رهائن او يولفون
 كئائب . وتبعهم خلفاء بني امية في هذا المسعى الجليل فلوطالت مدتهم لما
 بقيت بداءة في العرب . وما كانت المدنية العربية الا بنت الدولة الاموية

فالواجب الاكبر تجميع القبائل حتى تصير امة والاوطان حتى تعود ووطناً
السلالة العربية اصل العشائر التي استوطنت الشام والعراق ومصر وافريقية
وكان خروجها من جزيرة العرب . وقد اثبت ذلك آثرو الافرنج ومنهم
دوزي صاحب مآثر المسلمين في الاندلس . فمن الارومة العربية ملوك سورية
وبابل وبنوى والرعاة فراغة مصر ودعدون بانية قرطاجة وحنبلى قاهر رومة
وايوب الصديق الذي يدعو الافرنج ابوب العربي . وكفاها شرفاً وغراً
ان يكون منها المسيح ايل اليبيلين ومحمد سيد المرسلين . لقد احب قومه
ووطنه وفضلهما على جميع الاقوام والاوطان . وفضل حتى زهر الحناء
لانه نبات عربي فقال « الفاغية سيد رياحين الجنة » وايد حق العرب
وسلطانهم بالصلاة والحج . فالمسلمون في اقصى الارض يصلون بالعربية
ويتجمعون حول البيت الحرام في مكة المكرمة . وشرفت بالقرآن
لغة قريش فامست لغة الملوك والشعوب . وكانت ورثة اللغات كما
كان اصحابها ورثاء الامم . وهي اتمها واجمعها واجملها واقدمها واوسعها . وان
من بيانها وشعرها لسحراً جمع الفتن وكناز حوى الدرر . فليس للغة مالها
من بلاغة التعبير وعذوبة الالفاظ ونغم الاوزان . فهي لغة موسيقية اعجب
ما فيها رقة شعرها في البادية . ومن الخوارق خروجها من البادية
صحيحة فصيحة مهنبة فما انقص منها ولا زيد عليها . وما اعترأها ما
اعترى اللغات من التبديل والتحرير والتحويل . فبقيت حتى اليوم ثابتة كاملة
كما كانت في عهدها الاول . ولكل لغة طفولة اما هي فوجدت شابة شبابها
دائم . وفيما كانت الامم تلتعشم بالسنتها بلغ العرب الكمال في الخطابة والشعر

والكتابة واشتهروا باللطف واللين في الحديث . اللغات الاوربية شذبت اجيالاً
حتى هذبت فكأن الله نزل العربية نزيلاً . وقد كانت في العصر الوسط
لغة الدين والفقه والسياسة والمعرفة والفن فاقبست منها بعض اللغات كلاماً
كثيراً . وزهرت بها المدنية العربية فكانت اكمل المدنيات لتوفيقها بين دقة
التصور وبهجة الصور . فلم تشوه فيها قوة الحقيقة والمادة جمال الخيال والروح
بجاءت اشكالا مطابقة للروح العربية الشاعرة اللطيفة . وكأن العرب لم
يرضوا بما في الطبيعة من حسن فاضافوا اليه تحسين الخيلة . فصار الجمال تحت
ايديهم كمالا وكادت الحقائق تحسب اوهاماً . ولم يعرف شعب حقيقة الجمال
الطبيعي والانساني والفني كما عرفها العرب . فقد ابدعوا في وصفها ونعتها
وتشبيها وتصويرها واختاروا الافضل والاكمل منها . كذلك ابدعوا مدنية
مخصوصة ممتازة وختموا بختمها البلدان والاجيال . ولا تزال آثارها حتى هذا
العصر دهشة للمتأملين وفتنة للناظرين . من تلك المدنية خرج الفن والنمط
العربيان المذان برعا كل الفنون والانماط فظهرت فيهما زخارف النقوش العربية
التي بدعوها الافرنج ارابسك ويحبون امتثالها . وقد كان في اليمن على رأي
الآثرين اقدم ملكية ومدنية . وعرف من الآثار العظيمة ان مدنية مصر
مكتسبة من مدنية اليمن وكانت المدنية المصرية معدودة اقدم المدنيات . واهل
اليمن اول من وضع الحروف والخط ونقش في الحجر . فليأخذ العرب من
ماضيهم لا تبيهم ليصونوا بدولتهم سلالتهم ولغتهم ومدنيتهم . وليتواصوا بالامر
العظيم ويوصوا به الذرية لان قوى الامة ضائعة بلا دولة

ان مدنتنا الادبية اسمى من مدينة الافرنج وفيها ما يوافق اخلاقنا واذواقنا
فليكن اقبالنا على ما عندهم من المدنية العلمية والفنية والزراعية والصناعية
ولنتشبه باليابان في نهضتهم ولتكن حكما في اختيار ما ينفعنا واجتناب ما
يضرنا . ولنا خذ ما يصلح دنيانا ولا يفسد ديننا وادبنا فالرسول اوصى بطلب
العلم . وقال الامام علي «علموا اولادكم فانهم ولدوا لزمان غير زمانكم» لكل
عصر اطوار وحاجات وحالات لا بد منها فعلينا ان نجاري من حولنا لئلا نضل
محرومين ومسبوقين . وافضل الوسائل للاحتذاء والاكتساب تخريج الطلبة
في اشهر المدارس وارسال البعثات الى البلاد الاوربية والامير كية للاستطلاع
والاستقصاء . فيعود رسل الخير اليها بافضل ما رأوا وسمعو او علموا بعد التجريب
والتحري . فخذ عن كل شعب احسن ما عنده ولا نخذو حذو واحد فرما
كان عنده نقص وقصور . لقد تم وضع العلوم والفنون والصناعات
والاختراعات ولم يبق بعد عناء الابتداع الا قصد التحصيل . وهذه ادق
المخترعات تباع وتشري متاعا معروضا . وليكن اشد اهتمامنا بالزراعة والرعاية
فقوت الامة وقوتها من الزرع والضرع . وعليهما مدار التجارة والصناعة
والثروة من هذه الاربعة . وبقدر ثروة الامة تكون قوتها ومدنتها ونعمتها
قال جعفر البرمكي وهو من احكم الوزراء «الخراج عمود الملك» ولا تغفل
عن التعدين فهو من موارد الاثراء الكبيرة لئلا نفوتنا منافع ارضنا بما على
ظهرها وما في بطنها . وانعتن كل الاعتناء بتنظيم البلديات وتحسين المدن
ولنا من جمال الطبيعة ما يزيد الصناعة رونقا . وانشيد فيها المباني الفخمة

على الرياضة العربية والخط الاموية . ولنحفظ آثارنا في المتاحف وكتبنا في
المصحفات طالبين ودائنا عند الاوربيين . فان اكثر اعلقتنا النفيسة في متاحفهم
ومصحفاتهم . وليكن علماءنا متنقلين في مدارسنا كواكب سياره . ولنجعل
التعليم اجباريا ليعلم كل الطبقات فلا اقتل للامة من الجهل . ولنتعلم لغات
الاجانب لنُدري اخبارهم واسرارهم فنباريهم ونداريهم . ولنعرب المفيد من تصانيفهم
وكل ما يختص بنا فيها . ولنرفض اكثر ما يكتبه الافرنج - في العرب فهو
مزعوم ومغشوش وخصوصاً في الروايات . وليس فيه شيء من حقيقة الحال
لانهم لا يعرفون الشرق الا تخيلاً ونوهماً . فيصوروا الهيئة الشرقية كما تشاء
مخيلاتهم الغربية . ولا يراعون القاعدة القائلة ان الكتابة كالتصوير لا يصلح
منها الا ما جاء بحسب الحقيقة والطبيعة . ولننبش ما أثرنا وما أثرهم وننقشها في
اذهاننا . ولنحفظ باعثناء واهتمام ما أثر امتنا ونقويم بلداننا . ولنرسم للدولة
العربية الكبرى شعاراً جامعاً لرموزنا كاشفاً لكنوزنا . ولنضع اعياداً لعلامتنا
وايماننا تذكرينا عظامتنا وعظائمنا وتقوي فينا الشواعر الانسية والوطنية . ولنضرب
نقودنا عربية صرفه عليها من كل خطوطنا ونقوشنا . ولنحذف كل دخيل غير
مأنوس به لنكون عرباً خالصاً . ولنكتب على قلوبنا كل ما تصبو اليه نفوسنا
ان ما يكتب على القلوب لا تمحوه السيوف



فائدة

كان الفراغ من تأليف هذا الكتاب في ٧ آب من سنة ١٩١٩ وهو يوم مولد المؤلف الذي كان عامئذٍ في الثامنة والعشرين . وقد طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٢١ الموافقة سنة ١٣٣٩ في ريو دي جانيرو عاصمة البرازيل ان المؤلف كان له صدق نظر ورواية بكثرة اختباره وسعة اطلاعه في اللغات التي يعرفها وهي الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية . وقد بدأ منذ سنة ١٩١٠ ينبيء بل يتنبأ بنهضة العرب وعودة الدولة العربية فكان العرب انفسهم يستغربون كلامه وكتابته ويعدونّه صاحب احلام واوهام . ولم يكن يخطر في بال احد ما جرى من الحوادث العظيمة والانقلابات السريعة . اما اليوم وقد بات الرسم حقيقة والظن يقينا فلا بد من الاعتراف بالفضل لابي الفضل . وستزيد الايام مذهبه تأكيذاً وثبوتاً فما كان ليس شيئاً عند ما سيكون

تنبيه

وقعت غلطات مطبعية لزم التنبيه الى اهم ما أدرك منها وهذه هي :

الخطأ

صفحة ٤٦ سطر ٦ تحز . ص ٤٨ س ٧ تعوذ . ص ٥٦ س ١٣ الواقع . ص ٦١
 س ٢ ماصرها وس ٤ وشرائهم . ص ٦٢ س ٥ لو . ص ٧٦ س ١٠ القسطنطينية . ص
 ٧٧ س ١ الابدين . ص ٨٢ س ١٨ هل وس ٢٠ المدينة . ص ٩٤ س ١٦ مسقخفيا
 ص ٩٦ س ٩ شبت وس ١٠ ريحا . ص ١٠٢ س ٣ توءذنو ص ١١٠ س ٢
 ويجزون . ص ١١١ س ١١ كان . ص ١١٢ س ٩ القتلى . ص ١١٣ س ٥ جواو
 ص ١٢١ س ٣ ويرجى . ص ١٢٤ س ٧ اما . ص ١٣٠ س ١ غشو . ص ١٣٢ س
 ٨ لانتفاع وس ١٤ للما بشين . ص ١٣٤ س ١٨ دم . ص ١٣٥ س ٧ عارية وس ٨
 نشان . ص ١٣٦ س ٤ المظلومين وس ١٤ بمخالفتهم . ص ١٤٢ س ٣ ثقلع . ص
 ١٥٦ س ١٧ المشنوة . ص ١٦٧ س ٥ ويجولونا . ص ١٨١ س ١٦ حنصون . ص
 ١٨٧ س ١٤ أود . ص ١٩٤ س ٥ فقال . ص ١٩٨ س ٧ اليأس . ص ٢٠٤ س ١٤
 أفراد . ص ٢٠٥ س ٤ الظاهر السلطان وس ١٦ ألف الف . ص ٢٠٧ س ٤ لذلة
 ص ٢١٣ س ٤ ابي سلم . ص ٢١٥ س ٩ قضاء . ص ٢١٧ س ٥ الوقائع . ص ٢٢٦
 س ٦ الفرنسيس . ص ٢٣٢ س ٦ وشدته

الحواب

تحز . تعوذ . الواقع . قاصرها وشرائهم . فلو . القسطنطينية . ابد الابدين
 وهل المدنيات . شبت . ريحا . توءذن . ويجزون . كانوا . ويجرم القتلى . جوار
 ويرجى . ما . غشو . لانتفاع ولما بشين . رمم . عارية . نشأت . المظلومين بمخالفتهم
 تقطع . المشنوة . ويجولوا . حنصون . أوداً . قال . البأس . فاراد . السلطان الظاهر
 الف . الذلة . ابي مسلم . وقضاء . الوقائع . الفرنسيس . وشدت

شهادة عدل وكلمة حق

ابو الفضل الوليد عبقرى نابغة متفرد مندر اشهر من ان يعرف واكبر من ان ينعت ويوصف . ان هو الا الحكيم الاعظم والشاعر الانظم الذي يريد ان يعرفه الناس بما يقول لا بما يقال فيه . وكل ما كتبه يعد من نفائس الادب العالي وعليه طابع ممتاز من الاجادة والابتكار . فلو ترجمت مؤلفاته الى اللغات الاجنبية لكان لها شأن عظيم ومقام رفيع وصدى بعيد . ولو انصف ابناء العرب لجعلوا كتبه ذخائر في كل بيت ومدرسة . ولو كان للادب الشرقي ما للادب الغربي لملأ المكاتب من نتاج قريحته الخصبية

لقد الف في اللغة والتاريخ والادب والشعر والتمثيل والغناء والنقد والاجتماع والرواية والسياسة والفلسفة . فكان عقله من العقول المحيطة التي لا يخفى عنها شيء ولا يفوتها امر . فظهر موهبة فريدة ومقدرة عجيبة ومخبرة دقيقة وذكاء خارقا وبيانا ساحرا واطلاعا واسعا . فاصبح رب الصناعتين ، وحامل الراجين ، والحكيم الاخير ، والفيلسوف الاكبر ، وشاعر العرب الامثل ، ونجى الملاء الاعلى

انه الشاعر الملى الذي فاض في شعره كل ما في قلبه الكبير من عواطف العصبية والوطنية . والفيلسوف ذو البصيرة النيرة والنظرات الصادقة والاحكام العادلة . والسياسى المطلع الخبير العارك الاقوام والايام درسا وفرسا . وقد نظم الشعر عقودا في الطرب الاعلى ، وضرب النثر نقودا للوثر الامدى فملك النثر والنظم وكان اشعر من شعر واكتب من كتب . وما بلغ ابعد

طية الا بطويته الصادقة وادراكه لسر القلب البشري . وليس لهذا الجيل بل
للاجيال الآتية ان تفهيه حقه وتعرف فضله وقدره . فقد كان ظهوره قبل
اوانه ، وعلى غير استعداد من اهل زمانه

كل بيت من شعره قصيدة وكل جملة من نثره مقالة ، وله في الانشاء
ميزة يفتن لها الارب فيقر بانها معجزة . ان عباراته مجتمعة تؤلف اجمل
موضوع بابدع اسلوب . ومفترقة تحيي . حكما منفردة وقد حسن فصلها كما
حسن وصلها . وفي هذا الدليل على العقل الناضج والعلم الواسع والفن البارع
فهي كدمى منحوتة او جواهر مصقولة يغالى بها منشورة في صرة او منظومة
في قلادة

لقد برز بما ابتكره واحتكره على المتقدمين والمتأخرين . وما كان
التهاب فكره وقلبه ونفسه الا من شعلة سماوية . فاستحوذ على الخواطر
والعواطف حتى تمثل الناس بآياته واياته . وحدث ثورة حسية وفكرية بما
ابتدعه من المناهج . واحاط بالعلوم والفنون وتصرف بها وانشأ فيها متبوعا
من الشعراء والكتاب . وهو العربي الخالص والسوري المخلص الذي يستحق
التمجيد كما مجد الجنس والوطن . ولا يستطيع الدمشقيون مكافأته على تحبيب
دمشق وتعظيمه لها في اسمي ما قرىء وانشد . وما كان يتصورها الا اموية تظل
المشرقين بالعروبية . فسلام على شاعر العرب الذي ملأ النفوس حماسا
وطربا

جريدة الحمراء

انشأ أبو الفضل الوليد جريدته (الحمراء) في ريو دي جانيرو عاصمة
البرازيل . فاصدرها في ١٥ نيسان سنة ١٩١٣ وبقيت حتى آخر سنة ١٩١٦
وكانت كلها مكتوبة بقلمه ومملوءة من روائع نثره ونظمه . فعظم شأنها وعلو
صوتها في جميع النوادي العربية من ادبية وسياسية ، وقد سماها الحمراء تيمناً
بحمراء غرناطة ودلالة على مبدأها وخطتها العرييين . وجمع فيها شتات الامور
والفنون في السياسة والحماسة القومية والوطنية والتاريخ والرواية والحكم والطرف
فجاءت مذكرة لمفاخر العرب في القديم ومغرية بمحاسن الحديث بالعبارة والقذوة
فاقبل عليها قراء العربية في كل بلد بطلاعونها بشغف وينتظرون مواعيد صدورها
وتنافس في حفظها المشترك كون وتشاحوا عليه حتى جلدوا مجموعاتها احسن تجليد
وتناقلت الصحف العربية في الشرق والغرب مقالاتها وقصائدها فجرت آياتها
وابياتها على كل لسان . وترجمت الصحف البرازيلية اكثر مقالاتها وقصائدها
فنالت الاعجاب والثناء . وحرمت حكومة الاستانة دخولها الى السلطنة العثمانية
وحكمت على صاحبها في الحرب باشد العقوبات كما حكمت على احرار العرب
ومجاهديهم . وهو معدود من عمداء النهضة العربية وزعماء الحركة السياسية
ولم تحظ جريدة حظوتها في ذلك العهد لطريقها الجديدة ومذهبها الصحيح
فصاحب الحمراء اول من عرض على العصبية وبشر بالدولة العربية وذكر الاحفاد
ماثر الاجداد . فلا بدع اذا كانت له المنزلة العليا عند اهل الحفاظ والوفاء
وهو الذي احب وحبب الفداء في سبيل الامة والوطن

تصانيف ابي الفضل الوليد

المطبوعة في المهجر

بأشر ابو الفضل الوليد طبع البعض من كتبه على ولاء بهيمته العالية وعزمه الشديد . فطبعها بنفقته وعنايته وتولى نشرها بنفسه خدمة للامة العربية فظهر في البرازيل اربعة كتب من شعره هي الغريبات والانفاس الملهية و رياحين الارواح والقصائد . وكان ظهور الغريبات سنة ١٩١٥ والانفاس الملهية سنة ١٩١٧ ورياحين الارواح سنة ١٩١٨ والقصائد سنة ١٩٢١ وظهر من نثره اربعة كتب ايضا في تلك المدة نفسها . وهي كتاب الشغب و نفحة الورد وآخر بني سراج والصحائف . وقد طبعت هذه التاليف النفيسة كلها في اعوام الحرب فلم يكن منها نصيب للوطن . فنفقت حتى نفدت في ديار الهجرة وطلبت النسخة منها باغلي ثمن في بعض الامصار العربية . وقد اشار بعض الزعماء والوجهاء بوجوب تعليمها في المدارس لتأخذ منها الناشئة ما يقوي عقائدها وعواطفها . وتألفت لجنة من المعجبين لاعادة طبعها وطبع المؤلفات الجديدة لصاحبها . فكتب ابي الفضل الوليد تعد تحفا في خزان الادب . ومن الحسارة ان لا يكون بها للعرب تمتع وانتفاع وهي مكتوبة لهم . وقد استعظمها الادباء الاجانب وترجموا نفا منها وتمنوا لو كتبت بلغاتهم . وبعض المستشرقين يهتم بترجمتها الى اللغات الاوربية . وبينهم وبين مؤلفها مراسلات يظهرون فيها اعجابهم واعظامهم . ويشيرون عليه بان يكتب في اللغة الافرنسية التي يجيدها كل الاجادة

رياحين الارواح

هو الرقبن الاول من شعر ابي الفضل الوليد ملك الشعراء . وقد تردد في الخافقين فسار مسير الشمس وهب هبوب الريح . واكثره منظوم من الخامسة عشرة الى التاسعة عشرة من سنه اي من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩٠٨ ، ان نغمت هذا الشعر من السماء واسمه مطابق لفحواه . فالشبية ترى فيه آلامها ولذاتها كأن قلب ناظمه في قلوبها . وهو شعر الصبى الذي تمر فيه المشاهد بين البسمات والدموع . فطالعه ومقتنيه كواجد كنز او ذاخر درا . وكل ما فيه ابتداع وابتكار يدلان على النبوغ المتفرد والعقربة المتفوقة . وقد عرف ناظمه بظريته الخارقة التي يحاول امثالها اكثر المنشئين . ففي هذا الرقبن اتى بالمواضيع العجيبة والاساليب الغريبة فاورث دهشا وعجبا . وقد فصله وجعله انواعا في سبعة ابواب . وهي النزهيات ، والزهريات ، والغزليات ، والخمريات ، واللهويات ، والوجديات ، والرشديات . ففي النزهيات تتجلى محاسن الطبيعة بما فيها من حزن وفرح . وفي الزهريات وصف الازهار وما تهيجه من العواطف في قلوب المحبين . وفي الغزليات منتهى الظرف واللفظ والصبابة والمناغة وحوادث الغرام . وفي الخمريات الدعابة واللذاعة والحشمة والحكمة في مجالس الشراب وفي اللهويات كل ما تطيب به النفوس وتشرح له الصدور . وفي الوجديات التذكارات الشجية ومواقف الشكوى ولوعات الاسى . وفي الرشديات تعرف اسرار الحياة وتقلب النهى على الهوى . وقد طبع طبعة اولى في ريودي جانيرو سنة ١٩١٨ وطبعة ثانية في بيروت سنة ١٩٣١ في مائتي صفحة كبيرة

اغاريد في عواصف

هو الرقين الثاني من شعر ابي الفضل الوليد . نظمه في سن العشرين والواحدة والعشرين ايام خاض البحار وجاب البلاد . فكان شعر الغربة الذي سما فيه الفكر ولطف الشعور . وانه يعد اجمل شعره واعذبه لان قلبه خفق به صادقا . فيه تدفقت العواطف تدفق الينابيع . وتوالت المشاهد كأنها مصورة بدهان . وتواردت المواقف والخيالات والتذكرات في قصائد طويلة رقت الفاظها لركة معانيها . وقد تولدت من الرياح والامواج والغابات والانهار والافاق والنجوم والاسواق والقفار . فتفجر من ابياتها التشويق الى الوطن والتأمل في الغربة والتجلد في العذاب . فهذا الرقين رحلة وقصائده مراحل بين اوربة واميركية . ومن يطالعها لا يفتأ يردد لها لعلوقها بكل قلب لطيف وان من انشادها نشوة وطربا يرفعان النفوس الشريفة . فكانها انعام والحن يسمعها العالم الادنى من العالم الاعلى . فتتراءى له الدنيا ملائى من اللذات والآلام والضحك والبكاء . وقد امتازت برقتها وعذوبتها وانسجامها لما فيها من العواطف الصادقة والشعور البليغ . فهي قلب يذوب ويسيل ليجعل مثله كل القلوب . نظمت من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٠ ، وطبعت ثلاث طبعات في البرازيل سنة ١٩١٥ باسم الغريبات . فنفق منها ثلاثة آلاف نسخة لكثرة الاقبال عليها . وطبعت طبعة رابعة في بيروت سنة ١٩٣٢

الانفاس الملهية

هو الرقبن الثالث من شعر ابي الفضل الوليد . نظمه من سن الثالثة والعشرين الى سن السادسة والعشرين اي من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٦ وقد تضمن القصائد الحماسية والحربية والوطنية الي انتجتها تأثيرات الحرب الكبرى . ونشر اكثرها في جريدته الحمراء وجرائد البرازيل ومجلاتها العربية . وتناقلتها الجرائد في جميع المهاجر ومواطن العرب . وقصائد هذا الرقبن اكثرها تقارن الحماسة فيه الغزل مقارنة رفيعة شريفة . وهو نسق توحد به ناظمها فلم يسبق ولم يلحق وجاء بالطرائف والنوادر . فشعر الانفاس الملهية يلهب القلوب والنفوس والعنوان يدل على الفحوى . فما هو الا الشعور البليغ بحب الوطن وشقائه وعذابه . والامل بخلاصه وحرته وعودته الى مجده وجماله في عهد العرب . وان قوة التعبير في هذا الشعر تدل على قوة الايمان واليقين . وفيه تمثيل لثورات الشعوب وويلات الحروب واصطدام الجيوش وما يتخللها من حب المجد والحرية . فالقصائد استعراضات ترى فيها الجنود والسلاح والاعلام وتسمع اصوات المدافع والطبول والابواق . فهي صورة للزمن الذي نظمت فيه ولنفس الشاعر الذي نظمها . وان من لهما ما يضرع اعظم النيران . طبع هذا الرقبن في ريودي جانيرو سنة ١٩١٧ ومنعت السلطة الانكليزية دخوله الى البلاد العربية . ثم طبع طبعة ثانية في بيروت سنة ١٩٣٤

نفحات الصور

هو الرقین الرابع من شعر ابي الفضل الوليد . نظمه من التاسعة والعشرين الى الثلاثين اي من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٠ . فكان آخر شعره لانه ابي النظم بعد الثلاثين رصانة ونزاهة . وقد حوى هذا الرقین قصائده العربية الرنانة الطنانة الزاخرة كموج البحر . وجميعها طويلة وكل واحدة منها منسوبة الى ارض او مدينة عربية . فتاريخ العرب معروض فيها باجمل المظاهر واروع المشاهد . وفيها من التذكير والتحريض ما يجعل الجبان شجاعا والقعيد هاما وتلك عواطف لم تتفجر الا من قلب ابي الفضل الكبير الذي وسع امة وبلاداً وليس لغيره هذا النفس الحار الطويل لان بين جنبيه نفساً عليّة وقوية جداً وهذه القصائد الخالدة تشبه اثار الاقدمين التي غلبت الدهر بمتانتها وفخامتها وحقها ان تنقش على الصلب من الحجر والعدن لا ان تطبع على الورق . فان ابياتها تتدافع كالتيار وصعقاتها كصدحات الابواق . وانها من نوع الايوبة عند الافرنج فهي ملحمة العرب الكبرى . وثفوق الملاحم اي الايوبات التي نظمها اليونان واللاتين والافرنج بعظمة المعاني ومثانة المباني . ولا بدع فالعرب قد فاقوا تلك الامم بالماثر والمفاخر ، والعظام والمكارم تأتي على قدر العظام والكرام . واجادة الواضع تكون من جودة الموضوع . طبعت باسم القصائد في ريودي جانير سنة ١٩٢١ ونشرتها الجرائد العربية في جميع الاقطار . وقد نقلها مخطوطة كثيرون من الذين لم يحرزوها مطبوعة وطبت طبعة ثانية في بيروت سنة ١٩٣٤

احاديث المجد والوجد

هو الكتاب النفيس الذي يصح ان يقال فيه ان من البيان لسحرا . جمع محاسن الفكر والانشاء ومكارم الخلق والشعور فاستحق ان يكون اماما ومثالا . وبما حوى من الابداع والاغراق اعجب القارئين واعجز الكائنين وبلغ المدى في البلاغة والفصاحة والسهولة والعدوبة . فهو خلاصة كل دماغ تنبضه الخواطر السامية . وصفوة كل فؤاد تحفقه العواطف الشريفة . وقد تضمن الروايات البديعة والمآثر المجيد والاحاديث المفيدة والسياسة الراشدة والوطنية الصحيحة والفكاهة المقرونة بالكياسة . واحتوى على حسن الادب والسلوك والمعيشة والثقافة والتعليم والتهديب . وكفى بمؤلفه كاتباً في تعبيره ما يدل على خلوص عروبه واعرابه . وما كانت حركات بنانه الا من حركات جنانه . ان هو الا ابو الفضل الوليد صاحب الصيت الذائع في الاقطار والخبر الشائع في الامصار . وفي اسمه الشهير الكبير ما يغني عن الالقب والنعوت بعدما رجعت جميع الافسواء والقلوب . فمن لم تسحره آيات نثره وتسكره آيات نظمه . وقد كانا في نظر العارفين وحيا والهاما ونزىلا لخير العرب . وانه صاحب التفنن العجيب وله في الصناعتين فضل التجميل والتكميل بما اوتي من المواهب الرفيعة . فهو ابو الفضل بالكنية والحقيقة لتحبيبه الجمال وتقريره من الكمال . وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٢٩ في ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير . وكان الاقبال عليه كثيراً حتى بيع منه الف نسخة في عام

كتاب القضيتين

يحتوي على مباحث عامة في احوال الشرقيين وخاصة في احوال العرب وقد ظهرت فيه الاراء السديدة والنظرات الصادقة والخطط الراشدة . فدل على ان مؤلفه له مقدرة سياسية وموهبة كياسية ، ولا غرو فهو المتبحر في تواريخ الشعوب والمتضلع في لغاتها لا سيما لغة العرب وتاريخهم ، وقد عرفه الاكثرون اماما في علم السياسة لانه تجرد له مدفوعا بالسليقة والهوى ، فاذا حدث او كتب او خطب او نظم مال الى السياسة التي حببها اليه شدة حبه لقومه ووطنه ، فكأن الله ارسله لهذه الدعوة كي يكون منها للعرب رشاد وصلاح ، وقد زاده حذقا وحكمة تطوافه في الاقطار الاوربية والاميركية ومخالطته لشعوبها ، فاكسب صحة العقيدة وقوة الحججة وعدل الحكم من كثرة الاطلاع والاختبار والمراس ، وقد كان منذ صباه شديد العصبية والوطنية ينزع الى الاستقلال والحرية ، فكتاب القضيتين فريد من نوعه في اللغة العربية يضاهي اخطر المؤلفات السياسية عند الغربيين ، وهو الاساس للبيان العربي الجديد والقاعدة لكل الاقوال والاعمال السياسية في البلاد العربية ومصدره عقل انضجه رسوخ العلم وقلب انبضه سمو الوطن . فحق لهذا المؤلف ان يدعى الكتاب في السياسة كما دعي مصنف سيبويه في النحو . وحبذا لو عم نشره جميع الاقطار الشرقية والعربية . فيكون منه تذكير وتبصير لأمم تحاول ان تصير دولا . طبع جزء منه باسم الصحائف في ريودي جانيرو سنة ١٩٢١ وطبع طبعة كاملة في بيروت سنة ١٩٣٤

المالك

هي رسائل من صدوق الى صديق تضمنت كل المواضيع الاجتماعية وتخللها كثير من الحكم والملح والامثال والشواهد ، وقد امتازت بفصاحة عبارتها واحكام كلامها وطلاوة اسلوبها واستحداث معانيها ، فللقاري منها عبرة وفكاهة من وصف الاخلاق والاحوال والاعمال وكل ما يراه في المجتمع من الفضائل والنقائص ، فلا يمل من كتابة جمعت خفة الروح وحدة الذهن وسرعة الخاطر في نكتة ظريفة ومداعبة لطيفة وانتقاد مصيب وتهكم مضحك والعلامة ابو الفضل الوليد قد ابتدع في الانشاء اسلوبا مختصا به لانه احب التفرد . وامتاز باختيار الالفاظ وتركيب الجمل كما امتاز باستنباط الافكار والمعاني ، فما لكه نعد من غرائب الادب ونفائسه بمجدة نسقها في التفكير والتعبير ، وهي معرض البشرية بمعايشها وعاداتها ومحامدها ومخازيها ، وقد حوت كل ما يخطر في البال ويدخل السمع ويقع عليه النظر مقيدا بالمنطق والتعليل ، فالفلسفة الصحيحة العملية بادية في كل سطر من سطورها ومؤلفها فيلسوف كبير قارن بين الفلسفة الشرقية والفلسفة الغربية واخذ منهما الخلاصة . فكانت طريقته الفلسفية وسطا بين طريقة العرب وطريقة الافرنج . وميزته فيها الوضوح والسهولة لسرعة الفهم والادراك . وقد يختصر نظرة فلسفية بقطعة فيفيد ما لا يفيد غيره برسالة . فكانت كتابته مختصرة مفيدة وخير الكلام ما قل ودل . صنفها سنة ١٩٣١ وطبعها سنة ١٩٣٢

التسريح والتصريح

هو من انفس مؤلفات العلامة ابي الفضل الوليد . وقد جمع بين دفتيه ادق المباحث في لغة العرب و كلامهم وشعرهم وغنائهم وادبهم وحكمتهم واسمائهم . وفيه من الآراء والاخبار ما لا يوجد في غيره من الكتب وما لم يطرقة كاتب . وتصنيفه يدل على تأنق مصنفه وتعمقه في جميع المواضع التي عالجها . ففي كل مرمى له السهم الصائب بما اوتي من العقل الحاذق والعلم الواسع . والحكمة والنقد والوصف في هذا الكتاب تهدي اهل الادب الى سبيل جديد قويم . وتفتح لهم ابوابا لم يلجوها وتعلمهم امورا لم يألّفوها . وتقوي فيهم الميزة فيضعوا الشيء في موضعه ويحكموا على كل شخص بما يستحق فسيكون لهذا الكتاب النادر تأثير شديد في الادب العربي بما حوى من الدلائل والفوائد . وانه بنسقه كتاب مدرسي رفيع ينور اذهان المتخرجين من ابناء العرب . ويعرفهم سرائر لغتهم ومحاسنها وماثر قومهم ومكارمهم وان عصرا سمح بابي الفضل ومؤلفاته لعصر كثير السخاء والكرم . فهو فخر هذه الامة ومؤلفاته اعلاؤها ونفائسها . وكتابه هذا عقد نظم اصفى اللآلئ وباقه ضمت اذكي الازهار . وقد احاط بالفنون وجمع شتاتها ووصل بين قديمها وجديدها . فجاء كما شاء العقل الصحيح والذوق السليم والنطق البليغ فقارنت فيه الملمذة المنفعة والفكاهة الكياسة والاجادة الافادة . طبع طبعة

زوال الحب والملك

هي اجمل رواية تمثلية نظمها الردبيرن اكبر شعراء الانكليز . فعر بها بمزيج من النظم والنثر ابو الفضل الوليد اكبر شعراء العرب ، وزاد عليها شيئاً من شعره واغنيته الشهيرة التي مطلعها

ربة اللطف الخفي علي قلبي الحزين

وفضله الاكبر في انه جعلها موافقة للروح العربية علي امانته في حفظ الاصل . فجاءت مثالا لحسن الترجمة وصدقها ، وقد لخص كلامها وقصر شرحها بعبارات قوية بليغة تخرج من الافواه كالسهم من القسي ، فحول النمط القديم نمطا جديداً يجمعه المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة ، ولما طالعها احد الراسخين في العربية والانكليزية قال : لم ينصف شاعر الانكليز الا شاعر العرب ، ان في هذه الرواية الشهيرة من الحوادث العجيبة والحكم البليغة والاطوار السامية ما يأخذ العقول ويغلب الالباب ، وهي ذات خمسة مشاهد يود القارىء او الشاهد ان لا تنتهي لما يرى فيها من الغرائب وقد جمعت من اساليب الكلام ابداعها . ومن افانين المعاني ارفعها . ومن الاخلاق اكرمها . ومن العواطف اشرفها . ففيها الترغيب في الصلاح والفضيلة والتحريض علي التضحية والاستشهاد . وافضل ما فيها الاخلاص في الحب والاقدام في الفداء ، عر بها المؤلف في اقل من شهر سنة ١٩٢٣ بالحاح جماعة من هواة التمثيل وطبعها سنة ١٩٢٥ ، قد نفق منها الفانسخة في مدة ستة اشهر . ومثلت في مصر وسورية ومهاجر امر كية وافر يقية

غافر ولبانة

هي منعمة شعرية نظمها ابو الفضل الوليد من اجل مصر . وقائعها حديثة
جرت في ضاحية القاهرة تمثل حالة الامة المصرية في نهضتها الميمونة . وفيها
يظهر اهل الفضيلة من المصريين والمصريات افكارهم وامالهم وعواطفهم . وقد
وضعت على اسلوب جديد وطريقة مبتكرة جمعا محاسن الادب الرفيع
ولا بدع فناظمها قد تفرد بابداعه وانداده في النظم والنثر وجاء بالعجب
العجاب . وان تفننه بالتفكير والتعبير يدل على مخيلته الغنية ومقدرته الفنية
فهذه المنعمة البديعة صادفت هوى في كل النفوس فقبولت بالدهشة والاعجاب
وانها الاولى من نوعها في اللغة العربية ولو ترجمت الى اللغات الاجنبية لكان
لها الاثر الشديد والذكر البعيد . وقد قال خير مطلع على المناغم عند الافرنج
ان منعمة غافر ولبانة اجمل المناغم التي تلوتها وشهدتها فهي تحفة هذا الفن
وكان نظمها على نسق مبتكر ظهر فيه اجمل التفنن في الموشحات والقوافي
والاوزان . فشبهها احد قارئها بواجهة جوهري معروضة فيها الجواهر على
اختلاف انواعها والوانها . والخير يظنها تأليف موسيقي لا تأليف شاعر لما
حوته من الصناعة الموسيقية . ولما تلاها احد الموسيقيين قال : هذا تنزيل لا تلحين
ويحاول بعض المغنين والملحنين ابرازها للجمهور في سورية ومصر . فاذانجم
المسمى تسمع البلاد العربية نغمات جديدة من الملاء الاعلى . الفها شاعر
العرب سنة ١٩٢٨ ثم طبعها سنة ١٩٣٢

DATE DUE

JAFET LIB.

23 DEC 1992

أبو الفضل الوليد

كتاب القضيتين في السياستين الشرقية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01050813

A. U. B. LIBRARY

